

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
صَبَّاحُ سَاعَاتِ الْمَوَدَّةِ

التَّحْقِيقُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ

محاضرات في علوم القرآن تبحث عن نزوله وتدوينه
وجمعه وإيجازه وعن التفسير والمفسرين مع رد شبهات المستشرقين
بأسلوب يجمع بين الجدة والتحقيق

للشيخ محمد علي الصابوني حفظه الله

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بمكة المكرمة (سابقاً)

طبعة مبدية صممة مارونة

مكتبة البشير

كراتشي - باكستان



التجويد

في

علوم القرآن

محاضرات في علوم القرآن تبحث عن نزوله وتدوينه
وجمعه وإيجازة وعن التفسير والمفسرين . مع رد شبهات المستشرقين
بأسلوب يجمع بين الجدة والتحقيق

للشيخ محمد علي الصابوني حفظه الله

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بمكة المكرمة (سابقاً)

طبعة مبدية - طبعة ملونة



اسم الكتاب : الشبان في علوم القرآن

تأليف : للشيخ محمد علي الصابوني مد له

الطبعة الأولى ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

الطبعة الجديدة ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

السعر =/ 150 روبية

عدد الصفحات ٢٣٦

مکتبہ البشیر

لنطباعہ و النشر والتوزیع

AL-BUSHRA PUBLISHERS

Choudhri Mohammad Ali Chantable
Trust (Regd.)

Z-3, Overseas Bungalows Gulistan-e-Jouhar
Karachi- Pakistan

تلفون: +92-21-34541738، +92-21-37740738

تفاکس: +92-21-34023113

لنصفح علی لائبرٹ: www.maktaba-tul-bushra.com.pk

www.annabbaseisha.edu.pk

لیریڈ لائلکریومی: al-bushra@cyber.net.pk

بظمت من

مکتبہ البشیر، کراچی، پاکستان +92-321-2195170

مکتبہ الحرمین، روموڑ، لاہور +92-321-4399313

المصباح، ١٦، رومو مارو، لاہور +92-42 7124656، 7223210

ہک قسٹ، مشی بلازم گنج، روتا، دہلی +92-51-5773341، 5557926

دار الإعلام، روتا قصہ عوامی، روتا، پشاور +92-91-2567539

مکتبہ بنو ہاشم، سرکاری روتا، کراچی +92-333-7625464

و انھذا یوجد عند جمیع المکتبات المشہورہ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، والصلوة والسلام على عبده ورسوله محمد النبيوت هادياً ورحمة للعالمين، فكان نعم المبلغ للرسالة وبعث المؤدى للأمانة، وكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً.

وبعد، فالقرآن الكريم هي المعجزة الخالدة وأخر الكتب السماوية الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فقد اعتنى به العلماء اعتناء خاصاً منذ الفريخ الأول للمسلمين، وتناولوه قراة وحفظاً وتعليماً وتحسيناً وإبرازاً لعظمته وما عني من المعاني، وإظهاراً لوجود بيانه، ومعرفة لأسباب نزوله، وناسخه ومنسوخه، ودرسه، وتأريخ نزوله وتنوينه إلى أن وضعت العلوم والفنون، وتقدم مركب الحضارة والتدوين، فتسجت العلوم والفنون، فأصبح كل فرع متشعب يصب في مصبه.

ومدة علوم القرآن أيضاً وبثمة هذا التطور العلمي والتشعب العلمي، وألفت مئات الكتب في هذا الموضوع فديماً وحديثاً، والكتاب هذا أي "التيان في عموم القرآن" في الحقيقة مجموعة محاضراته التي ألقينها على طلاب الجامعة، تم رتب هذه المحاضرات وطبعت لعموم الفائدة، وقد منحها الله سبحانه وتعالى قبولاً حسناً فانتشرت في أنحاء. وبدأ الناس بطبعوها في بلاد أخرى أيضاً بعد انتملكة العربية السعودية، والتفت إليها بعض الناس في باكستان أيضاً فطبعوها، فوجدتها لعلماء والطلال نافعة ومعيدة، ورأوها بغير الإحجاب.

ولما أن أصحاب مكتبة الشري تهموا على عولتهم مسؤولية إخراج الكتب الدينية في ثياب جديدة وحسن تشيئة، فالتفتوا إلى طباعة هذا الكتاب أيضاً، فأخرجوه في طبعته الرابعة مع بعض التعديلات التي رأها بعض العلماء مفيدة ونافعة للقراة، واستشاروني في هذا الأمر أيضاً.

وكانوا معي دائم الاتصال عبر الهاتف، فالتعديلات التي تم إنجازها في هذا الكتاب كتاباتي:

- الترتيب الجديد لفصول.
- تعديل بسيط في علامات الترقيم.
- توضيح الكلمات الغريبة في الهوامش.
- تخريج أحاديث الكتاب.
- ذكر عناوين رئيسية وفرعية على رأس كل صفحة.

و لم يتم أي تغيير بعد في هذا الكتاب على ما كان عليه في الطبعة الثالثة.

وأخيراً أشكر لفضيلة رئيس وفاق المدارس العربية بباكستان ومسؤوليه بأنهم اختاروا هذا الكتاب لمنهجهم في مادة علوم القرآن، وأشكر لأصحاب مكتبة المنرى أيضاً على طباعته بثوبه الجديد وبورق أبيض، واعتنو به اعتناء كبيراً يستحقه، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزيهم خير الجزاء على هذا العمل الجميل، والله ولي التوفيق.

في الرياض
 ١٤٣٠ هـ

الشيخ محمد علي النصابوني

١٤٣٠/١٢/٢٥ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله أنزل كتابه المبين، نبيانا لكل شيء، وهدى ورحمة للمؤمنين، والعصاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، ولعمرة للعالمين، وعلى آله وأصحابه، شمس طهارة، ونجوم للعرفان، والتابعين ضم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد، فإن القرآن العظيم معجزة "محمد ﷺ" الخالدة، وحجته الدائمة، الناطقة بصدق رسالته، وهو البرهان على أنه الوحي الإلهي، المنزل على هذا النبي الأمي، الذي لم يتلقَ علما على يد إنسان، ولا عرف له صلة بأحد من علماء أهل الكتاب، وهو مع ذلك لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وجاء هذا الكتاب المعجز، كرهان ساطع، ودليل فاطح، على أنه وحي من عند رب العالمين: ﴿هَؤُلَاءِ كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ كُفْرًا وَلَهُ اسْمٌ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي كُنتُمْ تَقُولُونَ﴾ (البقرة: ٢٣٠) "وَمَا كُنتُمْ بِأَعْيُنِنَا" (البقرة: ٢٥٥) "وَمَا يَخُذُ يَأْتِيَانَا إِلَّا الْقُلُوبُ الْغَافِلُونَ" (البقرة: ٢٤٦).

وقد حوى هذا القرآن العظيم علوماً ومعارف، وجاء بأحكام ونشريات في معالجة الأمراض الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، نُحِيرُ الألباب، ويعجز عن محاسنها وبهاراتها فطاحل^(١) النبغاء والعلماء، وفيه من الوحيه البليغة والبلاغية ما لا يستطيعه فرسان البلاغة، وفحول الأدباء، وأهل الكلام، ولهذا كان من الجدير بالمشتغلين بالدراسات القرآنية أن يثبتوا للناس ما حواه هذا القرآن المجيد من أصول العلوم والمعارف، وأن يوضحوا وجوه الإعجاز في سورة وآياته، ونقصه وأخباره، وفي أسلوبه وبيانه، وسائر ما حواه من كنوز ودقائق.

هذا وقد تناولت في هذا الكتاب "التيبان في علوم القرآن" بعض هذه الخصائص والمزايا، وفصلت فيه شيئا من أسرار هذا الكتاب المعجز في دراستي لعلوم القرآن، وأخرجته في فصول

^(١) فطاحل جمع فطحل: السيد العظيم وقصصه المطلق الجسم والغير العلم. (النسبة: ٦٩٤).

عشرة، هي كما يراه القارئ:

الفصل الأول: التعريف بعلوم القرآن، وبين فضائل القرآن، وآداب حملته وحفظه.

الفصل الثاني: معرفة أسباب النزول، وفوائد معرفة الأسباب في فهم آيات الكتاب، وأمثلة ذلك.

الفصل الثالث: في حكمة نزول القرآن المجيد مفرقاً، واختلافه عن الكتب السماوية السابقة المنزلة جملة.

الفصل الرابع: جمع القرآن العظيم في عصر النبوة، وجمعه في مصاحف متعددة في زمن أبي بكر رضي الله عنه،

ثم في مصحف واحد زمن عثمان رضي الله عنه.

الفصل الخامس: النسخ في القرآن الكريم، ومعنى النسخ، والحكمة التشريعية من نسخ الأحكام.

الفصل السادس: التفسير والمفسرون، وأنواع التفسير بالرواية والدراسة، وشروط المفسر

لكتاب الله الجليل.

الفصل السابع: في التفسير الإشاري، وموقف العلماء منه، والفرق بين الإشاري والتفسير

الباطني، وغرائب التفسير.

الفصل الثامن: في أشهر كتب التفسير "بالرواية والتسوية والإشارة"، والتعريف بآداب كتب التفسير.

الفصل التاسع: بحث حول ترجمة القرآن العظيم، وما يحل منها، وما يحرم، وشروط الترجمة.

الفصل العاشر: نزول القرآن على سبعة أحرف، والقراءات السبع المتواترة، وأشهر القراء من

الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.

والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به إخواننا المؤمنين، ويرزقنا العمل الصالح

بكتابه المين؛ ليكون لنا ذخراً يوم الدين يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب

سليم، وهو حسبي ونعم الوكيل.

مكة المكرمة / غرة رجب الفرد سنة (١٤٠٨) هـ

وكتبه خادم الكتاب والسنة

لشيخ محمد علي الصابري

الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

الفصل الأول:

علوم القرآن

تعريف :

يقصدنا علم التفسير أن نتم إلمامة موجزة بـ "علوم القرآن" ، وأن نعرف ما رافق هذا الكتاب العظيم من غناية دائمة، وجهود واسعة، ونجاحات مستقبضة، بذلت كدّها في سبيل خدمة هذا الكتاب العزيز على أيدي أساتذة أعلام، وعلماء فطاحل، أفتوا أعمارهم في سبيل الحفاظ على هذا لتراث الكريم، والكثير انتمى من لهذا عصر بزول القرآن إلى يومنا هذا، ثم انتقلوا إلى جوار الله، وقد حلّموا لنا نيرة علمية هائلة، لا ينضب معينها، ولا تنتهي دورها على كثر الدعوى ومزّ الأزمان، ومع كل هذه الجهود المبدونة - في تقديم والتحديث - فمن القرآن يبقى بحراً داخراً يحتاج إلى من يغوص في أعماقه؛ ليستخرج منه الآتي والسرور.

ولقد تسابق المصححون والمبنيون، والحكماء والشعراء في وصف هذا القرآن، وسرد محاسنه وفضائله، ولكننا لا نجد أبلغ ولا أسمى من وصف صاحب الرسالة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول:

"كتاب الله فيه نيا من قبلكم، وعبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من حبار فصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الأئسفة، ولا يشيع منه الغلظة، ولا يحقّق^١ على كثرة الرد، ولا تنقض عجايبه، وهو الذي لم تنته الحروف من سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا نَسْمَعُ أَصْوَاتًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ (المائدة: ٢٠١)، من قال به صدق، ومن عمل به أحر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هتفت إلى صراط مستقيم." (رواه محمد بن أبي بكر المزيني).

^١ "لا يثبت ولا يزل ولا يذهب عنه شيء كثرة القراءة والرد.".

ما المقصود بعلوم القرآن؟

يقصد بعلوم القرآن الأبحاث التي تتعلق بهذا الكتاب المجيد اخلافاً من حيث النزول والجمع والترتيب والتنوين، ومعرفة أسباب النزول، والمكنى منه والمدنى، ومعرفة التاميم والمنسوخ، والتحكم والمنشأ. وغير ذلك من الأبحاث الكثيرة التي تتعلق بالقرآن العظيم، أو خاصته به. ولعرض من هذه الدراسة فهم كلام الله عز وجل، على ضوء ما جاء عن الرسول ﷺ من توضيح وبيان، وما نقل عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم حول تفسيرهم لأيات القرآن، ومعرفة طريقة المفسرين، وأساليبهم في التفسير مع بيان مشاهيرهم، ومعرفة اختصاص كل من المفسرين، وشروط التفسير، وغير ذلك من دقائق هذا العلم.

تعريف القرآن:

"هو كلام الله المعبر، المنزل على حاتم الأنبياء والمرسلين بواسطة الأمين جبريل عليه السلام، المكتوب في المصاحف، المقول إلينا بنوائير، المتعبد تلاوته، ابتداء بسورة الفاتحة، المنتهية بسورة الناس". وهذا التعريف متفق عليه بين العلماء والأصوليين.

أنزله الله تبارك وتعالى؛ ليكون دستوراً للأمة، وهداية للخلق، وليكون دليلاً على صدق الرسول ﷺ، وبرهانا ماضياً على نبوته ورسالته، وحجة قائمة إلى يوم الدين، تشهد بأنه ترسل الحكيم الخبير، بل هو المعجزة الخالدة، التي تتحدى الأجيال والأمم على كثر الأزمان ومز السهور، وقد در "شوقي" حيث يقول:

جاء النبؤون بالآيات^١ فاقصرت^٢ وحشاً بكسب غير منصرم
آياته كلما طال المدى^٣ حدهم بزمن حمان لعنق وانصرم

^١ انزل بالآيات هنا: المعجزات التي أيد الله بها رسله الكرام.

^٢ اقصرت: أي ذهبت نهائياً وانقضت ووقتها، مع بعد ما وجود.

^٣ المدى: الزمان الطويل.

فضائل القرآن:

وقد وردت آثار كثيرة في فضائل القرآن وعلومه، منها ما هو متعلق بفضائل الأحكام والتعاليم، ومنها ما هو متعلق بالقراءة والتثليل، ومنها ما له علاقة بحفظه وترجيحه. كما وردت آيات عديدة في كتاب الله عز وجل، تدعو المؤمنين إلى تدبره وتطبيق أحكامه، وإلى الاستماع والإنصات عند تلاوته، نذكر بعض هذه الآيات الشريفة، والأحاديث الشريفة.

الآيات الشريفة:

أولاً: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبْثُورَ﴾ (معر: ٢٩).

ثانياً: وقال تعالى: ﴿وَنَاقُرِئُ الْقُرْآنَ فَأَسْمِعُوهٗ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٤).

ثالثاً: وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (عند: ٢٤).

الأحاديث الشريفة:

أولاً: وقال ﷺ: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" (رواه البخاري). ثانياً: وقال ﷺ: "الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن، ويتتبع فيه - أي تصعب قراءته عليه يعني نسيته - وهو عليه شاق، له أجران". (رواه البخاري ومسلم). ثالثاً: وقال أيضاً: "أشراف أمتي حمله القرآن". (رواه ترمذي). رابعاً: وقال أيضاً: "افروا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه". (رواه عروزي). خامساً: وقال أيضاً: "مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن، كمثل الأترجة^(١)، ريحها طيب، وطعمها طيب". (متفق عليه).

سادساً: وقال أيضاً: "إن هذا القرآن مادة الله، فتعلموا من مادته ما استطعتم..." (بخاري). وينبغي للدارس لعلوم القرآن أن يتأدب بأداب القرآن، ويتخلق بأخلاقه، ويكون غرضه من

^(١) الأترج شجر يعلو، ناعم الأغصان والورق وفنمر، ولحمه كثيبون مكبر، وهو خضى اللون، ذكي ترابحة، حامض المذاق. (المنعم الوسيط: ٤).

وراء القسم وضوان الله والدار الآخرة، لا خطاط المديان، وإن يعمل بما فيه؛ ليكون حجة به يوم القيمة، فقد صحح في الحديث الشريف: "القرآن حجة لك أو عمت" (١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "من لم يقرأ القرآن فقد هجره، ومن قرأ القرآن ولم يتدبر معانيه فقد هجره، ومن قرأه وتدبره ولم يعمل بما فيه فقد هجره". يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُ الْأَوَّلِينَ يَوْمَ لَا يَأْتِي الْقَوْمِي أَسْخَرُوا هَذَا الْقُرْآنَ مِنْهُ جَوْرًا﴾ (المزمل: ٣٠).

أسماء القرآن:

للقرآن الكريم أسماء عديدة، كلها تدل على رفعة شأنه وعُلو مكانته، وعلى أنه أشرف كتاب سماوي على الإطلاق، فيسمى: "القرآن" و"الفرقان" و"التنزيل" و"الذكر" و"الكتاب"... إلخ. كما وصفه الله تبارك وتعالى بوصف جليل عديد.

منها: "نور" و"هدى" و"رحمة" و"شفاء" و"موعظة" و"عزيز" و"مبارك" و"نسيم" و"ندى"... إلخ. عز ذلك من الأوصاف التي تشعر بمحضته وقديسيته.

وجه التسمية:

أما تسميته — "القرآن" فقد جاء في آيات كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿يَقُودُ، وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ (١٠٥).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلْبَيْتِ هِيَ الْقَوْمَةُ﴾ (١٠٥).

ب- أما تسميته — "الفرقان" فقد جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءَ بِالنُّورِ وَالْهُدَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٥).

ج- وأما تسميته — "التنزيل" ففي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نُنَزِّلُ الْقُرْآنَ فِي سُبْحَةٍ مُبَارَكَةٍ نُنَزِّلُ فِيهِ الْوَحْيَ الْأَوَّلِينَ﴾ (الشورى: ١٩٣).

د- وأما تسميته بـ "الذكر" ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ الذَّكْرُ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَلُّوا بِهَا﴾

الحج: ٢٠.

هـ- وأما تسميته بـ "الكتاب" ففي قوله تعالى: ﴿وَنُوحِيتُ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ الْحَكِيمَ﴾ والكتاب الحَكِيم، إِنَّا تَرْتَلُونَهُ فِي سَجْدَةٍ

مُسَوِّدَةٍ ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢١-٢٢.

وأما الأوصاف فقد ورد فيها أيات عديدة، وفلنما نخلو سورة من سور القرآن من وصف رافع محمد هذا الكتاب الذي أنزله رب العزة ليكون معجزة حادثة لحمله الأنبياء، ما ذكر منها:

أولاً: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْكِتَابُ مِنْ رَبِّكُمْ وَالرُّسُلُ إِلَيْكُمْ نُورٌ مُبِينٌ﴾ (البقرة: ١٧٨)

ثانياً: وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنْ الْقُرْآنِ مَاءً حَيًّا فَجَاءَتْ زُرْعَةُ الْغُلَامِ يَتَّبِعُونَ الْوَسْطَى بَيْنَ الْأَمْعَى﴾ (الأنعام: ٨٩)

ثالثاً: وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ يَسِّرُ السُّبُلَ وَيُعْظِمُ الْعُسْرَ﴾ (سورة: ٩٤)

رابعاً: وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْكِتَابُ مِنْ رَبِّكُمْ وَشَفَاءٌ لِمَنْ فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة: ١٠٦)

والقرآن كالتقراءة، مصدر: قرأ قرأه، وهكذا يرى بعض العلماء، ويستدلون بقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْنَا لُعُوبَةُ قُرْآنٍ، فَإِنَّ قُرْآنًا فَاتِحَ قُرْآنِهِ﴾ (البقرة: ١٧٨) أي: قرأته. فالقرآن على هذا الرأي يكون مشتقاً.

ويرى بعض العلماء أنه ليس مشتقاً من قرأ، وإنما هو "اسم علم" لهذا الكتاب الجيد، فهو مثل "التوراة"، ومثل اسم الإنجيل، وهذا رأي الإمام الشافعي رحمه الله. انظر كتاب "مبحث القرآن" للأستاذ مناع العطار.

متى ابتدأ نزول القرآن؟

كان بدء نزول القرآن الكريم في السابع عشر من رمضان لأربعين سنة عشت من حياة النبي الأُمِّي محمد ﷺ، فيسما كان رسول الله ﷺ يتحج - أي يتعبد - في غار حراء، إذ نزل

عليه الوحي - حبريل الأمين - بأيات اذكر أحكم، فعضه إلى صدره ثم قلته: فعل ذلك به ثلاث مرات - وهو يقول له في كل مرة: ﴿قُرْأَنُكَ﴾، والرسول الكريم ﷺ يجيبه: 'ما أنا بقارئ' أي: لست أعرف القراءة، وفي المرة الثالثة قال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَاقٍ، قُرْأَنُكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (الفصل ١-٥).

فكان ذلك بدء الوحي، وبدا نزول القرآن، ولقد سبق فروله بعض الإلهامات - أي الإشارات والدلائل - التي تدل على قرب الوحي، وتحقق السورة للرسول الكريم ﷺ.

من هذه الدلائل: الرؤيا الصادقة في النوم، فكان ﷺ لا يرى رؤيا إلا وقعت، كما رآها في منامه. ومنها: "حبه للمعزلة والحلوة"، فكان يخلو بغار حراء، يتعبد ربه فيه.

رواية البخاري:

وقد أخرج البخاري في صحيحه، في باب 'بدء الوحي' ما يشير إلى هذا، وإلى كيفية نزول القرآن، حيث روى عنه عن عائشة أم المؤمنين رضيها عنها قالت:

"أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح" (١) ثم حُبِبَ إليه الخلاء؛ (٢) وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه - وهو المتعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع (٣) إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فتزوّد منه، حتى يجاءه الحق وهو في غار حراء، فحاده المسك (٤) فقال: اقرأ، قل: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني (٥) حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، وقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (الفصل ١)، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده... (صحيح البخاري الجزء الأول).

(١) أي من الصباح ومبداؤه. (٢) الخلاء: أي الترولة. (٣) ينزع: أي يرجع.

(٤) المسك: المراد به حبريل خلطه. (٥) غطني: أي صميت إلى صدره.

ونزل القرآن في شهر رمضان، وفيه نص صريح واضح في كتاب الله عز وجل، حيث يقول عز من قائل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وأما كون الملك الذي نزل به هو "جبرئيل عليه السلام"، فقد ثبت أيضاً نص صريح في القرآن، وهو: قوله تعالى: ﴿إِنزِيلُهُ بِالرُّوحِ الْأَمِينِ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلُغَتِكَ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٥).

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنزِلْ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ يَنفُثُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ١٠٢).

والمراد بالروح الأمين أو روح القدس، إنما هو "جبرئيل عليه السلام" باتفاق النصارى، فهو أمين الله على رعيته، وهو الذي نزل بالوحي على جميع الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين.

أول ما نزل، وآخر ما نزل:

أول ما نزل من القرآن الكريم الآيات الأولى من سورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ (العلق: ١-٥)، كما مر سابقاً في حديث (اليعاقبي)، وأما آخر ما نزل من القرآن، فهو قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ آلِهَتِكُمْ تُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨١).

هذا هو الصحيح الراجح الذي اختاره العلماء، وعلى رأسهم "السيوطي"، وهو متفقون عن جبر هذه الأمة عبد الله بن عباس عليه السلام، فقد أخرج النسائي عن عكرمة عن ابن عباس عليه السلام أنه قال: "آخر شيء نزل من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ آلِهَتِكُمْ...﴾" (البقرة: ٢٨١)، وقد عاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليالٍ، ثم مات ليلة الاثنين في الثالث من ربيع الأول^(١).

وأما قول بعضهم: إن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاتَّمَنَنْتُ عَلَيْكُمْ يَعْطَىٰ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾ (المائدة: ٣)، فهو رأي غير صحيح؛ لأن هذه الآية

^(١) انظر كتاب "الإيمان في عتمة القرآن" للسيوطي: (٨٢/١).

للكريمة نزلت على رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وهو واقف بعرفة، وقد عرش ﷺ بعدها واحداً وثمانين يوماً، وقبل وفاته بسبع ليال نزلت آية البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا...﴾، فنكون هي آخر ما نزل، لا آية المائدة، وهذا هو الرأي الصحيح، وتنزل هذه الآية الكريمة النقطع النوحى، فكان ذلك آخر اتصال السماء بالأرض، وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى بعد نزول عظام القرآن، بعد أن أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، وهدى الناس إلى دين الله.

آية المائدة متأخرة في النزول:

ومما يدل على أن آية المائدة نزلت في حجة الوداع ما ورد في "صحيح البخاري" أن يهوديا جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين! آية في كتابكم، لو علينا - معشر اليهود - نزلت، لا غشنا ذلك اليوم عبداً، فقال عمر: وأي آية نعني؟ قل: قول الله تبارك وتعالى: ﴿الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَبَشَرْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾، فقال له عمر: "والله إني لأعلم المكان الذي نزلت فيه، والساعة التي نزلت فيها، نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ بعرفة في يوم الجمعة بعد العصر"^(١)، أي إنا نزلت في يوم، هو من أعظم الأعياد الإسلامية، فهو عيد على عيد.

تنبيه:

أورد العلامة السبوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" بعض الإشكالات على أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل، وأجاب عنها بأجوبة صديدة، فلخصها فيما يلي:^(٢)

١ - الإشكال الأول: أنه روي في الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سئل: أي القرآن أنزل قبل؟ قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ والنتيجة: قيل له: بل ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (علق: ١)، فقال: أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: "إني جاورت

^(١) انظر صحيح البخاري، باب التفسير.

^(٢) انظر "الإتقان في علوم القرآن" للسبوطي: (٧٥/١).

بحراء، فلما قصبت جوارى، نزلت، فاستبطنت الوادي، فنظرت أمامي وعظمي، وعن يميني وشمال، ثم نظرت إلى السماء، فإذا جبريل، فأخذتني رحفة، فأثيت حديجة، فأمرغهم، فذروني، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾^(١). فهذا الحديث يدل على أن سورة المدثر هي أول ما نزل من القرآن، وقد أحاطت بذلك السيوطي بقوله:

ويحاطب عن هذا الحديث بأجوبة:

أحدها: أن السؤال كان عن نزول سورة كاملة، فين أن "سورة المدثر" نزلت مكملها قبل نزول غمام سورة ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾؛ فإنما أول ما نزل منها صدرها، ويؤيد هذا ما في الصحيحين عن جابر بن عبد الله أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ - وهو يحدث عن فترة الوحي - فقال في حديثه: "بينا أنا أمشي سمعت صوتا من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرجعت، فقلت: زملوني، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾"^(٢). فقله: الملك الذي جاءني بحراء، يدل على أن هذه القصة متاعرة عن قصة حراء التي نزل فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، ثم سرد أجوبة أخرى، لا حاجة إلى ذكرها.

٢- وأما الإشكال الثاني: فهو أن آية المائدة وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ يدل على أن الدين قد كمل وتم، فكيف تنزل بعد ذلك آيات، ونقول: إنها ختام للقرآن؟

والجواب عن ذلك أن الله عز وجل قد أكمل الدين ببيان الفرائض والأحكام، وبيان الحلال والحرام، فلما تحتاج إليه الأمة قد بينه الله عز وجل وفصل أحكامه، حتى أصبحوا على "شفعة طيبضاء"، وهذا لا ينافي أن تنزل بعض الآيات الكريمة التي فيها التذكير والتحذير من عذاب الله، وفيها تذكير الناس بالوقفة الكبرى بين يدي أحكم الحاكمين في ذلك اليوم الرهيب، والذي لا يتفجع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، وقد صرح بهذا جماعة من العلماء حتى قال السدي: "لم ينزل بعدها حلال، ولا حرام"^(٣).

^(١) انظر صحيح البخاري، باب التفسير. ^(٢) انظر "الإنتان"؛ (١٦/٨٦).

أول ما نزل في القتال، والخمر، والأطعمة:

أولاً: نزلت في القتال آيات عديدة، ولكن هذه الآيات التي نزلت في شأن القتال كلها مدنية؛ لأن المسلمين - في مكة - كانوا في حالة ضعف، فكان جهادهم للأعداء باللسان لا بالسان، ولم يسمح لهم بقتال الأعداء إلا بعد الهجرة بعد أن تقوى المسلمون وكرروا، وأصبح هم دونه في المدينة المنورة، فنزل عند ذلك الإذن بالقتال، وأول آية نزلت في القتال: هي قول الله تبارك وتعالى في سورة الحج: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ يُغَاتِلُونَ يَأْتِيهِمْ ظُهُورُ الَّذِينَ هُؤْلَئُوا خَدَعُوا أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ شَيْئاً إِنَّهُم كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (الحج: ٢١-٢٢). فالتفت صوامع وبيعهم وعسوافهم ومناجد يذكرون فيها اسم الله كبير أو ليتصرف الله من يتصرفه إن الله لغفور غريب (فتح: ٢٩-٣٠). فأنت ترى في هذا النص الكريم ما يوضح الحكمة من مشروعية الإذن بالقتال، فهم يكرهون القتال إلا دفاعاً للظلم، ودفاعاً لتعدوان، ولم يشرع إلا دفاعاً عن المظلومين، وردعاً للمعتدين كما هو صريح النص الكريم.

ثانياً: وأما الخمر، فقد نزلت فيها آيات عديدة، وكان أول ما نزل فيها: قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن مَّنَافِعِهِمَا...﴾ (البقرة: ٢١٩). وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: نزل في الخمر ثلاث آيات، فأول شيء: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ...﴾ (الحج: ١٦).

ثالثاً: وأما أول ما نزل من الأحكام في مكة، فقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَعْطَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ نَجَسًا جَنِينًا فَهَؤُلَاءِ حَرَّمَ رَبِّي إِنْ هِيَ إِلَّا أَعْيُنُ عَذْرَاءٍ نَّكِحَةٍ لَّيْسَ بِهَا عَمَلٌ وَلَا غِلَافٌ لِّنَفْسٍ لَّكَ غُفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٤٥). التي نزلت بها أحكام القرآن، وهي مما ينبغي وهذه أوائل خصوصية بعض الأحكام الشرعية معرفة؛ ينفذ الإنسان على سبيل التشريع الإسلامي الدقيق، الذي راعى حاجات الناس ومصالح البشر، والتي معرفة؛ هي أحد الأسس الحكيمة التي سنكتها الإسلام في معاملة الأضلاع الاجتماعية، والأمراض الخلعية التي كان عليها الناس في الجاهلية، كما سنوضح ذلك في بحث آخر إن شاء الله.

الفصل الثاني:

حكمة نزول القرآن مفرداً

نزول القرآن الكريم:

شرف الله هذه الأمة المحمدية، فأنزل عليه كتابه المعجز - بحالفة الكتب السماوية - ليكون دستوراً لحياة، وعلاجاً لمشاكلها، ونمطاً لها، وأية معجز وفخار على اصضاء هذه الأمة، واختيارها لحمل أقدس الرسالات السماوية، حيث أكرمها الله بنزال أشرف كتاب، وخصها بالانتساب إلى أشرف عظمى محمد بن عبد الله ﷺ.

وينزل هذا القرآن أكمل عقد الرسالات السماوية، فتشع نور على العالم، ويطع الصياء على الكون، ووصلت هداية الله إلى الخلق. وكان هذا النزول واسطة أمين السماء جبريل عليه السلام، بهبط به على قلب النبي ﷺ، ليبينه وحى الله، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿نَزَّلْنَاهُ بِالرُّوحِ الْأَمِينِ ۖ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۖ نَادِئِينَ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (النجم: ١٠-١٤).

كيف نزل القرآن الكريم؟

للقرآن الكريم نزلان:

الأول: من النوح المحفوظ إلى السماء الدنيا (حملة واحدة) في ليلة القدر.

الثاني: من السماء الدنيا إلى الأرض "مفرداً" في مائة ثلاث وعشرين سنة.

أما القول الأول: فقد كان في ليلة مباركة من ليالي القدر، هي: "ليلة القدر"، أنزل فيه القرآن كاملاً إلى "بيت البعثة" في السماء الدنيا، ويدل عليه عدة نصوص وهي:

أ- قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ لَا يُلَاحِظُهُ الْعَيْنُ ۖ شَهِيدًا نُنَادِيهِمْ فِي ظُلُمَاتٍ ۚ إِنَّهُمْ مُخْمَرُونَ﴾ (سجدة: ٣٠).

ب- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۚ وَمَا أَفْكَرَ الَّذِينَ عَاتَيْنَهُ الْقَدْرَ﴾ (القدر: ٣).

١- نُسَمَّى: مادة ضمنية تُضَمُّها الحركات، سمي عَصْرِي (بمباينة)؛ المصحف: ٤٨.

ج- وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (الشورى: ١٨٥).

فقد دلت هذه الآيات الثلاث على أن القرآن أنزل في ليلة واحدة، توصف بأنها مبركة، وتسمى "ليلة القدر"، وهي من ليالي شهر رمضان، ويتعين أن يكون هذا النزول هو النزول الأول إلى بيت العرة في السماء؛ لأنه لو أريد به النزول الثاني على النبي ﷺ لما صح أن يكون في ليلة واحدة، وفي شهر واحد هو "شهر رمضان"، لأن القرآن إنما نزل في مدة طويلة، هي مدة المدة "٢٣" سنة، ونزل في غير رمضان في جميع الأشهر. فتعين أن يكون المراد به النزول الأول. وقد جاءت الأخبار الصحيحة تؤيد ذلك، منها:

- أ- عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "فصل القرآن من المذكر، فوضع في بيت العرة من أسماء الدنيا، فعزل حدريل ينزل به على النبي ﷺ".^(١)
- ب- وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: "أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وكان بمواقع السجود، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ، بعضه في شهر بعض".^(٢)
- وروى عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "أنزل القرآن في ليلة القدر في شهر رمضان إلى سماء الدنيا جملة واحدة، ثم أنزل بجزء".^(٣)

فهذه الروايات الثلاث: رواها السيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن"،^(٤) وبين أنها كلها صحيحة، كما روى السيوطي أيضا عن ابن عباس رضي الله عنه أنه سأل عطاء بن الأسود فقال: "وقع في قلبي شيء فقله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وهذا أنزل في شوال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجة، وفي الثور، وصفر، وشهر ربيع، فقال ابن عباس رضي الله عنه: إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع السجود رسلا في المشهور والأيام.

^(١) رواه الحاكم، ^(٢) رواه الخازن، ^(٣) رواه الطبراني، ^(٤) انظر الإتقان، ١/ ١٩٠، ١٩١.

يريد بقوله: "مواقع النجوم" ويقول: "رسلا"، أي أنه أنزل منجما مفرقا، يتلو بعينه بعضا على ثودة ورفق، وذكر السيوطي أن القرطبي نقل حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة من النوح المخطوط إلى بيت العزة في السماء الدنيا.

ولعل الحكمة في هذا النزول هي تفخيم أمر القرآن، وأمر من نزل عليه، بإعلام سكان السموات السبع: أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأئمة، قد قرباه إليهم لنزله عليهم.

قال السيوطي: ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجما بحسب الوفاق، هبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله سبحانه يابن - أي خالف - بينه وبينها، فجعل له الأمرين: إتيانه جملة، ثم إتياله مفرقا، تشريفا للنزول عليه.^(١)

التنزيل الثاني: وأما التنزل الثاني فقد كان من السماء الدنيا على قلب النبي ﷺ منجما، أي مفرقا في مدة ثلاث وعشرين سنة، وهي من حين البعثة إلى حين وفاته صلوات الله وسلامه عليه. والشذيل على هذا النزول، وأنه نزل منجما:

١- قول الله تعالى في سورة الإسراء:

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتَفٍ وَزَنَّااهُ تَنزِيلًا﴾ (الإسراء: ١٠٦).

س وقوله تعالى في سورة الفرقان:

﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ فَسُرُودًا لِّقُلْ عَلَيَّ الْقُرْآنُ حُمْقٌ وَاجْلَةٌ كَذَلِكَ يَكُونُ بِهِ مَوَاقِلَ وَزَنَّااهُ تَنزِيلًا﴾ (الفرقان: ٣١).

روي أن اليهود والمشركين عابوا على النبي ﷺ نزول القرآن مفرقا، واقتروا عليه أن ينزل جملة واحدة، حتى قال اليهود له: يا أبا القاسم! لولا أنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزل التوراة على موسى عليه السلام، لأنزل الله هاتين الآيتين ردا عليهم، وهذا الرد - كما يقول الزرقاني -

بدل على أمرين:

أحدهما: أن القرآن نزل مرفقا على النبي ﷺ

والثاني: أن الكتب السماوية فيه ربات جملة، كما ظهر ذلك بين جمهور العلماء، حتى كاد يكون إجماعا، ووجه الدلالة على هذين الأمرين: أن الله تعالى لم يكنهم فيما ادعوا من نزول الكتب السماوية جملة، بل أجابهم ببيان الحكمة في نزول القرآن مرفقا، ولو كان نزول الكتب السماوية مرفقا كالقرآن، لرد عليهم بالكتاب، وإعلان أن «تجسيم» هو منه الله فيما أنزل على الأنبياء من قبل، كما رد عليهم حين ضفّعوا على الرسول وقالوا: «هَذَا لَهَذَا الرَّسُولِ يَكُونُ صَلاَةً وَنَسِيْبًا فِي الْأَسْوَاقِ» (سورة هود: ١٧)، رد عليهم بقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَلْبًا مِنْ نَحْنِيبِ إِلَّا نُفِصًا يَكُونُ صَلاَةً وَنَسِيْبًا فِي الْأَسْوَاقِ» (سورة الفرقان: ١٠-١١).

حكمة نزول القرآن متجما:

نزول القرآن الكريم متجما، أي مرفقا بحكم جميلة، وأسرار عديدة عرفها العالمون، وغفل عنها الجاهلون، ومسطوع أن نخسبها فيما يأتي، وهي:

أولاً: ثبت قلب النبي ﷺ أمام أذى المشركين.

ثانياً: التلطف بالنبي ﷺ عند نزول الوحي

ثالثاً: التدرج في تشريع الأحكام السماوية.

رابعاً: تسهيل حفظ القرآن وفهمه على المسلمين.

خامساً: مسيرة الأخوات والوفائق، والتنبية عليها في حينها.

سادساً: الإرشاد إلى مقصد القرآن، وأنه تنزيل الحكيم الخمد.

ولبدأ بشيء من التفصيل عن هذه الحكيم العديدة التي أحياها فيما سبق، فنقول - وس الله

نستمد العون -

أولاً: أما الحكمة الأولى وهي: كتبت قلب النبي ﷺ، فقد ذكرتها الآية الكريمة في معرض الرد على المشركين، حين افترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة، كما نزلت الكتب السماوية السابقة، فرد الله عليهم بقوله: ﴿كَذَلِكَ لَنُنْزِلَ بِهِ قُرْآنًا زُرَّاقًا﴾ (النحل: ٩٧)، ونسبت قلب النبي ﷺ إنما هو رعاية من الله، وتأييد لرسوله أمام تكذيب خصومه له، وإيذائهم الشديد له ولأتباعه، فقد كانت الآيات الكريمة تنزل على رسول الله ﷺ تسلياً له، وشجاعة لخدمته، للمضي في طريق الدعوة مهما اعترضه المصاعب والشدائد، وتقوية لقلبه الشريف، فقد تعهده الله سبحانه وتعالى بما يخفف عنه الشدائد والآلام، فكان إذا اشتد الأذى عليه، نزلت الآيات تسلياً له وتخفيفاً عما يلقيه، وكانت التسليية قارة عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين؛ ليقننيهم في صبرهم وجهادهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوَدُوا حَتَّىٰ آتَاهُمْ نَصْرُنَا...﴾ (الأعراف: ٢٤).

وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأعراف: ٣٠)، وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الشورى: ٤٨).

وقد أوضح الباري - جلّت عظمتة - الحكمة من ذكر قصص الأنبياء، فقال - وهو أصدق القائلين - : ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَنْكَ مِنْ آيَاتِ الرُّسُلِ مَا نَكُنَّ بِهِ قُودًا لَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةً وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ١٦٠).

وتارة كانت التسليية عن طريق الوعد بالنصر، والتأييد للنبي ﷺ كقوله تعالى: ﴿وَنَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ (النحل: ٩٣)، وكقوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنْتَ عَلَيْنَا لِيُعَاذَنَا مِنَ الْعَرَابِ لَأُبْنِمْ لَهُمُ الْمُتَصَرُّونَ ۖ وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْقَابِرُ ۚ﴾ (الصافات: ١٧١-١٧٣).

وأخرى تكون التسليية عن طريق إخبار الرسول بالندحار أعدائه وإفrazهم، كما في قوله تعالى: ﴿سَيَهَيِّجُ الْمُشْكِكُ وَيُؤْتُونَ الدُّبُرَ﴾ (التبر: ٤٠)، وقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَهَقُوتٌ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (آل عمران: ١٦٢)، إلى آخر ما هنالك من ألوان في التخفيف عن قلب الرسول، وتغليب نفسه ومواده.

ولا شك أن في مجئ نزول الوحي، وتكرر هبوط الأمين جبريل بالآيات البينات، التي فيها تسلية للنبي ﷺ، وفيها الوعد بالنصر والحفظ والتأييد، كان لها أعظم الأثر في تثبيت قلب الرسول لمقاومة الدعوة، والمضي في تبليغ الرسالة الإلهية لأن الله معه، وهل يشعر بالخذلان والفقر من كانت عناية الله نحوها، وعيته نزعاه؟

ثالثا: أما الحكمة الثانية، وهي "التلطيف بالنبي ﷺ عند نزول الوحي"، فقد كانت بسبب روعة القرآن وهيئته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (الزمر:٥). فالقرآن - كما هو مفطور به - كلام الله المعجز، الذي له جلال ووقار، ومية وروعة، وهو الكتاب الذي لو نزل على جبل لثقلت وتصدع من هيئته وجلاله، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَابِئًا مُّتَصَدِّعًا مِنْ حَزْنِهِ أَفَلَا يَفْقَهُوا﴾ (الحشر:٢١)، فكيف إذا بقلب النبي الرقيق؟ هل يستطيع أن يتلقى جميع القرآن دون أن يتأثر ويضطرب، ويشعر بروعة القرآن وجلاله؟

ولقد أوضحت السبلة عائشة رضيها حالة الرسول حين نزل عليه القرآن، وما يلاقيه من شدة وهول من أثر التنزيل، فقالت - كما رواه البخاري -: "ولقد رأيته حين ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيعصمه عنه - أي بغسل -، وإن جبهته لتعصد عرقا". ينفصد: أي: يتعصب عرقا، وذلك من شدة البرد والرحي ووظائفه على النبي ﷺ.

ثالثا: وأما الحكمة الثالثة وهي: "التلويح في تشريع الأحكام"، فقد كانت جليلة واضحة، حيث سلك القرآن الكريم مع البشرية - وخاصة منهم العرب - طريق الحكمة، ففقطهم عن الشرك، وأحيا قلوبهم بنور الإيمان، وغرس في نفوسهم حب الله ورسوله، والإيمان بالبعث والجزاء، ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة - مرحلة تثبيت دعائم الإيمان - إلى العبادات، فبدأهم بالصلاة قبل المحرفة، ثم نهي بالصوم، والزكاة في السنة الثانية من الهجرة، ثم عثم بالحج في السنة السادسة منها، وكذلك فعل في العادات المتوارثة: زجرهم أولا عن الكياف، ثم نهيهم عن الصغائر في شيء من الرفق، وتدرج بهم في تحريم ما كان مستأصلا في نفوسهم: الخمر، والزنا، والميسر تدريجا

^(١١) الزلال. الماء العذب الصافي البارد الشلس (المعجم الوسيط: ٣٩٨).

حكيمًا، استطاع بذلك أن يفتح الشر وانفساد من جذوره اختلاعا كاملا.

ولتأخذ بعض الأمثلة على ذلك للتشريع الحكيم، الذي نجح في انتهاجه القرآن، في معالجة الأمراض الاجتماعية: تحريم الخمر، الذي كان داءً منتشرًا عند العرب، كيف استطاع أن يحلوه ويقضي عليه الإسلام؟

المرحلة الأولى: لقد انتهج القرآن في تحريمه أربعة مراحل، كما هو الشأن في تحريم الربا، فلم يحرمه دفعة واحدة؛ لأنهم كانوا يتعاطون شرب الخمر، كما يشرب الواحد من الماء الزلال،^(١) فلم يكن من الحكمة أن يحرمه عليهم دفعة واحدة، وإنما حرمه بالتدريج، هذا أولاً بالتفريق منه بطريق غير مباشر، فسرل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَسْرَائِثِ الثَّجِيلِ وَالْعَذَابِ تُعَذِّبُونَ مِنْهُ مَسْكِرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ (النحل: ٦٧).

فقد أخبر تعالى أنه قد أتم على الناس هذين لشجرتين: "التين" والأعناب، يستخرجون منهما "مسكرا"، أي الخمر الذي يسكر، و"رِزْقًا حَسَنًا"، الذي يتفجع منه الناس من مأكول ومشروب؛ فعندئذ، ووصعه بأنه رِزْقٌ حَسَنٌ، وأخبر عن الأول بأنه "مسكر"، أي شيء يسكر ويذهب بفعل الإنسان، وهذه المباشرة في الوصف تنجح لكل عاقل الفارق الكبير بين الأمرين المذكورين.

المرحلة الثانية: جاء التفسير المباشر من طريق المقارنة العملية بين شيئين: شيء فيه نفع مادي ضئيل، وشيء فيه ضرر جسمي وصحي وعقلي جسيم، وفيه كذلك زيادة على الأضرار العظيمة مهلكة للإنسان عن طريق وقوعه في الإثم الكبير، استمع إلى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ (مائدة: ٩٠).

والمراد بالمنافع هنا المنافع المادية التي كانوا يستفيدونها من وراء التجارة والبيع بالخمير، حيث يربحون منها، كما يربحون من وراء المسر، وقد جمع القرآن بين الخمر والميسر في الآية الكريمة، ولا شك أن النفع في الميسر "مادي" عت،^(٢) حيث يربح بعض المقامر، وكذلك في الخمر.

^(١) يُعَذِّبُ: يضره. الخالص لا يخالطه غيره، يقال: شرابٌ بحتٌ. غير مزوج. (المعجم الوسيط: ٣٤)

فإن العلامة القرطبي في تفسيره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنَعَ لِّلنَّاسِ﴾: أما في الخمر فربح الصحابة، فلأنهم كانوا يبيعونها من الشام بربح، لبيعوها في الحجاز بربح، هذا أصبح ما قيل في منعها.

وبالمقارنة بين هذين الشئين نرى أن الإسلام نفر من الخمر عن طريق بيان أضرارها الجسيمة، ولكنه لم يجرمها، وقد روي في سبب نزول هذه الآية: أن جماعة من المسلمين - فيهم عمر بن الخطاب - جاءوا إلى الرسول الكريم، فقالوا: يا رسول الله! أئبرنا عن الخمر؟ فلما منة للعقل، مضية للعالم، منهكة للجسم؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ﴾. وفي المرحلة الثالثة: كان التحريم للخمر، ولكنه كان "تحريرا جزئيا" حيث نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (طه: ١٣).

فقد حرم الله عليهم الخمر وقت الصلاة فقط، حتى يصبحوا من سكرهم، فكان المسلمون يشربونها ليلا، وفي غير أوقات الصلاة، وقد روي في سبب نزول هذه الآية: أن عبد الرحمن ابن عوف صنع وليمة، فدعا إليها بعض الصحابة، قال علي بن أبي طالب: فدهانا، وسقانا الخمر، فأخذت الخمر ميتا، وحضرت الصلاة، فقدموني لأصلي بهم إماما، فقرأت: "قل يا أيها الكافرون، أعبد ما تعبدون، وأنا عبد ما عبدتم" إلى آخر ذلك، أي: إنه لسكره غير فيها، فنزلت الآية الكريمة.

وفي المرحلة الرابعة: وهي المرحلة الأخيرة، كان التحريم الكلي، الفاطم. المنع، حيث نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَرْزَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَأَجْزِبُوا لَهُمْ سَبِيلًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩٠، ٩١).

وسبب نزول هذه الآيات الكريمة، على ما ذكره المنسوق هو: أن بعض الصحابة صلوا اعتشاء، ثم شربوا الخمر، وجلسوا يتسامرون، فلبت الخمر في رؤوسهم، وكان فيهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، وكانت جارية صغيرة تشربهم وتغيبهم، فقالت ضمن شبيها:

ألا يا حمز للشرف النواي ومن معقلات بالفناء

فتيح حمزة على التوق الإبل التي كانت بجوار الدار، فقام حمزة، فجب^(١) أسنمة نافق على، وقر خاصرنيهما - وهو في حالة السكر - فأخبر على بذلك، فتأم أشد الألم، وذهب إلى لني ﷺ يشكو إليه ما فعل عمه حمزة، فحاء النبي ﷺ إليه بهاتيه، وبسومه على صنيعة، فحمل حمزة يظر إليه نظرة غريبة، بصوب بصره ويُخفّضه، ثم يحاطب النبي ﷺ ومن معه، بقوله: وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟ فعم رسول الله ﷺ أن عمه فعل - أي سكران - فلم يؤاخذه، فقال عمر عندئذ: اللهم بين لنا في الحمر بيانا شافيا، فأنزل الله: ﴿لَنَا الْحَمْرُ وَالْمَيْمِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ وَرَحْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ (البقرة: ٢١٠).

وهكذا تم غريم الحمر تحريما "بالندرج"، فكان في ذلك أعظم حكمة جليلة، سلكتها الإسلام في معالجة الأمراض الاجتماعية.

وقد جاء في كتاب "مناهل العرفان" للزرقاني ما نصه: "وندرج الإسلام هم في غريم ما كان مستأصلا فيهم، كالخمر تدرجا حكما حتى حق الغاية. وأقدمهم من كانوا سها^(٢) في الشهادة، وكان الإسلام في انتهاج هذه الخطوة المثلى أبعد نظرا، وأهدى ميلا، وأجمع تشريعا، ونجح سياسة، من تلكم الأمم المتعددة المتحضرة، التي أفلست في غريم الحمر على شعورها أفضع إقلاص، ومثلت أمر قتل، وما عهد أمريكا في مهلة تحريمها الحمر يبعد، ليس ذلك بعجازا للإسلام في سياسة الشعوب، وتغذيب أجماعات؟ بلى! والتاريخ من الشاهدين.

رابعا: أما الحكمة الرابعة: فهي تسهيل حفظ القرآن على المسلمين، وفهمهم وتدريبهم له، فمن المعلوم أن العرب كانوا أميين، أي لا يقرؤون ولا يكتبون، وقد سجل القرآن الكريم عليهم ذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ (البقرة: ١٢٩)، كما

^(١) جب: أي قطع. (النجم لوسيط: ١٠٤). ^(٢) الكاوس: منعه يقع من صدر العالم لا يدر معه أن يتحرك.

قيل: ليس بعربي وهو بالعربية: الجاثوم. (للمعجم الوسيط: ٧٧٢).

كان صلوات الله عليه أمياً كذلك ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ (المعارف: ١٥٧)، فاقضت حكمة الله أن ينزل كتابه المجيد "منجماً"، ليسهل حفظه على المسلمين؛ لأنهم كانوا يعتمدون على ذاكرتهم، فكانت صدورهم أناجيلهم كما ورد في وصف أمة محمد ﷺ، وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لدى الكاتبين منهم على مدرتهم، فلو نزل القرآن جملة واحدة لعجزوا عن حفظه، وعجزوا بالتالي عن تدبره وفهمه.

خاصة: أما الحكمة الخامسة: فهي مسامرة الخواص والوقائع في حينها، والتنبيه على الأعطاء في وقتها، فإن ذلك أوقع في النفس، وأدعى إلى أخذ العظة والعبرة منها عن طريق "الدرس العملي"، فكلما حدث منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه، وكلما حصل منهم خطأ، أو انحراف نزل العرفان بتعريفهم وتوبيخهم إلى ما ينبغي احتسابه، وطلب عمله، وتبهيهم إلى مواطن الخطأ في ذلك الوقت والحين، عند مثلاً على ذلك: غزوة حنين، فقد دخل الغرور إلى نفوس المسلمين، وقالوا: قوله الإعجاب والانحراف، لئلا نلوا عددهم يزيد على عدد المشركين أضعافاً مضاعفة، حين ذاك داخلهم العجب، فقالوا: "من قلب اليوم من قلة"، وكانت النتيجة انكسارهم وانقراضهم ونوليتهم الأدبار، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاعَتْ عَلَيْكُمْ الْأَوْسُ بِمَا رَزَجْتُمْ وَاَلَيْتُمْ مُذِيرِينَ﴾ (البقرة: ٢٠٠).

ولو أن القرآن نزل جملة واحدة لما أمكن اتساعه على الخطأ في حينه؛ إذ كيف يتصور أن تنزل الآيات في شأن المؤمنين وانقراضهم، ولم تحدث بعد تلك الواقعة أو الغزوة؟

وكذلك الحال في أخذ الفداء من الأسرى في "بدر"، حيث نزل التوجيه المساوي للعاقبة: ﴿فَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُلْجَأَ فِي الْأَرْضِ...﴾ (الأنفال: ١٧).

سادساً: أما الحكمة السادسة: فهي الإرشاد إلى مصدر القرآن الكريم، وأنه تنزل الحكيم الحميد، وفي هذه الحكمة الجليلة يحذر بنا أن ننقل نصراً ما كتبه العالم الفاضل الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه "مناهل العرفان" حيث جاء برائع البيان: فقال رحمه الله:

"الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنه كلام الله وحده، وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد ﷺ،

ولا كلام غلوي سواء، وبيان ذلك: أن القرآن الكريم نقرأه من أوله إلى آخره، فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، أخذ بعضه برقاب بعض في سورة وآياته وحمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه، كأنه سبكة^(١) واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل، كأنه سبط وحيد، وعقد فريد، يأخذ بالأبصار، تُطْمَت حروفه وكلماته، وتُسَقَّت جملته وآياته.... وهنا تسأل: كيف اتسق للقرآن هذا التأليف الممجز؟ وكيف استفاد له هذا التماسك للدهش؟ على حين أنه لم يتزل جملة واحدة؟ بل تنزل أحادا مفرقة تفرق الوقائع والحوادث في أكثر من عشرين عاما؟

الجواب: إننا نلمح هنا سرا جديدا من أسرار الإعجاز، ونشهد مرة فذة^(٢) لمن سبغات الربوبية، ونقرأ دليلا ساطعا على مصنن القرآن، وأنه كلام الواحد الدهان: ﴿وَقُلْوَ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوِجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٦)، وإلا فحشني بربك كيف تستطيع أنت؟ أم كيف يستضئ الخلق جميعا أن يأتوا بكتاب يحكم الاتصال والترابط، متين التسج والسرد، متأنف البدايات والنهايات، مع حضوره في التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر، وهي وقائع الزمن وأحداثه التي يجري كل جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعها، وتتحدث عنها، سب بعد سببه، وداعية إثر داعية، مع اختلاف ما بين هذه الدواعي، وتغاير ما بين تلك الأسباب، ومع تراخي زمان هذا التأليف، وتطاول أمد هذه النجوم إلى أكثر من عشرين عاما؟ لا ريب أن هذا الانفصال الزماني، وفك الاختلاف الملحوظ بين هاتيك الدواعي، يستلزمان في مجرى العادة التفكك والانفصال، ولا يدعان مجالاً للارتباط والاتصال بين نجوم هذا الكلام.

أما القرآن الكريم فقد عرق العادة في هذه الناحية أيضا بل مفرقا منجما، ولكنه تمّ مترابلا محكما، ليس ذلك برهانا ساطعا على أنه كلام خالق لقوى والقدر، ومالك الأسباب والسيئات،

^(١) سبكة: من اللعب أو الفضة كتلة من الذهب أو الفضة مصبوبة على صورة مطومة، كالقضبان ونحوها، وجميعها سبائك. (المعجم الوسيط: ٤١٥).

^(٢) الفذة: الفرد والمفرد في مكانته، أو كذاته، والجمع لنداء وفنود، والفذة: الشاذة. (المعجم الوسيط: ٦٧٨).

ومدير الخلق والكائنات، وقبوه الأرض والسموات، العليم بما كان وما سيكون، الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شؤون؟

لاحظ فوق ما أسبقنا أن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية، أو آيات قال: "ضعوها في مكان كذا، من سورة كذا"، وهو بشر لا يدري طبعاً ما ستحي به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان، ولا يدرك ما سيحدث من التواصي والأحداث، فضلاً عما سيرى من الله فيها... وهكذا ينضي العمر الضوئى، والرسول على هذا العهد: يأتيه الوحي بالقرآن عاماً بعد نهم، وإذا بالقرآن كله بعد هذا العمر الطويل يكمل زينت، وينظم ويتأخرى، ويأنف ويتشبه ولا يؤخذ عليه أدنى خاد أو تفاوت، بل يُعجز خلق حُرّاً بما فيه من انسجام ووحدة وتوافق: ﴿ذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ لِقَوْمٍ يُفْقَهُونَ﴾ ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ﴾ (١).

وإنه ليس لك سر هذا الإعجاز إذا ما علمت أن محاولة مثل هذا الانساق والانسجام، لن يمكن أن يأتي على هذا النمط الذي نزل به القرآن، ولا على قريب من هذا النمط، لا في كلام الرسول ﷺ، ولا كلام غيره من النبغا، وغير النبغا، خذ مثلاً (حديث النبي ﷺ)، وهو ما هو في روعته وبلاغته وفهده وسحره: لقد قاله الرسول ﷺ في مناسبات مختلفة، لنوع مشابهة في أزمان متطاولة، فهل في مكتنت ومكة الشمر معاً أو ينظروا من هذا السرد الشيت وحده، كذا واحد، يصقله الاسترسال والوحدة، من غير أن يقصوا عد، أو يتربوا عليه، أو ينصرفوا فيه؟

ذلك ما لن يكون، ولا يمكن أن يكون، ومن حاول ذلك فإذا حاول لعبث، ويخرج للناس ضروب مرفق، وكلام متفق، بقصه التوافق والانسجام، ويعوزة الوحدة والاسترسال، وعجبه الأشماع والأفهام. إذن فالقرآن الكريم ينطق نزوله مناجاً بأنه كلام الله وحده، وتلك حكمة وتلك حكمة حليلة المشانء تلك الحق شبي الحق في مصدر القرآن: ﴿قُلْ أَتَمَنَّا النَّبِيُّ نَعْلَمُ سِرَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا رَاجِعًا﴾ (٢).

كيف تلقى النبي ﷺ القرآن؟

تلقى النبي ﷺ القرآن بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وجبريل نفاذ عن رب نعمة حل جلاله، وليس لجبريل الأمر سوى تبليغ كلام الله وإيأاته برسول ﷺ. والله حيث حكمته قد أنزل كتابه المفضل على عظام أسيادته بواسطة أمين الوحي جبريل، وعلمه جبريل لرسول، وبلغه الرسول لأهله، وقد وصف جبريل عليه السلام بأنه أمين على نوحى، يصفه كما سمعه عن الله تعالى: ﴿لَهُ أَنْقُولُ وَمِنْهُ نَكْبَهُ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُضَاهٍ لِمِثْقَلِ الْمِيزَانِ﴾ (الشورى: ١-٣). وقال تعالى في وصفه أيضا: ﴿يُنَزِّلُ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (الشورى: ١٧٢-١٧٣).

أما حقيقة الكلام وحقيقة النزول، فإنما هو كلام الله، ونزول رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْيُنَزِّلْ عَلَيْكُمْ مِنْ لَدُنْهِ كُتُبًا عَلَيْهِمْ﴾ (الحج: ١). وقد كان صلوات الله عليه - يعاين عند نزول القرآن شدة، وكان يحاول أن يبعد نفسه من أجل حفظ القرآن، فيكدر القرآن مع جبريل حين يتلو عليه القرآن، حلبة أن يساء أبو بصير عليه شيء منه، وأمره الله تعالى بالانصات ولمسكوت عند قراءة جبريل عليه السلام، وإطمانه بأنه تعالى سرجعل هذا القرآن محفوظا في حدود، فلا تصل في أمره، ولا يبعد نفسه في تنقيه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ دِينَ الْقَوْمِ مِنَ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ وَبَرَاءَةً وَخِطَابًا وَمَنْ يَتْلُ مِنْهُ فَلْيُحْمَلْ بِهِ﴾ (الحج: ١١١).

وأما بكثرة الله تعالى له الحفظ، فقد جاء في قوله سبحانه: ﴿لَا تَحْزَنْ بِهِ السَّادَاتُ لِيَتَعْلَمَ بِهِ، إِنَّ شَيْئًا خَفِيَ عَنْهُمْ، فَوَافَقُوا لَهُ مَا يَفْعَلُ فَأَمَّا أَمْرُ اللَّهِ، لَنْ يَسْخَبَهُ﴾ (الحج: ١١٢).

وهو كان جبريل يدارس النبي ﷺ القرآن في رمضان، فيربط جبريل على رسول الله ويستمع له القرآن، فيقرأ الرسول بين يديه وجبريل يستمع، ويقرأ جبريل والنبي يستمع، ويحفظ بدارسه في كل رمضان ما نزل من الأفراد مرة واحدة، وغفل عنه ذلك نزل عليه جبريل مرتين في رمضان، بدارسه القرآن، حتى لقد شعر عليه الصلاة والسلام - من نزول جبريل مرتين عليه بدنو الله، وقال لعائشة رضي الله عنها: "إن جبريل كان ينزل عني: فيدارسني أقرأ مرة واحدة في رمضان، وقد نزل عني هذا العام مرتين، وما أرى إلا قد اقرب إلي". وقد كان الأمر كذلك.

فقد انفصل في ذلك العام بنى حوران، فحسوات الله رسالته عليه، ونقطع بوفاته نزول الوحي. أما كيف تلقى حبيب بن خازم عن الله عز وجل؟ فقد غلب معنا أنه كان متعافاً، حيث سمع من الله عز وجل هذه الأدبات. فربما على رسول الله، قد اليه في معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَءُوا الْقُرْآنَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ فِي يَوْمٍ إِلَّا تَتَذَكَّرُوا﴾ (البقرة: ١٥١). وإذا سمعنا أحلك وأقرباً إلى، وأمرنا بما سمع. ومعنى هذا أن حبيباً أحد القرآن عن الله تعالى متعافاً، لا يند ما روى في الحديث أن الله يقول: «إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِأَمْرٍ سَمِعَتْ السَّمَاءُ حُفَّ خُدُودُهُ مِنْ خُيُوفِ اللَّهِ، فَإِذَا سَمِعَ أَمِيرُ السَّمَاءِ مَعْصُومٌ وَجُوهٌ سَجَدَ، فَيَكُونُ أَوَّلُهُ يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَبِيبٌ، فَيَكَلِّمُهُ اللَّهُ بِوَجْهِ عَازِلَةٍ، فَيَسْمَعُ بِهِ إِلَى بَابِهَا، وَكَثْمَا مِنْ سَمَاءٍ مَاءٌ أَهْلُهُ، مَا قَالَ رِبْدًا قَالَ أَحَدٌ، فَيَسْمَعُ بِهِ حَيْثُ أَمَرَ»^(١). قال أبو حنيفة في كتابه «منازل القرآن»:

«فقد أضاف بعض الناس، فزعم أنه حبيب كان يترى على النبي ﷺ يعني القرآن، والرسول يعبر عنها بلغة العرب، وجميع آخرون أن الحفظ حبيب، وأن قد كان يوحى إليه معنى فقط، وكلامهم قول باطل أنهم، فإدام عبرت الكتاب والسنة، ولا بأس في لغة أعدد الذي يكتب به، وعقيدتي أنه مرسوم على المسلمين في كتبهم، ولا فكيف يكون القرآن حيثما معبراً، والحفظ صحيحاً أو لحبيب؟ ثم كيف يصح بسنة إلى الله، والحفظ ليس مع أن الله يقول: ﴿يُحِثُّ تَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ﴾ (آية: ٦، إلى غير ذلك مما يقرر ما فصله»^(٢).

هل السنة النبوية يوحى من الله؟

نقدم معاً أن القرآن الكريم «كلام الله»، ومعنى ذلك أن لفظ والمعنى هو من عند الله، ولا دخل للإنسان أو لغيره ﷺ فيه. سوى أن يترجم عن الله عز وجل، أما السنة النبوية، فإنها وحي من الله، وتكون لفظ الرسول ومعنى من عند الله، لأن الله تعالى يقول: ﴿لَوْ مَا يَنْطَلِقُ مِنْ لِسَانِي﴾ (البقرة: ١٣٥).

^(١) زاد المعاد، الجزء الثاني، ص ٤٦.

وقد نقل السيوطي عن الجويني^١ أنه قال: "كلام الله المنزل فسمان:

قسم: قال الله لخبريل: قل للنبي الذي أنت مرس إليه: "إن الله يقول: افعل كذا وكذا، وأمر بكذا وكذا، ففهم خبريل ما قاله ربه، فلم ينزل عنى ذلك النبي: وقال له ما قاله ربه، ولم تكن العبارة تلك العبارة، كما يقول الملك: من يتق به. فلما قال: "يقول الله لك: احفظ في الخدمة، واجمع حشدك فلذلك، فإن قال الرسول: "يقول لك الله: لا تتهاون في خدمتي، ولا تترك الجسد ينفرق، وحكهم على الغنم... الخ"، لا بسبب أن كذب ولا تقصير.

وقسم آخر: قال الله لخبريل: اقرأ على النبي هذا الكتاب. فنزل به خبريل من الله من غير تغيير، كما يكتب الملك كذا، ويسلمه إلى أمير، ويقول: اقرأه على فلان.

قال السيوطي: افرقتان هو القسم الثاني، والقسم الأول هو السند. ومن هذا حال رواية السنة بالمعنى اخلاص القرآن.



الفصل الثالث:

أسباب النزول

معرفة أسباب النزول، له أثر كبير في فهم معنى الآية الكريمة، ولهذا اعتنى كثير من العلماء بمعرفة أسباب النزول، حتى أفرد له بالتصنيف جماعة من العلماء، كان من أقدمهم علي بن الحسين شيخ البخاري رحمه الله، ومن أشهر ما كتب في هذا الفن كتاب "أسباب النزول" للرازي، كما ألف فيه شيخ الإسلام ابن حجر رحمه الله، وألف فيه أيضاً العلامة السيوطي رحمه الله كتاباً حافلاً عظيمًا سماه "كتاب المنقول في أسباب النزول".

ولمعرفة أهمية هذا النوع من علوم القرآن، والتأكد من ضرورته لفهم معاني الآيات الكريمة نستطيع أن نقول: إن بعض الآيات لا يمكن فهمها أو معرفة أحكامها إلا على ضوء سبب النزول، فنسأله تعالى: ﴿وَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرْيَةَ وَالْمَدِينَةَ فَأَنبَأْنَا تَوَلَّوْا فَلَمَّ وَجْهُ الْقُرْبَنِيِّ﴾ (هـ: ١١٥)، قد يفهم منها حواجز التوجه في الصلاة إلى غير القبلة، وهذا التفهم خاطئ؛ لأن استقبال القبلة شرط لصحة الصلاة، ومعرفة سبب النزول يتضح فهم الآية، فقد نزلت هذه الآية المكرمة فيمن كان في سفر، واضاع القبلة، فلم يعرف جهتها، فإنه يجتهد ويتحرى، ثم يصلي، فإذا أتى جهة صلي، تصح صلاته، ولا تجب عليه إعادة الصلاة فيما إذا تبين له بعد الانتهاء خطأ توجهه. فالآية إذا لم تكن عامة، إنما هي خاصة فيمن جهل القبلة، فلم يعرف جهتها.

ومثال آخر على أهمية سبب النزول في فهم الآية أن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ حَتَّى إِذَا مَا اقْتَرَأُوا الْقُرْآنَ أَوْ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ أَخْسَرُوا﴾ (البقرة: ١٧٧)، إنما نزلت في الخمر، وقد يفهم من هذا النص الكريم إباحة شرب الخمر، كما ظن بعض الجهلة حيث قالوا: الخمر مباحة. واحتملوا بالآية الكريمة، ولو علموا سبب نزولها لم يفتروا ذلك، فقد روي أنه لما نزل تحريم الخمر في قوله تعالى:

فَالْأَمَّا الْحُمْرُ وَالْأَضْيَارُ وَالْأَصَابِتُ وَالْأَزْلَامُ بِرَحْمَتٍ مِنْ عَذَابِي الشَّدِيدِ فَإِنْ شِئْتُمْ فَاسْتَخْرِجُوا أَمْثَلَكُمْ يُخَافُونَ فِيهِ
 اللَّهُ ١٠١. قال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: فكيف بمن فعلوا في سبيل الله وماتوا، وكانوا
 يشربون الخمر وهي رحمة؟ فنزلت الآية الكريمة تبيِّن أن من شربها قبل التحريم، فإن الله قد
 عفا عنه، وليس عليه ذنب، أو إنما لأن الله لا يراعه على ما سبق من العهد قبل الإسلام، أو
 قبل التحريم؛ ونزلت معهم الآية، ويبقى النص القطعي في تحريم شرب الخمر.

فوائد معرفة أسباب النزول:

قد يظن بعض ناس أنه لا طائل تحت هذا العلم، وليس له أثر كبير حرياته بحرى التاريخ والتقصص،
 فإن أسباب النزول - عني زعمهم - ليست ضرورية شي أراد تعمير كتاب الله.
 وهذا زعم خاطئ وقول مردود؛ لا يصح من عام بالكتاب، مطع على أقوال المفسرين؛ وهذا
 نحن نتفق طرفاً من آراء بعض العلماء؛ ثم بعضها يذكر فوائد أسباب النزول:
 قال الواحدي: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون التعرف على قصتها، وبيان نزولها^(١) وقال
 ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن^(٢) وقال ابن تيمية:
 معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب^(٣).
 وهكذا تظهر أهمية هذا العلم من علوم القرآن.

وأما فوائده فيمكن تلخيصها فيما يلي:

- أ - معرفة وجه الحكمة الساعفة على تشريع الحكم.
- ب - دفع نزوه الخمر فيما ظاهره المصير.
- ج - تخصيص الحكم بالسبب (عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب).
- د - معرفة اسم من نزلت فيه الآية، ويعين عليهم فيها.

^(١) انظر "الآثار" ١/ ٨٧، ^(٢) تفسير السابق، ^(٣) المصدر السابق.

إلى غير ما هاتك من فوائد أخرى جلية.

أمثلة على معرفة أسباب النزول:

أولاً: أشكل على مرداد بن الحكم معنى قوله تعالى: ﴿لَا تُحْسِنُ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَاكُمْ وَيَجْهَلُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ صَافِينَ﴾ (البقرة: ٢٠٥)، فقال خادمه: ذهب إلى ابن عباس، فقل له: "الذين كانوا كل امرئ فرح بما آتاه، وأحب أن يحمدا بما لم يفعل معناه، لتعذب أجمعون". فبين أنه ابن عباس رحمه الله ما أنزل عنه إلا شكك، وقال له: إن الآية نزلت في أهل الكتاب - اليهود - حين سألهم النبي ﷺ عن شيء، فكنسوا فيه، وأحروا غيره، وأروا أنفسهم أحروا بما سألهم عنه، وكنسوا بذلك إليه، فنزلت الآية (رواه الشيخ).

ثانياً: كما أشكل على عروة بن الزبير رحمه الله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمُرُوءَةَ مِنَ شَتَائِبِ اللَّهِ فَمَنْ خَلَجَ إِلَيْتِ أَوْ انْتَفَرَ فَلَا حِجَابَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ (البقرة: ٢٠٨)، بأن ظاهر الآية المكرمة بشعر ابن عديم وحبوب السعي بين الصفا والمروة، حتى قال عروة بن الزبير خالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: يا ابن أمية! إن الله تعالى يقول: ﴿فَلَا حِجَابَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾، فترى أنه لا بأس على الإنسان أن يترك السعي بهما؟ فقالت له عائشة: نعم ما قلت يا ابن أمية! لو كان الأمر كما ذكرت، لقل الله تعالى: ﴿فَلَا حِجَابَ عَلَيْهِ إِلَّا يَطُوفَ بِهِمَا﴾. ثم أضربت بأن الناس في الجاهلية كانوا يسعون بين الصفا والمروة، وكانوا يحجون في سعيهم لصنمين: أحدهما على الصفا، يسمى "إسافاً"، والثاني على المروة، ويسمى "نائلة". فما دخل الناس في الإسلام، تخرج بعض الأصحاب من السعي بينهما خشية أن يتيسر الأمر بعبادة الجاهلية، فنزلت الآية المكرمة. تدفع عنهم الإثم والحرج، وتوجب عليهم السعي لله تعالى، لا للأصنام، فقد ردت عائشة على عروة فهدم. وكان ذلك بسبب النزول. (١)

(١) أسد الغاب: ٨٩/١.

لأنها: أشكل على بعض الأئمة معنى الشرط في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمَسُّونَ الْفَرْشَ مِنْ نِسَائِهِمْ إِنْ وَضَعُوا مِنْهُنَّ ذُلَّاتَهُنَّ أَوْ لِبَاسَهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٤) حتى قال الظاهرية: إن الآية التي اقتطع دم الحيض عليها لذكر السن، لا عدة عليها إذا لم ترتب، وقد تبين خطأ فهمهم بسبب القول؛ فإن الآية خطاب لمن لم يعلم ما حكمهن في "عدة"، وارتاب "هل عليهن عدة أم لا؟" فيكون معنى ﴿إِنْ وَضَعُوا مِنْهُنَّ ذُلَّاتَهُنَّ أَوْ لِبَاسَهُنَّ﴾ أي: إن أشكل عليكم حكمهن، وجهلتم كيف يعتدون؟ فهذا هو حكمهن، وقد نزلت هذه الآية بعد أن قال بعض الصحابة: إن عدة بعض النساء لم تذكر في القرآن، وهن الصغيرات والأقيسات، فنزلت الآية الكريمة، تبين حكم عدة كل منهن، والله أعلم. ^(١)

وأما: ومن أمثلة قوله: معرفة أصناف النجس في دفع نهيهم المحصر، ما روي عن الشافعي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَهْرَتِهِمْ يَقَعُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ أَوْ ذَمًّا مُشْفَعًا أَوْ لَحْمَ بَيْتِهَا فَإِنَّهُ رَحْسٌ أَوْ يُلْقَى أَهْلُ بَيْتِهَا فِي النَّارِ﴾ (البقرة: ١٨٥)، فقد قال ما معناه: إن الكفر لما حرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم الله، وكانوا على المضادة والمعاذة، جاءت الآية متفقة لغرضهم، فكان قال: لا حلال إلا ما حرمتموه، ولا حرام إلا ما أحلتموه، فم يقصد حل ما وراءه، وإنما قصد ثبات التحريم لا إثبات الحلال. قال إمام الحرمين: وهذا في غاية الحسن، ولولا سبق لشافعي إلى ذلك، لما كان تستحيز مخالفة ما نزل في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية. ^(٢)

توصيح لمعنى الآية الكريمة:

وبوصيحا لهذه الفكرة أقول: إن ظاهر الآية الكريمة يدل على حصر المحرمات في هذه الأشياء المذكورة في الآية الكريمة، وليس الأمر كذلك، فإن هناك محرمات غير هذه، وإنما وردت الآية بصورة الحصر؛ وليس معناها الحصر فلرد على المشركون في تحريمهم ما أحل الله، وتغليبهم ما حرم الله.

خامساً: ومن أمثلة فوائد سبب النزول أن يعرف اسم من نزلت فيه؛ لنزول اللبس والإيهام، فقد زعم مروان أن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالَيْدِهِ أَفَأَنْتَ لَكُمْ﴾ (الأحزاب: ١٧)، إنما نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، فردت عليه عائشة رضي الله عنها هذا الزعم الباطل، ويثبت له سبب نزولها وتفصيل القصة على ما ذكرها البخاري، هي:

"إن مروان كان عاملاً على المدينة، فأراد معاوية رضي الله عنه أن يستخلف يزيد، فكتب إلى مروان بذلك، فجمع مروان الناس فخطبهم، فذكر يزيد ودعا إلى بيعته، وقال: إن أمير المؤمنين أراه الله في يزيد رأياً حسناً، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر، فقال عبد الرحمن: ما هي إلا هرقلية - يعني أنها استبداد لئيمتك، كعمل ملوك الروم - فقال مروان: سنة أبي بكر وعمر، فقال عبد الرحمن: هرقلية، إن أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده ولا في أهل بيته، وما جعلها معاوية إلا كرامة لولده، فقال مروان: خذوه، فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالَيْدِهِ أَفَأَنْتَ لَكُمْ﴾ تعذاني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي ﷺ (الأحزاب: ١٧)، فقالت عائشة من وراء الحجاب: "ما أنزل الله فيها شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل علي - براءتي - ولو شئت أن اسمي من نزلت فيه لسميت" ^(١)

ما هو سبب النزول؟

قد تحصل واقعة، أو تحدث حادثة، فنزل آية، أو آيات كريمة في شأن تلك الواقعة أو الحادثة، فهذا هو ما يسمى - سبب النزول - وقد يعرض سؤال على النبي ﷺ بقصد معرفة الحكم الشرعي فيه، أو الاستفسار عن أمر من أمور الدين، فنزل بعض الآيات الكريمة، فهذا أيضاً ما يسمى - "سبب النزول".

مثال الحادثة: ما رواه البخاري عن عبات بن الأرت رضي الله عنه قال: كنت قنبا - أي حلالداً - وكان لي

^(١) انظر صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة حم الأحقاف (رقم الحديث: ٤٤٥٠).

على المعاص من مثل دين، فحدث انقضاء ديني، فقال لي: لا أعطيت دينك حتى تكفر بمحمد، وتعد اللات والعزى قفلت: لا تكفر حتى يميتك الله، ثم يميتك، فقال: إني إذا لميت، ثم مبعوث، فانتظري لي ذلك اليوم، فسأوتني مالا وولدا، فأرعبت دينك، فانزل الله عز وجل فيه قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا، أَطُغِيَ الْقُتَيْبُ ثُمَّ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا، كَذَلَا سَمَكُكُم مَّا يَقُولُ وَتَعُدُّهُ مِّنَ الْعَذَابِ عَدًّا، وَإِنِّي لَأَنذَرُكُمْ يَوْمَ يَأْتِيَنَا فَزْدُكُمْ بِهِمْ ۚ﴾ (سورة: ٧٧-٨٠) ^(١). ومثال السؤال: ماروي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: "يا رسول الله! إن اليهود تعششان، ويكررون مسائلنا عن الأهلة، فما نال الظلم يدور «وقبلنا» ثم يزيد حتى يستوي ويستدير، ثم ينتقص حتى يعود كما كان؟ فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ فَنُفِئُ فِيهِمْ مَوَاقِيتَ بِلَاسٍ وَأُخْرِجُكُمْ مِنْهُمُ ۚ﴾ (سورة: ٨٩) ^(٢).

كيف يعرف سبب النزول؟

يظهر مما سبق أن أسباب النزول لا يمكن أن تدرك بالرأي، ولابد فيها من الرواية الصحيحة والسماع، ممن شاهدوا الترتيل، أو وقفوا على الأسباب، وبحثوا فيها، من الصحابة والتابعين وغيرهم، ممن اكسبوا علومهم على أيدي العلماء المؤثوقين. وقد قال ابن سيرين رضي الله عنه: سألت عبيدة عن آية من القرآن؟ فقال: اتق الله، وقل سلوا، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن.

ويعتمد في معرفة سبب النزول على النقل الصحيح، فإذا صرح الراوي بلفظ السبب، فهو نص صريح فيه، كقول الراوي: سبب نزول هذه الآية كذا وكذا، وكذلك إذا أتى بقاء تعقيب داحلة على مادة النزول، كقوله: حدث كذا، أو سئل النبي ﷺ عن كذا، فنزلت، فهو نص صريح في سبب النزول أيضا.

^(١) انظر صحيح البخاري. كذب التفسير: سورة مريم، باب أفريت الذي كهر بأهله (رقم الحديث: ٤٤٥٥).

^(٢) انظر "روح المعاني" للألوسي، ١/٤٢٤.

وقد لا تكون العبارة نصاً في السبب كفوقهم: نزلت هذه الآية في كذا، فقد يراد منه سبب النزول، وقد يراد ما تضمنته الآية من أحكام، فيكون مثل قوله: عني هذه الآية كذا. قال المزيكلي رحمه الله في الزهراء: قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحلهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا... فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب في نزولها.^(١)

وقال ابن تيمية: فوهم: "نزلت هذه الآية في كذا"، يراد به تارة سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك دأب في الآية، وإن لم يكن السبب فيه.^(٢)

هل يتعدد سبب النزول؟

كثيراً ما يذكر المفسرون نزول الآية أسباباً متعددة، ويعتمد في مثل هذه الحال أن ينظر إلى العبارة التي قالوها، ونستطيع أن نستخلص ما يلي:

أولاً: أن يعبر كل منهم بقوله: "نزلت هذه الآية في كذا..."، ويذكر أمراً آخر غير الذي ذكره الأول، فيحمل على أنه استنباط للحكم، وتفسير للمعنى الآية، فلا منافاة بينهما كما مر؛ لأنه ليس بسبب النزول.

ثانياً: أن يعبر أحدهما بقوله: "نزلت الآية في كذا"، ويصرح بالآخر بذكر سبب النزول، فاعتمد هنا التصريح، مثلاً: ما رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نزلت ﴿يَسْأَلُكُمْ خُوتُكُمْ﴾ (سورة النساء: ٢١) في إثبات النساء في أديارهن.^(٣)

وروى مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول: "من أتى امرأته من دبرها

^(١) انظر الإفتاء: ٩٣/١.

^(٢) المصدر السابق.

^(٣) أم حجة البخاري في كتاب التفسير، سورة البقرة: باب "يسألكم خوتكم فأتوا حرائكم أو شتموا ولقد سؤا لأنفسكم" (رقم الحديث: ١٤٥٣)، ولعله: عن ابن عمر: "أتوا حرائكم أو شتموا" قال يائيه في ...

في قُبُهَا جَاءَ، فَوَلَدَ أَحْمُولٌ" فَأَنزَلَ اللَّهُ: ﴿يَسْأَلُكُمْ خِزْمَةُ لَكُمْ﴾^(١)، فاعتمد هنا الثاني، وهو حديث حابر رضي الله عنه؛ لأنه نص في السبب، فهو نقل، وقول ابن عمر رضي الله عنهما ليس بنص، فيحمل على أنه منبسط للحاكم رضي الله عنه.

ثالثاً: أن يذكر كل واحد سبباً صريحاً للنزول غير الآخر، فيعتمد هنا الصحيح دون الضعيف، مثله: ما أخرجه الشيخان عن حذاف رضي الله عنه قال: اشتكى النبي ﷺ فلم يغم ثيلاً أو لينين، فأنته امرأة، فقالت: يا عمداً ما أرى عيظانك إلا قد تركك، فأمر الله: ﴿وَالصُّحُفِ﴾، وَتَبَيَّنَ إِذَا سَخَى، مَا وَدَّعَكَ رَيْثُكَ وَمَا قَسَى ﷻ (النسائي: ١-٣، ١٠٠).

وأخرج الطبراني: أن حرواً دخل بيت النبي ﷺ، فدخل تحت السرير فعاتت، فمكت النبي أربعة أيام لا يزل عليه الرحي، فقال: يا حولة ما حدث في بيت رسول الله ﷺ جبريل لا يأتي؟ فقلت لي نفسي: لو هيات البيت وكنته، فأهويت بالكسفة تحت السرير، فأخرجت الجرو، فحاء النبي ترعد لحينه - وكان إن نزل عليه أخلده الرعدة -، فأمر الله: ﴿وَالصُّحُفِ وَاللَّيْلِ إِذَا سَخَى﴾ إلى قوله ﷻ (النسائي: ١-٥)، فاعتمد على الرواية الأولى؛ لأنها في الصحيحين، قال ابن حجر في شرح البخاري: قصة جبريل سبب الجرو مشهورة، لكن كرفها سبب نزول الآية غريب، وفي إسناده من لا يعرف، فاعتمد ما في الصحيح (١٠٠).

رابعاً: أن يستوي الإسناد في الصحة، فراجع أحدهما على الآخر لوجه من وجود التزجيحات، كذكر الراوي أنه حصر القصص مثلاً، أو نحو ذلك.

مثله: ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ بالمدينة، وهو يتوكأ

^(١) أخرجه مسلم في كتاب الحجاج، باب "حوار جماعة يراء في فيها من فلانها ومن ورثها من غير تعرض لغيره" (رقم الحديث: ١٤٣٦، ١٤٣٥).

^(٢) أخرجه البخاري في أبواب الشهاد، باب "ركب القمام أفريق" (رقم الحديث: ١٠٧٣، ١٠٧٢)، وفي تفسيره، سورة الضحى (رقم الحديث: ٤٦٦٠)، وأخرجه مسلم في الحجاب والبر، باب "ما نقل النبي ﷺ من أدى خسران وسفه" (رقم الحديث: ١٦٩٧)، "لا تفر" ٩٥/١.

على عيسى، فمرّ بغير من اليهود، فقال بعضهم: لو سأئتموه، ففارقوا: حدثنا عن نوح، فقام ساعة، ورفع رأسه، فعرّفت أنه يوحى إليه، حتى صعد الوحي، ثم قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٧٠-١٧١). (١)

وما أخرجه قمر مذي وصححه، عن ابن عيسى بن عيسى قال: قلت لفريرس اليهود: أعطونا شيئاً نسأل هنا فخرج منه، فقالوا: اسألوه عن الروح، فأمر الله: ﴿فَوَيْسَ الْبَشَرِ لَكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٧٢-١٧٣). (٢)
فهذه الرواية تقتضي أنه برئت بحكمته، والآن لي تقتضي أنها نزلت بالصدفة، فترجح الرواية الأولى؛ لأن ابن مسعود كان حاضر القصة، ثم ما يؤيد البخاري يرجح علي ما رواه غيره.

مختصاً: أن تكون كل من الروايتين صحيحة لإساده، وأن يكون بينهما تفاوت في المدف، فنزل الآية أو: لأيات بسبب الحداثتين معاً، ونسهي إلى الجمع بين الروايتين.

متناه: ما أخرجه البخاري عن ابن عيسى بن عيسى: أن هلال بن أمية فذرف امرأته عند النبي ﷺ شريك بن محمداً، فقال النبي ﷺ: "الليسة أو حد في ظهرك"، فقال: يا رسول الله! إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلاً، ينطق بالنسب اليه؟ فقال النبي ﷺ: "الليسة أو حد في ظهرك"، فقال: والنبي بعثت بالحق إلى لصادقه، ولنزلن الله تعالى ما يرى طهري من الحد، فنزل جبريل ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّ كَذِبَ الصَّادِقِينَ﴾﴾ (١٧٤-١٧٥). (٣)

وما أخرجه الشيخان عن سهل بن سعد قال: جاء عويم بن مصر إلى عاصم بن عدي فقال: سألت رسول الله عن رجل وجد مع امرأته رجلاً، أيقله فيقتله، أم كيف يصنع؟ فقال عاصم: رسول الله ﷺ، فعاب السائل، فأخبر عاصم عويماء، فقال: والله لأبين رسول الله فلا سألته، فأتاه

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب قول الله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. (رقم الحديث: ١٧٢٥)

(٢) أخرجه قمر مذي في تفسير القرآن، سورة بني إسرائيل. (رقم الحديث: ٣١٤٠)

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة الحجر، باب ويبدأ هذه العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله لا ينكدهن. (رقم الحديث: ٢٤٧٠)

فقال ﷺ: "إنه قد أنزل عليك وفي صاحبك قرآن، وتلا الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ (سورة: ١٧).^(١١)

وطريق الجمع بينهما أن نقول: إن أول من وقع له ذلك "هلال"، وصادف يحيى، "عومر" أيضاً، فنزلت فيهما جميعاً، قال ابن حجر: ولا مانع من تعدد الأسباب.

سادساً: أن لا يمكن الجمع بين الروايات الصحيحة، فيحمل على تعدد النزول وتكرره؛ لأن الغدة بينهما بعيدة.

مثاله: ما روي في الصحيحين عن انسب قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، دخل عليه رسول الله ﷺ، وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: أي عم! قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزلوا يكلمانه حتى قال: هو على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: لا تستغفرون لك ما لم أنه عن ذلك، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ...﴾ (سورة: ١١٣).^(١٢)

وما أخرجه الترمذي عن علي عليه السلام قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: تستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال: استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فذكرت ذلك للرسول ﷺ فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ...﴾.^(١٣)

وروي أيضاً أن النبي ﷺ خرج يوماً إلى انفارة، فجلس إلى قبر منها، فاجاه طويلاً، ثم بكى فقال: "إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي، وإني استأذنت ربي في الدعاء، فلم يأذن لي،

^(١١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير - سورة طه، باب قوله عز وجل: "وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ" الآية (رقم الحديث: ٤٤١٨)، وأخرجه مسلم في كتاب الدعاء - (رقم الحديث: ١٤٩٢).

^(١٢) أخرجه البخاري في كتاب الطهارة، باب إذا قال للمشرك عند الموت: "لا إله إلا الله" (رقم الحديث: ١٢٩٤)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب التمثيل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في الفزع (رقم الحديث: ٣٩).

^(١٣) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن، سورة التوبة (رقم الحديث: ٣١٠٦).

فأقول علي: ﴿هَذَا كَانَ لِنَبِيِّ وَأَصْحَابِهِ لِيُتَنَفَّسُوا لِيُخْشِرُوا لِنَاثِرِينَ...﴾ (البقرة: ١٠٣).^(١) قال السيوطي: فيجمع بين هذه الأحاديث تعدد النزول.^(٢)

هل العبرة بعموم اللفظ، أم بخصوص السبب؟

اختلف علماء الأصول في مسألة دقيقة، وهي: هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟ أي أنه إذا وقعت حادثتان في شأنهما آية كريمة، فهل يقتصر حكم هذه الآية على تلك الحادثة، أو الواقعة، أو الشخص الذي نزلت فيه، أم يتعدى الحكم إلى الجميع؟ فحضور العلماء يذهبون إلى أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، وهذا هو الصحيح، وهناك رأي آخر بأن العبرة بخصوص السبب.

قال السيوطي رحمه في كتابه "الإتقان في علوم القرآن":

ومن الأدلة على اعتبار عموم اللفظ: احتجاج الصحابة وغيرهم في وقائع بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة، كمنع آية الظهار في سبعة بن صحر، وآية النكاح في شأن حلال من أمية، وحذف لقذف في رماة عائشة، ثم تعدى الحكم إلى غيرهم لعموم اللفظ، وقد ورد عن ابن عباس رضيهما ما يدل على اعتبار العموم، فإنه قال: ما في آية السرقة، مع أنها نزلت في امرأة سرقته، ثم روي عن "عبد الحفيظ" قال: سألت ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾

^(١) وقال حنيفة بن عصفية عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم في "رد المحتار على الدر المنثور" (٦/٣٦٩): "نزلت في أبي، أنزل الله عليه بعد موافاة أن نزلت في أمية، قد أكرمته الله تعالى بحياة أبيه، له حتى أمية، في حديث صحيحه لفرط في ذلك، ومن ناصر أبي حنيفة الإمام رحمه وذرهما، فانتعنا ما لا يمان بعد الموت، على خلاف القاعدة، كما أن الله عليه وسلم كما أحيا قبل من أسير، بل ليخبر بقائه، وكان حبس في خلاص الموت، وكذلك نزل الله عليه بعد موافاة وجهه العسر، فكما أكرمته بعد الموت، وكذلك أكرم بعد الحياة ووفيت الإمان بعد موافاة. وما قيل: "إن قوله تعالى: ﴿وَلَا تُشَالُ عَنْ أَصْحَابِ الْحَبِيبِ﴾ (١٠٤)، بل فيها" لم يصح، وخبر مسود، أي وأولئك في النار" كان من علمه.

^(٢) انظر "الإتقان" (١/١٧١).

فَأَقْطَعُوا آلِيكُمْ يَهُودُ ﴿٢٨﴾ أَعْرَاضُ أَمْ عَامٌّ؟ قَالَ: بَلِ سَامٌ.

قال ابن تيمية: قد يجيء كثيرا من هذا الباب قوله: هذه الآية نزلت في كذا ~ لا سيما إن كان المذكور شخصا - كقولهم: إن آية الظهار نزلت في امرأة ثابت بن قيس، وإن آية الكفالة نزلت في حابر بن عبد الله، وأن قوله تعالى: ﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ (النساء: ٥٩) نزلت في بني فريظة وبني النضير، ونحو ذلك.

فولذين قالوا ذلك، لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك لأعيان دون غيرهم؛ فإن هذا لا بقوله مسلم، ولا عاقل على الإطلاق.

وقال الرمخشري في تفسير سورة الحمزة: يجوز أن يكون السبب خاصا، والوعد عاما ليتناول كل من باشر ذلك القبيح، وليكون ذلك جاريا مجرى التعمير^{١١} والله تعالى أعلم.

♦ ♦ ♦ ♦

^{١١} انتهى ينصرف، من كتاب "الإنشاق في علوم القرآن".

الفصل الرابع:

نزول القرآن على سبعة أحرف

والقراءات المشهورة

تمهيد:

ما خلق الله الخلق، جعل لكل منهم شرعة ومنهاج، وكان للعرب لغات متعددة، اكتسبوها من فطرتهم، واقتبسوا بعضها من حركاتهم، وكانت لغة قريش لها الصدارة والدبوع لأسماء عندها، منها استغاثهم بالحجارة، وروحوهم عند بيت الله الحرام، وفيامهم على الصلاة والرفادة، وكان القريشيون يقتسمون بعض اللهجات والكلمات التي تمنحهم من غيرهم، وكان من الطبيعي أن يزن الله أحكم الحاكمين القرآن باللغة التي يفهمها العرب اجمع، لتيسر فهمها وللإعجاز والتعدي لأرباب الفصاحة بالإتيان بصورة أو بآية، وتيسر قراءته وفهمه وحفظه لهم؛ لأن من بلغفهم كما قال جل ثناؤه: ﴿إِنَّا نَرَىٰ أَعْيُنَكَ فَإِنَّ عَزِيزًا لَّعَلَّكَ تَعْتَبُونَ﴾ (سورة: ٢٠).

أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف:

أولاً: روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "قرأي حروف على حرف فواحدة، فله أنزل أنزيده ويؤيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف".^(١) راد مسلم: "قال ابن شهاب: يعني أن تلك السبعة في الأمر الذي يكون واحداً، لا يختلف في حلال ولا حرام".

ثانياً: روى البخاري ومسلم - والملفظ لبحري - أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حجة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرأها رسول الله ﷺ، فكذلك أسأله في الصلاة، فانتظرت حتى سلم،

(١) صحيح البخاري (١٦٧: ٣)، صحيح مسلم (٥٦١: ١) عندما عن عبد الله بن عبد الله بن عتبة.

ثم لبسته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، قلت له: كذبت، فوالله إن رسول الله ﷺ، أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئينها، وأنت قرأتني سورة الفرقان.

فكان رسول الله ﷺ: أرسله يا عمرا أقرأ يا هشام، فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرأها، قال رسول الله ﷺ: هكذا أنزلت، ثم قال: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقروا ما نيسر منه". وفي بعض الروايات: أن رسول الله استمع إلى قراءة عمر أيضا وقال: هكذا أنزلت.

الثالث: روى مسلم بسنده عن أبي بن كعب: قال: كنت في المسجد، فدخل رجل يعلي فقرأ قراءة أنكرها عليه، ثم دعى آخر، فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فما قضيت الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله ﷺ، فقلت: إن هذا قرأ قرينة أنكرها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرها رسول الله ﷺ فقرئ، فحسب النبي ﷺ شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب، ولا إذ كنت في الجاهلية، فما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيت ضرب في صدري، ففضضت عرقا، وكأنا أنظر إلى الله عز وجل فرقا، فقال له: يا أيها المرسل إني أن قرأ القرآن على حروف، فرددت إليه أن هوّن على أمتي، فرد لي الثانية: اقرأ على حرفين، فرددت إليه أن هوّن على أمتي، فرد لي الثالثة: اقرأ على سبعة أحرف، ولك بكل ردة رددة مسألة تسألنيها فقلت: اللهم اعمر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأعرت الثالثة ليوم يرغب في الخلق كلهم، حتى إبراهيم عليه السلام.

قال القرطبي: فكان هذا الخاطر (يشير إلى ما سقط في نفس أبي) من قيل ما قال فيه النبي ﷺ حين سأله: إنا نجد في أنفسنا ما نتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: أوقد ودمعوه؟ قالوا: نعم. قال: ذلك صريح الإيمان".^(١)

وأما: روى الحديث. لفظ أبو يعلى في مسنده الكبير: أن عثمان بن عفان قال يوما وهو على المنبر:

أذَكَرَ اللَّهُ رَحْلًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ كُلُّهَا شَافٍ كَافٍ"، لَمْ يَأْتِ، فَعَامُوا، حَتَّى لَمْ يَتَصَوَّرُوا فَتَشَبَّهُوا أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ حُرُوفٍ، كُلُّهَا شَافٍ كَافٍ"، فَقَالَ عُمَرَانِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: "وَأَنَا أَشْهَدُ بِهِمْ".

خَاصِمًا: رَوَى مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي بَرٍّ كَتَبَ يَقُولُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ عِنْدَ أَهْلَةٍ مِنْ بَنِي عَفْرَةَ قَالَ: فَاتَّهَ جَبْرِيلُ ﷺ فَقَالَ: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرَأَ أَمَّتْ الْقُرْآنَ عَلَى حُرُوفٍ"، فَقَالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ مَعْفَاتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، وَإِنْ أَمَرَنِي لَا تَطْبِيقَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةُ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرَأَ أَمَّتْ الْقُرْآنَ عَلَى حُرُوفٍ، فَقَالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ مَعْفَاتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، وَإِنْ أَمَرَنِي لَا تَطْبِيقَ ذَلِكَ، ثُمَّ جَاءَهُ الثَّالِثَةُ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرَأَ أَمَّتْ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ، فَقَالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ مَعْفَاتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، وَإِنْ أَمَرَنِي لَا تَطْبِيقَ ذَلِكَ، ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةُ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرَأَ أَمَّتْ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَاتَّهَ حُرُوفٌ وَرَوُّوا عَنْهُ فَقَدْ أَصَابُوا.

سَامِعًا: رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي بَرٍّ كَتَبَ أَيْضًا قَالَ: لَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَبْرِيلُ عِنْدَ أَحْحَارِ الْمُرُوقَةِ قَالَ: فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَبْرِي: "إِنِّي بَعَثْتُ إِلَى أُمَّةٍ أَمِيرًا، فِيهِمْ الشَّيْخُ الْعَلَاءُ، وَالْعَجُوزُ الْكَبِيرُ، وَالْعِلَامُ، قَالَ: فَهَرَمُوا فَلَقَرُوا الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ وَفِي لَفْظٍ: "مَنْ قَرَأَ بِأَحْرِفٍ مِنْهَا فَهُوَ كَمَا قَرَأَ".

وَفِي لَفْظٍ خَدِيفَةٍ: فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ! إِنِّي أُرْسِلْتُ إِلَى أُمَّةٍ أَمِيَّةٍ، فِيهِمْ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ، وَالْعِلَامُ وَالْجَارِيَّةُ، وَالشَّيْخُ الْعَلَاءُ الَّذِي لَمْ يَقْرَأْ كِتَابًا فَقَالَ: "إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ".

سَابِعًا: أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي فَيْسٍ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْعَاصِ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ رَحَلَ قَرَأَ فِيهِ مِنَ الْقُرْآنِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُو: إِذَا هِيَ كَذَا وَكَذَا، فَذَكَرَ ذَاتَ بَدْيٍ ﷺ فَقَالَ: "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَأَيُّ ذَلِكَ قَرَأْتُمْ أَصَبْتُمْ، فَلَا تَعَارَوْا".

ثَامِنًا: رَوَى الطَّبْرِيُّ وَالطَّبْرِيُّ عَنْ رِيَدٍ بْنِ أَرْقَمٍ يَقُولُ: قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:

أقرآن ابن مسعود سورة أقرانها زيد بن ثابت، وأقرانها أبي بن كعب، فاحتلمت قراءتهم، فبقرأة أبيهم أخذوا فسكت رسول الله ﷺ وعني إلى جنبه، فقال علي: ليقرأ كل إنسان منكم كما علم، فإنه حسن جميل.

قاسعا: أخرج ابن جرير الطبري عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فافروا ولا حرج، ولكن لا تختصوا ذكر رحمة بعذاب، ولا ذكر عذاب برحمة.

الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف:

١- التيسير على الأمة الإسلامية، وخاصة الأمة العربية التي نزل عليها القرآن، وكان لها لحاج متعددة على الرغم أنها تجمعها كلمة العروبة، فأتخذ هذا من قوله ﷺ: "إن هوّن على أمي"، "وإن أمي لا تطيق ذلك"، وغيره.

قال المحقق ابن الطبري:

"وأما سبب وروده على سبعة أحرف؛ فللتخفيف على هذه الألف، وزيادة اليسر بها، والتنهين عليها، سرفا فدا، وتوسعة ورحمة، وخصوصية لفصلها، وإجابة لقصد نبينا أفضل الحق وحبيب الحق، حيث أتاه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمثلك القرآن على حرف، فقال ﷺ: أسأل الله معافاته ومغفرته، فإن أمي لا تطيق ذلك، ولم يزل يردد أسأله حتى بلغ سبعة أحرف. ثم قال: وكما ثبت أن لغوات نزل من سبعة أبواب على سبعة أحرف، وأن الكتاب قبله كان ينزل من باب واحد على حرف واحد، وذلك أن الأسيا، عليهم الصلاة والسلام كانوا يعثون إلى قومهم الخاصين، والتي ﷺ بحث إلى جميع الحق، أحمرهم وأسودهم، عربهم وعجمهم، وكان العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، لغاتهم مختلفة، وألسنتهم شتى، ويعسر على أحدهم لاقتفال من لغة إلى غيرها، أو من حرف إلى آخر، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ونحو بالتعليم والعلاج، لا سيما الشيخ والمؤلف، ومن لم يقرأ كتابا، كما أشار إليه ﷺ، فلو

كُلُّوا العَدُولَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ؛ وَالْإِنْفَالُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، لِكَانَ مِنَ التَّكْلِيفِ بِمَا لَا يَسْتَطَاعُ، وَمَا عَسَى أَنْ يَتَكَلَّفَ التَّكْلِيفُ وَتَأْيِي الطَّبَاعِ.

٢- جمع الأمة الإسلامية على لسان واحد، يوحد بينها هو لسان قريش الذي انتظم كثيرا من مختارات ألسنة القبائل العربية التي كانت تختلف إلى مكة في موسم الحج وغيره؛ ولذلك نزل القرآن على سبعة أحرف، يعطفي ما شاء من خات القبائل العربية التي تمثلت في لسان القريشيين، وهذه حكمة إلهية سامية، فإن وحدة اللسان العام من أهم العوامل في وحدة الأمة، خصوصاً أول عهدنا بالثبوت والنهوض.

معنى نزول القرآن على سبعة أحرف؟

الأحرف: جمع حرف، والحرف له معان كثيرة، قال صاحب القاموس: "أحرف من كل شيء طرفه، وشفره وحده، ومن الجبل أعلاه المجدد، وواحد حروف التهجئة (الهمزة) من يُجَدُّ، الله نبي خرف" (المع: ١٠)، أي وجه واحد، وهو أن يصنع على السراء لا على الصراء، أو على شك، أو على غير طعانية من أمره، أي لا يدخل في الذين متصكنا. و"نزل القرآن على سبعة أحرف"، أي سبع لغات من لغات العرب. وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه وإن جاء على سبعة أو عشرة أو أكثر، ولكن معناه أن هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن". (يتصرف) لما تقدم ترى أن حرف من قبيل المشترك اللفظي، ولشترك اللفظي يراد به أحد معانيه التي تعينها القرائن وتناسب المقام.

فالمراد من لفظ الحرف: أنه الوجه، بدليل ما يأتي:

قوله ﷻ: نزل القرآن على سبعة أحرف.

كلمة "على" تشير إلى أن هذا الشرط للتوسعة والتيسير، بمعنى أنزل القرآن موحدا فيه على القارئ أن يقرأه على سبعة أوجه، بقراءة أي حرف أراد منها على لبدل من صاحبه، كأنه قال: أنزل على هذا الشرط وعلى هذه التوسعة.

اختلاف العلماء في تفسير الأحرف الواردة في الحديث:

هما يتقدم الجدل والنزاع، ويكثر للقليل والقال، ومذكر بعضا من الآراء، ونرجح ما نراه أقرب للصواب:

١- ذهب بعض العلماء إلى أن أفراد به سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد على معنى أنه حيث تختلف لغات العرب في التعبير في معنى من المعاني، يأتي القرآن بالفاظ على قدر هذه اللغات، وإذا لم يكن اختلاف فانه يأتي بلفظ واحد.

وقيل: إن السبعة هي لغة قريش، وهذيل، وثقيف، وهوازن، وكنانة، وتميم، واليمن.

٢- وقيل: إن المراد بالأحرف السبعة: سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن، على معنى أنه في جملته لا يخرج في كلماته عن سبع لغات، هي أفصح لغاتهم، فأكثره بلغة قريش، ومنه ما هو بلغة هذيل، أو ثقيف، أو هوازن، أو كنانة، أو تميم، أو اليمن.

قال بعضهم: هذا أصح الأقوال وأولها بالصواب، وهو الذي صححه البيهقي، واختاره الأهرقي، واقتصر عليه صاحب القاموس.

٣- إن المراد بالأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، سبعة أصناف في القرآن.

ولكن أصحاب هذه الأقوال يختلفون في تعيين هذه الأصناف، وفي أسلوب التعبير عنها اختلافا كبيرا، فمنهم من يقول: إنها أمر، ونهي، وحلال وحرام، ومحكم ومشابه، وأمثال.

ومنهم من يقول: إنها وعد، ووعد، وحلال، وحرام، ومواعظ، وأمثال، واحتجاج.

ومنهم من يقول: إنها محكم، ومشابه، وناسخ، ومنسوخ، وخصوص، وعموم، وقصص.^(١)

٤- إن المراد بالأحرف السبعة أوجه من الألفاظ المختلفة في كلمة واحدة، ومعنى واحد، نحو: هلم، وأقبل، وتعال، وعجل، وأسرع، وقصدي، وغوي، فهذه الألفاظ السبعة معناها واحد هو "طلب الإقبال".

^(١) مناهل العرفان ص: ١٧٦.

وهذا القول منسوب لجمهور أهل اللغة والحدیث، منهم من حرم قطعي، وإجازي، وغيرهما.

٥- أن مراد بالأحرف السبعة الاختلاف في أمور سبعة:

- أ- اختلاف الأسماء، إفراداً وتذكيراً، وجمعاً، مثله قوله تعالى: ﴿وَأَنبِئْهُمْ أَنَّمَا بُنِيَ عَلَيْهِمُ الْبُيُوتُ﴾ (يونس: ٥١) فكلمة "أَنبِئْهُمْ" قرئ بإخضاع والإفراد.
- ب- الاختلاف في تصريفه، "الأفعال من مضارع، ومماثل، وأمره مثله قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا يَا عِزُّ رَبِّنَا لَا تُؤَخِّرْنَا﴾ (١١: ١٠١) قرئ بنصب لفظ "رَبَّنَا" على أنه مبتدأ، وبإضافة "يا عِزُّ رَبِّ" على أنه مبتدأ، وقرئ "رَبَّنَا نَعُدُّ" برفع "رَبَّنَا" على أنه مبتدأ، وبإضافة "نَعُدُّ" فعلاً منصوباً مضارعاً، حملته حر.

- ج- الاختلاف بالإبدال، سواء كان إبدال حرف بآخر، كقوله تعالى: ﴿وَأَنبِئْهُمْ أَنَّمَا بُنِيَ عَلَيْهِمُ الْبُيُوتُ﴾ (يونس: ٥١) قرئ بالزاي وبالياء مع فتح الهمزة وقوله سبحانه: ﴿وَأَنبِئْهُمْ أَنَّمَا بُنِيَ عَلَيْهِمُ الْبُيُوتُ﴾ (يونس: ٥١) قرئ "وَأَنبِئْهُمْ" فلا فرق في هذا بين الاسم والفعل أو إبدال لفظ بلفظ، كقوله سبحانه: ﴿كَأَلْفَيْنَ الْمَعْوِشِ﴾ (الفجر: ٥) قرأ ابن مسعود: "كألفين المعوش".

- د- اختلاف بالتثنية والتأني، إما في حرف كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِّمَن يَشَاءُ﴾ (الرعد: ٢١) قرئ "قُلْ لِّمَن يَشَاءُ"، وإما في الكلمة: نحو: ﴿يَقُولُونَ وَيَقُولُونَ﴾ (النور: ١١١) قرئ بالياء سواء في الأول، والمفعول في الثاني، وقرئ بالعكس، وكقوله سبحانه: ﴿وَأَنبِئْهُمْ أَنَّمَا بُنِيَ عَلَيْهِمُ الْبُيُوتُ﴾ (يونس: ٥١) قرئ "وَأَنبِئْهُمْ" فجاءت سكرة الحلق ثلثون.

- ح- اختلاف وجوه الإعراب، كقوله سبحانه: ﴿وَأَنبِئْهُمْ أَنَّمَا بُنِيَ عَلَيْهِمُ الْبُيُوتُ﴾ (يونس: ٥١) قرأ ابن مسعود بالرفع، وكقوله سبحانه: ﴿وَأَنبِئْهُمْ أَنَّمَا بُنِيَ عَلَيْهِمُ الْبُيُوتُ﴾ (يونس: ٥١) برفع الجحد على أنه نعت كلمة "أَنبِئْهُمْ"، وجره على أنه نفع العرش.

و- الاختلاف بالزيادة والنقص، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ (البرق ٣) قرئ 'والذكر والأنثى' بحذف 'ما خلق'.

ط- اختلاف النجاشات المتخيم، والترقب، والإمالة، ولإظهار، والإدغام، وهو كثير، ومنه الإحالة وعدمها، في مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ خَبْرٌ مِّنْ مَّوْسَىٰ﴾ (البرق: ١٥)، وهذا الرأي الأخير قد ذهب إليه الرزقي، وقاربه كل شقرب مذهب ابن قتيبة، وابن الجزري، وابن نصيب، وقد أخذ به الشيخ الرزقي في كتابه "مناهل العرفان" وأيده ببعض الأدلة.

الترجيح:

وأقرب الوجوه إلى الصواب هو المذهب الأخير، الذي اختاره الرزقي، واعتمده الرزقي في كتابه "مناهل العرفان" وأيده بأدلة، منها:

١- إن هذا المذهب هو الذي تزيده الأحاديث المتقدمة.

٢- إنه يعتمد على الاستقراء، ثم لاختلاف القراءات، وما ترجع إليه من الوجوه السبعة.

٣- إن هذا الرأي لا يلزمه محذور.

والآراء في "الأحرف السبعة" كما نرى تحدها في كتاب "مناهل العرفان" للرزقي، وفيها توهين المذهب الأخرى والرد عليها (ص: ١٦٥- ١٧٧).

ولننقل خلاصة هذا المذهب من كلام أبي الفضل الرزقي في اللوائح حيث يقول: الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف في الاختلاف.

الأول: اختلاف الأسماء من مراد، ولتنية، وجمع، وتذكير، وتأنيت.

الثاني: اختلاف تصرف الأفعال من ماضٍ، ومضارع، وأمر.

الثالث: اختلاف وجوه الإعراب.

الرابع: الاختلاف بالنقص والزيادة.

الخامس: الاختلاف بالنقص والتأخير.

السادس: الاختلاف بالإبدال.

السابع: اختلاف السعات، يعني اللهاجات، كالفتح والإدالة، والترقيق والتثقيب، والإظهار والإدغام، ونحو ذلك.

هذه الأحرف السبعة موجودة في المصحف الآن؟

١- ذهب جماعة من الفقهاء والفر، والمتكلمين إلى أن جميع هذه الأحرف موجودة في المصحف العثماني.

حجتهم:

أ- أنه لا يجوز الإلزام أن نحمل كل شيء، منها.

ب- أن الصحابة أجمعوا على أن المصحف الذي نقلها عثمان رضي الله عنه من المصحف الذي كتبها أبو بكر رضي الله عنه.

ج- معنى ما تقدم أنه المصحف الذي عهد أبي بكر قد جمعت الأحرف السبعة، ونقلت منها المصحف العثماني بالأحرف السبعة كذلك.

د- قول النبي ﷺ: "إن أمتي لا تطيق ذلك" لا يخص بعهد الصحابة دون غيرهم، وقراء تيسير القرآن مع إبقاء إيجازهم.

٢- ذهب جماهير العلماء من السلف والخلف، وأئمة المسلمين إلى أن المصحف العثماني مشتقة على ما اعتلوه ومنها من الأحرف السبعة فقط، جماعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل عليه السلام.

٣- ذهب ابن جرير الطبري ومن معه إلى أن المصحف العثماني لم تشمل إلا على حرف واحد من حروف السبعة، وقالوا: إن الأحرف السبعة كانت في أيام الرسول ﷺ، وفي بكر وعمر، فلما كان عهد عثمان رأيت الأمة يفادون أن تقتصر على حرف واحد جمعا بكلمة المسلمين،

ونسج عثمان بهذا الحرف الذي استبقته الأمة وحده جميع المصاحف العثمانية.

قال الزرقاني في "مناهل العرفان" (ص: ٦٦٢) ما نصه:

"ونحن إذا رجعنا بهذه الأوجه السبعة إلى المصاحف العثمانية، وما هو مخطوط بها في الواقع ونفس الأمر، نخرج بهذه الحقيقة التي لا تقبل الشك، ونصل إلى فصل الخطاب في هذا الباب، وهو أن المصاحف العثمانية قد اشتملت على الأحرف السبعة كلها، ولكن على معنى أن كل واحد من هذه المصاحف اشتمل على ما يوافق رحمه من هذه الأحرف كلها أو بعضها، بحيث لم تخل المصاحف في مجموعها عن حرف منها رأساً".

وقد بين ووضح الشيخ الزرقاني وجود الأوجه السبعة على مذهبه المختار، وأن الأوجه السبعة موجودة الآن في المصاحف العثمانية، وسأكتفي بذكر مثال من أمثلته، غير أن بعض الوجوه السبعة ذكر أنها منسوخة بالعرضة الأخيرة.

مثاله: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (البقرة: ٨٥) المقروءة تجمع الأمانة وإفرادها، فقد اشتمل عليها المصحف إذ كان الرسم العثماني فيه هكذا: (لَأَمَانِهِمْ) يرسم المفرد في الحروف، ولكن عليها ألف صغيرة؛ تشير إلى قراءة الجمع، وغير منفردة ولا مشكورة. ^(١)

مناقشة مذهب الطبري:

قال الطبري: إن الأحرف الستة سمحت لإجماع الأمة في عهد عثمان عليه، وبقي حرف واحد حفاظاً لوحدة الأمة الإسلامية من التفرق، حين كفر بعضهم بعضاً بسبب اختلاف القراءات وخيفت الفتنة، فلم تجد الأمة حلاً لهذه لمشكلة إلا جمع الأمة على قراءة حرف واحد.

الرد عليه:

١- الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في القراءة في عهد رسول الله ﷺ، وكادت أن تقع فتنة - كما

^(١) مناهل العرفان، ص: ٦٦٢.

فلم - فكيف حل الرسول ﷺ هذه الشككة؟ بما كان منه الوحيد إقرار كل من اتخذه من على القرعة التي قرأها، وأهمهم أن تعدد وحده القرعة هو رحمة من الله عم وتيسر عليهم، كما دلل عليه الأحاديث المتعددة.

٢- وقال في الحديث: "إن أمي لا تصيق ذلك"، وأنت يا قبة إلى يوم القيامة، كما نشاهد نحن الآن أن بعض الشعوب الإسلامية لا يتيسر لها النطق ببعض حروف، ولا تحسن بفان بعض اللمحات دون بعض.

٣- بعد ما عرفنا ما تقدم، نقول: كيف مسوا نصحابة رسول الله عليهم من الله لرضوان، وعلى رأسهم عثمان بن عفان رضي الله عنه - إعلاني باب المرحمة وتخفيف الذي فتحه الله لامة الإسلام؟ معافي الرسول عليه الصلاة والسلام في علاجه للنزاع الذي حصل بين الصحابة متفرير هذا التعدد للحروف.

٤- إن نربا بأصحاب رسول الله ﷺ أن يكونوا قد وافقوا أو فكريا على ضياح ستة أحرف من القرآن الكريم، وهي لم تتمح لا تلاوة ولا حكماء ولم يكونوا يخدموا الرسول في قوله وعمله.

٥- لو كانت هذه الأحرف نسحت في عهد عثمان رضي الله عنه، م بين مجال لاختلاف العلم فيها، ولكننا نجدهم اختلفوا فيها على نحو من أربعين قولاً.

٦- م فرضاً - حداً - أن الأحرف الستة نسحت في عهد عثمان فلماذا لا تنفي بمرور التاريخ فقط في أعظم كتاب مقدس، مع أن الصحابة بنوا الآيات المنسوخة تلاوة أو حكماء وكذلك الآيات المنسوخة والأحاديث المتوضحة، ويبروا نكل وجهه.

٧- وقصارى القول: أن الصحابة رضي الله عنهم لم يرضوا بمخالفة رسول الله ﷺ في قوله أو فعله، ولم يكن لهم اسديل وسبح ما لم يسبح من كتاب الله، وحاشاهم أن يخدموا على مثل هذا الفعل، رضي الله عنهم وأرضاهم.

بعض الشبهات الواردة على الموضوع والرد عليها

الشبهة الأولى:

يقولون: إن المراد بالأحرف السبعة هي القراءات السبع المنقولة عن الأئمة السبعة المعروفين عند القراء.

الرد عليهم: قولك هذا باطل من وجوه:

١- إن قول الرسول ﷺ: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف" يكون عارياً من الفائدة على قولكم حتى يولد الأئمة السبعة، مع أن قولكم غير صحيح؛ لأن الرسول ﷺ قرأها وصحابه والتابعون قبل ميلاد القراء.

فإن اعتمد ابن الجزري: "قلو كان الحديث منصرفاً إلى قراءات القراء السبعة المشهورين، أو سبعة غيرهم من القراء الذين ولدوا بعد التابعين لأدى ذلك إلى أن يكون خبر عارياً عن الفائدة إلى أن يولد هؤلاء السبعة، فتولد عنهم القراء، وأدى أيضاً إلى أنه لا يجوز لأحد من الصحابة أن يقرأ إلا بما يعلم أن هؤلاء السبعة من القراء إذا ولدوا وتعلموا، اختاروا القراءة به، وهذا باطل؛ إذ طريق أخذ القراءة أن توحى عن إمام ثقة، لفظاً عن إمام، إلى أن يصل بالنبي ﷺ".

٢- إن الأحرف السبعة أهم من القراءات السبع عموماً مطلقاً؛ لأن الأحرف السبعة تشمل القراءات التي قرأها الرسول ﷺ، وتشمل أيضاً ما وصل إلى هؤلاء القراء السبعة، وما نسخ قبل أن يصل إليهم، وتنظم جميع القراءات صحيحها، ومكرها، وشاذها، فما دام أن الأحرف أهم من القراءات فلا تكون هي نفس القراءات.

٣- من المحال عقلاً أن يفرض الرسول ﷺ قرنة القرآن على صحابته بقراءة القراء الذين لم يخلقوا بعد، وهذا الرأي باطل.

المشبهة الثانية:

يقولون: إن أحاديث نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف ثبتت الاختلاف مع أن القرآن نفسه ينفي الاختلاف بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يُنذِرُكُمُ الْفُرْقَانُ وَلَوْ كُنَّا مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (سجدة: ٨٢)، وذلك تناقض، ولا ندري أيهما الصادق؟

الجواب: إن الاختلاف الذي ثبتت الأحاديث غير الذي بعبه القرآن، وعلى هذا كلاهما صادق؛ إذ أن الاختلاف الذي ثبتت الأحاديث فيما يتعلق بطرق الأداء والنطق بالفاظ القرآن في دائرة عمودية، لا تعدو سبعة أحرف، وبشرط التلويح فيها كلها عن النبي ﷺ. فعلى هذا يكون الاختلاف في الأحاديث بمعنى التنوع، أما القرآن فيتفي التناقض بين أحكامه ومعانيه وتعاليمه، مع ثبوت التنوع في انتظاظ والأداء^(١).

والحاصل: قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: وهذا المجموع في المصحف: هل هو جميع الأحرف السبعة التي أقيمت القراءة عليها؟ أو حرف واحد فيها؟ قال القاضي أبو بكر: إنه جميعها، وصرح أبو جعفر لطيفي والأكثرون من بعده بأنه حرف منها، ومال الشيخ الشافعي إلى قول القاضي فيما جمعه أبو بكر رحمه، وإلى قول الطبري فيما جمعه عثمان رحمه.

قال الزركشي في تفسيره: قال بعض المتأخرين: القراءات السبع التي قرأها القراء السبعة كلها صحت عن رسول الله ﷺ، وهو الذي جمع عليه عثمان رحمه المصحف، وهذه القراءات السبع اختيارات أولئك القراء، فإن كل واحد منهم اعتار فيما روى وعلم وجهة من القراءة ما هو الأحسن عنده، ولزم طريقة منه ورواها وقرأه، واشتهرت عنه، ونسبت إليه قليل: حرف نافع، وحرف ابن كثير، ولم يجمع واحد منهم حرف آخر، ولا أنكره، بل سوغه وحسنه، إلى أن قال: وقد أجمع المسلمون في هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عنهم، وكان الإنزال على

^(١) نقل عن "مناهل العرفان" ص: ١٢٩، تصرف.

الأحرف السبعة توسعة من الله ورحمة للأمة؛ إذ لو كلف كل فريق منهم ترك لغة وانحدول عن عادة نشور عليها من الإمالة والهمز، والتلين والمد، وغيره نشق عليهم.

القراءات المشهورة:

في نهاية البحث يرى إمامنا أن نكلم على نبذة مختصرة عن القراءات وكيف نشأت؟ ومن هم لقراء المشهورون؟

تعريف القراءات:

القراءات: جمع قراءة، مصدر قرأ يقرأ قراءة، واصطلاحاً: مذهب من مذاهب النطق في القرآن يذهب به إمام من الأئمة القراء مذهباً يخالف غيره في النطق بالقرآن الكريم وهي ثابتة بأمرها إلى رسول الله ﷺ.

هل كان في عهد الصحابة قراء؟

عم! يرجع عهد القراء الذين أمموا الناس على طرائقهم في التلاوة إلى عهد الصحابة الكرام، فقد اشتهر بالإقراء منهم: أبي، وعسى، وريد بن ثابت، وابن مسعود، وأبو موسى الأشعري، وغيرهم رضي الله عنهم.

وعن هؤلاء أخذ كثير من الصحابة والتابعين في الأمصار، وكنهم بسند إلى رسول الله ﷺ إلى أن جاء عهد التابعين في المائة الأولى، فتجرد قوم، واعتصموا بضبط القراءة عناية تامة حين دعت الحاجة إلى ذلك، وجعلوها علماً كما فعلوا بصوم الشريعة الأخرى.

ونعود ونقول كيف نشأت القراءات؟

عرفنا أن عهد اقراء من عهد الصحابة إلى عهد التابعين، وأن العمل عليه في القرآن الكريم إنما هو التلقي؛ الأخذ ثقة عن ثقة، وإماماً عن إمام، إلى النبي ﷺ، وكانت المصاحف غير منقوطة ولا مشكونة، وأن صورة الكلمة فيها كانت محتملة لكل ما يمكن من وجهه القراءات

المتخلفة، وإذا لم تحملها كتبت الكلمة بأحد الوجوه في مصحف، ثم كتبت في مصحف آخر بوجه آخر، وهلم جرا. فلا غرر أن كان التعويل على الرواية والنسخي هو الصلة في باب القراءة والقرآن.

ثم إن الصحابة رضي الله عنهم قد اختلفوا عن رسول الله ﷺ، فممنهم من قرأ بحرف، وممنهم من أخذ به بحرفين، وممنهم من زاد، ثم تفرقوا في البلاد وهم على هذه الحال.

وكان عثمان رضي الله عنه حين بعث المصاحف إلى الأقاليم أرسل مع كل مصحف من يوافق قراءته في الأكثر الغالب، وعند تفرق الصحابة في البلدان مع اختلافهم في القراءات نقل ذلك عنهم التابعون ومن تبعهم، واختلف بسبب ذلك أخذ التابعين حتى وصل الأمر على هذا النحو إلى الأئمة القراء المشهورين، الذين تخصصوا وانقطعوا للقراءات يضطوئها، ويعنون بها، وينشرونها.

هنا منشأ علم القراءات واختلافها، وإن كان هذا الاختلاف يرجع في الواقع إلى أمور يسيرة بالنسبة لمواضع الاتفاق الكثيرة كما هو معلوم، وهذا الاختلاف في حدود الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن الكريم كلها من عند الله.

وبحسن في هذا المقام أن نقل ما كتبه الشيخ الزرقاني في كتابه "مناهل العرفان"، وقد نقله من كتاب لتزويري مخطوط بدار الكتب المصرية وضعه شرحاً للعلية في القراءات، قال:

"والاعتماد في نقل القرآن على الحفاظ، ولذلك أرسل - أي عثمان رضي الله عنه - كل مصحف مع من يوافق قراءته في الأكثر، وليس يلزم. وقرأ كل مصر بما في مصحفهم، وتلقوا ما فيه من الصحابة الذين تلقوه عن النبي ﷺ، ثم تجرد للأخذ من هؤلاء قوم أسهروا ليلهم في ضبطها، وأتبعوا غارهم في نقلها، حتى صاروا في ذلك أئمة للاقتداء، وأنصبا للاعتداء، وأجمع أهل بلدهم على قبول قراءتهم، ولم يختلف عليهم آنان في صحة روايتهم ودرائتهم، ولتصديهم للقراءة نسبت إليهم، وكان المعلوم فيها عليهم.

"ثم إن القراء بعد هؤلاء كثروا، وفي البلاد انتشروا، وخلفهم أمم بعد أمم، وعرفت طبقاتهم،

واختلفت صفاتهم، فكان منهم الثفن للثلاوة المشهورة بالرواية والندابة، ومنهم المحصل لوصف واحد، ومنهم المفضل لأكثر من واحد، فكثر بينهم لذلك الاختلاف، وقيل منهم لاختلاف مقام عند ذلك جهالة الأمة، وصناديد الأمة، فاسغوا في الاحتهاد بقدر الحاصل، وميزوا بين الصحيح والباطل، وجمعوا الحروف والقراءات، وعزوا الأوجه والروايات، وبينوا الصحيح والشاف، والكثير والفاذ بأصول أصونها وأركان فصلوها... إلخ^(١).

عدد القراءات وأنواعها:

ذكر صاحب كتاب "الإتقان" أن القراءات متواترة، ومشهورة، وآحاد، وشاذ، وموضوع، ومندرج. قال القاضي حلال الدين البلقيني: القراءة تنقسم إلى متواترة، وآحاد، وشاذ. فالمتواترة: القراءات السبع المشهورة^(٢).

والآحاد: قراءة الثلاثة التي هي ثمانية العشر، ويلحق بها قراءة الصحابة. والشاذ: قراءة التابعين، كالأعشى، ويحيى بن وثاب، وابن جبر، وغيرهم. قال السيوطي: هذا الكلام فيه نظر، وأحسن من تكلم في هذا النوع إمام القراء في زمانه الشيخ أبو الخضر ابن خوري، قال في أول كتابه "انتشر": "كل قراءة وافقت الثرية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وحيث سننها؛ فهي للقراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها، بل هي السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأمة السبعة، أم عن العشرة، أم عن غيرهم من الأمة لقبولين، ومنى احتل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها شذو أو باطل، سواء كانت عن السبعة، أم عن غيرهم، هذا هو الصحيح عند الأمة لتحقيق من السلف والخلف^(٣)."

^(١) مناهل العرفان: ٤٠٢/١.

^(٢) الإتقان: ٢٠٣/١.

^(٣) مناهل العرفان: ٤٠٩/١، والإتقان: ٢٠٣/١.

فان صاحب الطبية في صياط قبول القراءات.

وكل ما وافق وحذ التحو وكان للرسم احتفالا يحوي
وصحح اسناد، هو القرآن فهذه الثلاثة الأركان
وحبسا يختص ركن أثبت شذوذه نو أنه في السبعة

والقراءات: قيل: القراءات السبع، والقراءات العشر، والقراءات الأربع عشرة، وأحظى الجميع
بالشهرة، وببهاية الشأن: القراءات السبع.

وتنسب هذه القراءات إلى الأئمة السبعة المعروفين، وهم: نافع، وعاصم، وحزف، وعبد الله بن
عمر، وعبد الله بن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وعلي بن الحسن بن علي.

والقراءات العشر، هذه السبعة وزيادة قراءة أبي جعفر، ويعقوب، وحلف.

والقراءات الأربع عشرة، زيادة أربع على قراءات هؤلاء العشرة وهي قراءة الحسن البصري،
وابن محيص، ونجى الميزدي، والثمودي.

أول من صنف في القراءات:

علم القراءات أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا.

وأول من صنف في القراءات أمثال أبي عبيد القاسم بن سلام، وأبي حاتم السجستاني،
وأبي جعفر الطبري، وإسماعيل النقاشي.

متى اشتهرت قراءة السبعة؟

اشتهرت قراءة السبعة على رأس المائتين في الأمصار الإسلامية. فكان الناس في البصرة على
قراءة أبي عمرو ويعقوب، وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وبالشام على قراءة ابن عمر،
وبمكة على قراءة ابن كثير، وبالمدينة على قراءة نافع.

متى دوت القراءات؟

دوت في نهاية القرن الثالث بغداد على يد الإمام بن مجاهد أحمد بن موسى بن عباس، فجمع

قُرُونُ هَؤُلَاءِ السَّبْعَةِ غَيْرُ أَنَّهُ أُثْبِتَ لَهُ الْكِتَابِيُّ، وَحَدَّثَ بَعْضُهُمْ.

طَرِيقَتُهُ:

كَانَ آخِذًا عَلَى نَفْسِهِ أَلَا يَرَوِي إِلَّا عَنِ شَيْخٍ بِإِعْصَافٍ وَأَمَانَةٍ، يُطَوِّلُ النُّعْمَ فِي مَلَامَتِهِ الْقِرَاءَةِ، وَتَفَالُفِ الْأَرْءِ عَلَى الْأَخْذِ بِهِ، وَانْطَلَقَ بِهِ.

وَالْتَصَارُفُ مِنْ عَمَادٍ عَلَى هَؤُلَاءِ السَّبْعَةِ، نَيْسَ عَمَادٍ لِقُرْءٍ فِيهِمْ، وَلَا يُخَرِّمُ أَحَدًا أَنْ يَنْفَعَهُ حُدُودُ قُرَائِهِمْ.

لقراء السبعة المشهورون:

لقراءات متواترة نفلت لنا عن القراء الحفظة، المشهورين بالحفظ والإعصاف والإتقان، وهم أئمة القراءات المشهورون، الذين تعلموا لنا قراءه أصحابه عن رسول الله ﷺ، وكان فيه فضل العظم والنعيم بكتاب الله تعالى، كما قال صبروت الله وسلامه عليه: **خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقِرَاءَانَ وَعَلِمَهُ**، وقد جمع الشيخ أبو اليسر غابرين هؤلاء القراء في ستين من الشعر فقال:

فانفع، وإن كنت، عاصمٌ وحمرٌ، ثم أبو عمرو هو
مع ابن عاصم أبي الكوفي أئمة السبع بلا استواء

لقراء السبعة:

١- ابن عامر:

اسمه عبد الله (يحبني) قاضي دمشق في خلافة الوليد، من عبد المنك، ويكنى أبا عمارة، وهو تابعي، وقد أخذ القراءة عن أنقرة بن أبي شهاب الحرومي، عن عثمان بن عفان، عن رسول الله ﷺ، توفي بدمشق سنة ثمانٍ عشر ومائة وقد اشتهر برواية قراءته ههنا، وابن ذكوان،

قد بهبهم صاحب الشاطبية:

وما دمشق الشام دار ابن عامر فتلك بعد الله طابت محلا
هشتم وعبد الله وهو التمام لذكوان بالإستاد عنه نقلا

٢- ابن كثير:

هو أبو محمد، عبد الله بن كثير لداري لدكي، كان إمام الناس في القراءة بحكة، وهو تابعي،
لني من الصحابة عبد الله بن الزبير، وأبا أيوب الأنصاري، وأنس بن مالك، وتوفي بحكة سنة
مائة وعشرين.

ورواه البزي (ت ٢٥٠هـ) وقيل (ت ٢٩١هـ).

قال فيهم صاحب الشاطبية:

وبكة عبد الله فيها مقامه هو من كثير كثر القوم مُعْتَبَلا
روى أحمد البزي نه وعمد على سند وهو الملقب فُتَبَلا

٣- عاصم الكوفي:

هو عاصم بن أبي النجود الأسدي، ويقال له: ابن هذلة، ويكنى أبا بكر، وهو تابعي، توفي
بالكوفة سنة ١٢٧ أو ١٢٨، ورواه شعبة (ت ١٩٣هـ) وحفص (ت ١٨٠هـ).

يقول فيهم صاحب الشاطبية:

وبالكوفة الفراء منهم ثلاثة أذاعوا فقد ضاعت شذى وقرنفا
فما أبو بكر وعاصم سمه فشعبة رواه المنز أنفضلا
وذلك ابن عباس أبو بكر الرضا وحفص وداود كان مفضلا

٤- أبو عمرو:

هو أبو عمرو زمان بن العلاء بن عمار المصري، شيخ الرواة، وقيل: اسمه يحيى، وقيل: اسمه كنيته،
توفي بالكوفة سنة أربع وخمسين مائة، ورواه الثوري (ت ٢٤٦هـ) والسوسي (ت ٢٦١هـ).

قال صاحب الشاطبية:

وأما إمام المازني حريصهم أبو عمرو البصري فوائده أشعلا
فأصبح بالعذب اللغات معللا
أبو عمرو لدوري ومالهم أبو شبيب هو الوسي عنه نقلا

٥- حمزة الكوفي:

هو حمزة بن حبيب بن عتبة الأرياء، الفرضي البصري، مولد عكرمة بن ربيع البصري، ويكنى
أبا حمزة، توفي بخوان في خلافة أبي جعفر المنصور سنة ١٥٦هـ، ورواه عنه
(ت ٢٢٩هـ) وخلاَّد (ت ٢٢٠هـ) بواسطة منجم.

قال صاحب الشاطبية:

وحمره ما أذكاه من متورع زماماً صوراً للغرر مرثلاً
روى حلقاً عنه وخلاَّد الذي روى سليم متفناً ومحصلاً

٦- خافع:

هو أبو روم خافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم البصري، أصله من أصفهان، وانتهت إليه رئاسة الإفتاء
بالمدينة المنورة، وتوفي بها سنة ١٦٩هـ، ورواه فقلون^١ (ت ٢٢٠هـ)، وورش (ت ١٩٧هـ)،
يقول صاحب الشاطبية:

فأما الكريم شمر في شطب رافع فذاك الذي اعتذر بالمدينة مرثلاً
وقالون عيسى، ثم عثمان، ورشهم بصحة الفقه الرفيع نائلاً

٧ الكسائي:

هو علي بن حمزة إمام الشعاة الكوفيين، ويكنى أبا الحسن، وقيل له: الكسائي، لأنه كان في الإحرام

^١ معناه: شبيب، في أصل رصفها، ورش: الشدة بإصبعه.

لابسا كساء، توفي بـ "برنيوية" قرية من قرى الرنجة، حين توجه إلى عرامان مع الرشيد سنة ١٨٩٠، ورواه أبو الحارث (ت ٢٤٤٦هـ) والعمري (ت ٢٤٤٦هـ).

يقول صاحب النشاطية:

وأما علي فالكسائي نعت لما كان في الإحرام به تسريلا
 روى لبثهم عنه أبو الحارث الرضا وحفص هو ثوري وفي الذكر قد علا

* * *

الفصل الخامس:

النسخ في القرآن الكريم وحكمته التشريعية

جاءت الشريعة الإسلامية الغراء، محفقة لمصاوغ الناس، متمشية مع تطور الزمن، صالحة لكل زمان ومكان، وكان من رحمة الله تبارك وتعالى بعباده أن سرّ لهم سنة التدرج في الأحكام؛^(١) لتبقى النفوس على أتم الاستعداد لتقبل تلك التكاليف الشرعية برضى وقناعة وطمأنينة، ولا تشعر بالكل أو ضجر، ولا تشعر بمشقة أو شدة، ولتظل الشريعة الغراء - كما أرادها تبارك وتعالى - شريعة سهلة، يسيرة، لا عسر فيها ولا تعقيد، ولا شطط فيها ولا إزهاق. تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (نور: ١٠٨٥)، وقوله جل شأه: ﴿وَمَا خَفِيَ عَلَيْكُمُ فِي الدِّينِ مِنْ شَيْءٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْ آخِرِ حَرْجِ مَا يُسْأَلُكُمْ فِيهِ لِيُبَلِّغُكُمُ الْإِسْلَامَ...﴾ (الحج: ٧٨) الآية.

ومن المعلوم أن الأحكام ما شرعت إلا لمصلحة العباد، وهذه المصلحة تختلف باختلاف الزمان والمكان، فإذا شرع حكم في وقت من الأوقات، وكانت الحاجة منحة إليه، ثم زالت تلك الحاجة، ففسخ الحكم بسحبه وتبدله بحكم يوافق الوقت الآخر، فيكون هذا التبديل والتغيير محققاً للمصلحة، مؤدية للغاية، نافعا للعباد. وما مثل ذلك إلا كعمل الطبيب، الذي يغير الأدوية والأدوية للمريض باختلاف الأمراض والنوبة والاستعداد.

والأبياء صلوات الله وسلامه عليهم، هم "أطباء القلوب"، ومصنفو شعور؛ لذلك جاءت شرائعهم مختلفة، تبعاً لاختلاف الأزمنة والأمكنة، وجاءت بسنة التدرج في الأحكام؛^(٢) لأنها بمثابة الأدوية والعقاقير^(٣) للأبدان، فما يكون منها في وقت مصلحة، قد يصبح في وقت آخر مفسدة، وما يصنع لأمة لا يصلح لآخرى، وتلك هي حكمة العلیم الحكيم، الذي شرع لكل زمان ما يصلح له.

^(١) العقاقير جمع عقار: أصل الدواء.

كلمة لطيفة في النسخ للقاسمي:

وجاء في التفسير المسمى "محاسن التأويل" للشيخ جمال الدين القاسمي، كلمة لطيفة نقلها هنا لمصاحفا، يقول الشيخ رحمه الله:

إن الخالق تبارك وتعالى ربي الأمة العربية في ثلاث وعشرين سنة نورية تدريجية، لا تتم بعمرها بواسطة الفواعل الاجتماعية - إلا في قرون عديدة؛ لذلك كانت عليها الأحكام على حسب قابليتها، ومضى ارتقت قابليتها بمثل الله ذلك الحكم بعمره، وهذه سنة الخالق في الأفراد والأمم على حد سواء، فإنك لو نظرت في الكائنات الحية، ترأيت أن النسخ ناموس طبيعي محسوس في الأمور المادية والأدبية معا، فإن انتقال خلقية الإنسانية إلى جنين، ثم إلى طفل، فبائع، فشاب، فكهيل، فشيوخ، وما يتبع كل دور من هذه الأدوار، يريث ما جلى دليل: أن التبدل في الكائنات ناموس طبيعي محقق، وإذا كان هذا المنسخ ليس مستنكر في الكائنات، فكيف يستنكر نسخ حكم وإطالة بحكم عمر في الأمة، وهي في حالة نمو ونسج من أدنى إلى أرقى؟

هل يرى إنسان له مسكة من عقل أن من الحكمة تكليف العرب - وهم في سدا أمرهم - بما يلزم أن يتصفوا به، وهم في نهاية الرقي الإنساني، وغاية الكمال البشري؟ وإذا كان هذا لا يقول به عاقل في الوجود، فكيف يجوز على الله - وهو أحكم حاكمين - بأن يكلف الأمة وهي في دور "طفوليتها" بما لا تتحمسه إلا في دور "شيويتها"، وكهولتها"...

وأي الأكبرين أنصّل؟ "شرعنا الذي سنّ الله لنا حدوده نفسه، ونسخ منه ما أراد بعلومه، واتمه عبت لا يستطيع الإنس والجن أن ينقصوا حرفا منه؛ لانطباقه على كل زمان ومكان، وعدم مجافاه لأية حالة من حالات الإنسان؛ ثم تتوابع دينة نجرى، حرفها كنهاتها، ونسخ الوجود أحكامها - بحيث يستحيل العمل بها؛ لما نفاها مقتضيات الحياة ليشربة مر كل وجهه..."^(١)

^(١) انظر "محاسن التأويل" للشيخ جمال الدين القاسمي: ٢١٩/٢

تعريف النسخ لغة واصطلاحاً:

النسخ لغة: يأتي بمعنى الإزالة، فنقول نرعب: مسخت الشمس الظل - أي: أزالته -، ومنه قوله تعالى: ﴿فَنَسَخَ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ [البقرة: ٥٢]، أي: يزيهه ويبطله، ويأتي بمعنى النقل من موضع إلى موضع، ومنه قوهم: نسخت الكتاب، أي: نقلت ما فيه إلى كتاب آخر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نُنَسِّخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ويأتي بمعنى الإبدال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا يَدَّتْ آيَةٌ مِّنْ آيَاتِنَا﴾ [الشعرا: ١٠١]، وتعني التحويل، ومنه ناسخ المواريث من واحد إلى واحد، هذا من حيث اللغة.

وأما في الشرع: فهو انتهاء الحكم وتبديله بحكم آخر، وقد عرّفه الفقهاء، والأصوليون بتعريفات كثيرة مختار منها أحصروها وأجمعها، وهو ما قاله ابن الخياط، حيث قال في تعريفه: ﴿النسخ: هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر﴾. قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَا نُنَسِّخُ مِنْ شَيْءٍ أَزْنَىٰ أَوْ نُنَبِّئُهَا بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ نُنَبِّئُهَا أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [سورة النحل: ١٠٦].

سبب النزول لآية النسخ:

روي أن اليهود قالوا لبعضهم البعض: ألا تعجبون من أمر محمد؟ يأمر أصحابه بأمر، ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول ليوم فولا، ويرجع عنه غداً، فما هذا القرآن إلا من كلام محمد، يقول من تلقاء نفسه، ويساقض بعضهم بعضاً؟ فنزلت الآية الكريمة رداً على سفيهم وجهلهم، بقوله - تفسدت أسمائهم -: ﴿وَمَا نُنَسِّخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنَبِّئُهَا بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ نُنَبِّئُهَا﴾^(١). ومعنى ﴿نُنَبِّئُهَا﴾: هو ما قاله ترجمان القرآن ابن عباس: أي: نتركها فلا نلغسها، ولا نلغسها. وقيل: هو من أبا ن، بمعنى الترك، أي: نتركها بدون تعديل.

^(١) مقرر روح المعاني لأبوكري: ٣٥٢/١ وتفسير لأكتشاف: ١٢٩/١.

هل النسخ واقع في الشرائع السماوية؟

النسخ في الشريعة الإسلامية جائز عقلاً، حادث سمعاً، وهو واقع بإجماع المسلمين، خلافاً لليهود، فإنهم أنكروا وقوعه، وقالوا: لم يحدث نسخ في الشرائع؛ لأنه يدل على الجهل، والله منزّه عن ذلك، ووافقهم على هذا القول أبو مسلم الأصفهاني^(١)، فقال: إن النسخ في كتاب الله تعالى لم يحصل؛ لأن الله تعالى قال عن القرآن العظيم: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (سج: ١: ٤٢)؛ فلو جاز النسخ لكان قد أتاه الباطل.

واحتج جمهور العلماء على جواز النسخ ووقوعه بأن الدلائل القطعية دلت على نبوة محمد ﷺ ونونه ﷺ لا تصح إلا مع القول بنسخ شرع من قبله، وهذا دليل عقلي. وأما الوقوع فقد قالوا: إن النسخ قد حصل في الشرائع السابقة، وفي نفس شريعة اليهود، فإنه جاء في التوراة أن آدم ﷺ أمر بترويع بنيائه من بعده، ثم قد حرم ذلك باتفاق.^(٢)

أدلة الجمهور:

استدل الجمهور على وقوع النسخ بحجج كثيرة، نوجزها فيما يلي:

الطبعة الأولى: أن الله تعالى قد صرح به في الآية الكريمة، وهي قوله سبحانه: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ جُنُبًا﴾ (نحل: ١٠٦)، قالوا: فهذه الآية صريحة في وقوع النسخ.

الطبعة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَدَّكُنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا نُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ (سج: ١: ٢٠)، قالوا: إن هذه الآية واضحة كل الوضوح في تبديل الآيات والأحكام، والتبديل: يشتمل على رفع حكم وإنهات آخر، والمرفوع إما التلاوة وإما الحكم؛ وكليهما كان الأمر، فإنه رفع ونسخ، وهو ما دلت عليه الآية الكريمة.

^(١) هو المفسر الكبير الإمام لغمر الرزي: ٢٢٧/٣.

الحجة الثالثة: نسخ القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، وهو ظاهر لا يجادل فيه عاقل، فقد كان المسلمون يترجمون في صلاتهم في بدء الدعوة الإسلامية إلى بيت المقدس، ثم نسخ ذلك بحكم، وأمر النبي ﷺ والمسلمون بالتوجه إلى البيت الحرام في مكة المكرمة بقوله تباركت أسماؤه: ﴿فَقَدْ نَزَى نَقْلُكُمْ وَجِهَكُمْ فِي الشَّامِ فَلَتَوَيْتُكُمْ قِبْلَةً نَرْضَاهَا فَوْنٌ وَجْهَكُمْ شَطْرَ الْقُسْجَةِ الْخَرَمِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (البقرة: ١٤٤).

وأمر تبارك وتعالى بما سبقوله المنفقون، وأهل الكتاب من الضعف في القرآن وفي النبي ﷺ بسبب تركهم التوجه إلى بيت المقدس وصلاتهم نحو انست الحرام، فقال جل جلالته: ﴿سَيَقُولُ الْمُسْتَفْهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَهُمْ غِنًى فَبَلَّيْهِمُ لَنُبَيِّتَنَّهُمْ لَنَبْلُوَنَّ هَلْ يُؤْتُونَ الْبَرَكَاتِ أَمْ لَمْ يُؤْتُوا بَلَدًا كَذَبُوهَا كَذَبُوا بِذُنُوبِهِمْ لَنَنْصُرَنَّ اللَّهُ أَمْ لَمْ يَلْبَسُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّوْا يَأْتِيَكُمُ الْيَوْمَ أَمْطٌ غَيُّرٌ غَلِيظٌ مَلِيشٌ﴾ (البقرة: ١٧٢).

الحجة الرابعة: أن الله تعالى أمر المتوفى عنها زوجها بالاعتداد أربعة أشهر وعشرة أيام، بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (البقرة: ٢٣٤) الآية.

وقد نسخت هذه الآية بالحكم السابق وهو أن عدة المتوفى عنها زوجها حول كامل، بقوله سبحانه: ﴿وَبَيِّنَ لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْوُجُوهِ﴾ (البقرة: ٢٤٠)، وهذا أمر معلوم عند كل مسلم بأن حكم الاعتداد للوفاة حاكم كامل قد نسخ إلى أربعة أشهر وعشرة أيام.

وهكذا يظهر دليل الجمهور وضحا ساطعا كالشمس في رابعة النهار، حصول النسخ في الشريعة الإسلامية الغراء، ولا عورة يقول من أنكر النسخ لمعارضته للنصوص الصحيحة الصريحة.

كلام الإمام القرطبي في جماع الأحكام:

قال العلامة القرطبي في تفسيره: "معرفة هذا الباب أكيدة، وفائدته عظيمة، لا يستغني عن معرفته العلماء، ولا ينكره إلا الجهلة الأغبياء؛ لما يترتب عليه التوازل من الأحكام، ومعرفة الحلال والحرام، وقد أكرت طوائف من المتأخرين، المنتهين للإسلام جوارحه، وهم محجوجون

يأجماع السلف على وقوعه في الشريعة... ثم نحن نلجئ لا خلاف بين العلماء أن سرانج الأنبياء قصد بها مصالح الخلق الدنية والدنيوية. وإذا كان يلزم الداء - أي ظهور الحكمة بعد عفاها - لم يكن عائداً محالاً لأموار، وأما العالم بذلك فإنا نتبدل عطاياته بحسب تبدل انصالح، كالطبيب المراهي أحوال العلل، فرأى ذلك في حقيقته محسبته وإرادته، لا لأنه إلا هو، فحفظه يتبدل، وعلمه وإرادته لا تتغير، فإن ذلك محال في جهة الله تعالى".^{١١}

أقسام النسخ في القرآن الكريم:

ينقسم النسخ إلى ثلاثة أقسام:

الأول: نسخ التلاوة والحكم معاً.

الثاني: نسخ التلاوة مع بقاء الحكم.

الثالث: نسخ حكم مع بقاء التلاوة.

أما الأول: وهو "نسخ التلاوة والحكم"، فلا يجوز قراءته ولا العمل به؛ لأنه قد نسخ بالكيفية، كآية التحريم بعشر رصعات، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان فيما نزل من القرآن عشر رصعات معلومات بخبر من، فتمسح بخمس رصعات معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ، ومن فيما يقرأ من القرآن.^{١٢}

قال الثعبري: والجزء الأول منسوخ الحكم والتلاوة، والجزء الثاني وهو الخمس منسوخ التلاوة، باقى الحكم عند المتأخريين.

^{١١} انظر "مباح الأحكام" للإمام القرطبي: ٥٧٤، والشيخ زكريا يوسف كتاب معاد: "الإيمان والتلاوة"، ذكر فيه هذا حديثاً رواه عنه علي بن الحسين الذين "نكروا النسخ في القرآن بعد ديل وإبراهيم".

^{١٢} الحديث أخرجه مسلم في الرضا ع رقم: ١٤٥٩. وأبو داود، والترمذي، والبيهقي، ومعناه: أن النسخ خمس رصعات تأخر إزاله، حتى تولى رسول الله ﷺ وبعض الناس يقولون: لأنه لم يسه النسخ لغرب عهد.

وأما الثاني: وهو نسخ التلاوة وبقاء الحكم، فهو كما قال طرركشي في البرهان في علوم القرآن: "يعمل به إذا تلفته الأمة بالقول، كما روي في سورة النور" الشيخ واشيعة إذا رسا فارجموها ابنة نكلا من الله، والله عزيز حكيم"، قال عمر رضي الله عنه: "ولولا أن يقول الناس راد عمر في كتاب الله لكتبها يسي".^(١)

وأخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قال: "كانت سورة الأحزاب نوازي سورة النور - يعني في الطول -، ثم نسخت آيات منها".

وهذان النوعان "نسخ الحكم والتلاوة" و "نسخ التلاوة مع بقاء الحكم" قليل جدا في القرآن الكريم، ونادر أن نجد فيه مثل هذا النوع؛ لأن الله سبحانه أنزل كتابه الخبير ليتعبد الناس بتلاوته وينطبق أحكامه.

وأما الثالث: وهو "نسخ الحكم مع بقاء التلاوة"، فهو كثير في القرآن الكريم، وهو كما قال طرركشي: في ثلاث وستين سورة، ومن أمثلة هذا النوع آية الوصية للوالدين نسخت بآية الموارث، وآية العدة بحول كامل نسخت بآية العدة بأربعة أشهر وعشرة أيام، وآية القعدة في الصوم لنفاذ نسخت بآية وجوب الصوم، وتضمن الصدقة عدد متاجرة الرمنون والمكف، والكف عن قتال المشركين، كل ذلك نسخ بآيات في القرآن الكريم والاضحات الدلالة والحكم.

وقد ألف الشيخ هبة الله بن سلامة رسالة في "الناسخ والمنسوخ" جاء فيها ما نصه: "علم أن أول النسخ في الشريعة: أمر الصلاة، ثم أمر الغيبة، ثم الصيام ليوم عاشوراء، ثم الإعراس عن المشركين، ثم الأمر بجهادهم، ثم أمره بقتل المشركين، ثم أمره بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، ثم ما كان أهل العقود عليه من الموارث، ثم منه منار جاهلية؛ مثلا يخالفوا المسلمين في حجهم..." إلى آخر ذلك.

^(١) الحديث أخرجه ابن عثاري في صحيحه.

الحكمة من نسخ الحكم مع بقاء التلاوة؟

أما الحكمة من ذلك، فقد بيها العلامة الزركشي في كتابه "آثره في علوم القرآن"، فقال:
 "وهنا سؤال، وهو أن يسأل: ما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة؟ والجواب من وجهين:
 أحدهما: أن القرآن كما نطق به نبروه الحكم به، ولعل به، فإنه كذلك ينبغي؛ لكونه كلام
 الله عز وجل، مثبت على تلاوته، فترك التلاوة عند الحكمة.

والثاني: أن النسخ غالب يكون للتخفيف، فأبقيت التلاوة تذكير، بالصفة، ورفع المسئلة، حتى
 يذكّر المسلم نعمة الله عليه بتيسير الدين".^(١)

هل ينسخ القرآن بالسنة النبوية المظهرة؟

اتفق العلماء على أن القرآن ينسخ بالقرآن، وأن السنة النبوية تنسخ بالسنة، والخير المتواتر ينسخ
 بخلافه، ولكلهم احتموا في مسألة: وهي هل ينسخ القرآن بالسنة؟ والخير المتواتر بغير المتواتر؟
 فذهب المشعبي رحمه الله إلى أن النسخ للقرآن، لا بد أن يكون قرآن منه؛ فلا يجوز عنده نسخ
 القرآن بالسنة النبوية؛ لأنها ليست في درجة القرآن.

وذهب الجمهور إلى حواز نسخ لقرآن بالقرآن، وبالسنة المظهرة أيضا؛ لأن الكل حكم الله تعالى
 ومن عنده، والكنى بروحي من الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَبْصُقُ عَنِ السَّمَاءِ﴾، وإن هو إلا وخي يوحى
 بنسخه؛ وحجة الجمهور ما ورد من نسخ آية الوصية بنسخ: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعْطَى كُلَّ دِي حَقَّ
 حَقَّهُ، إِلَّا لَا وَصِيَّةَ لِلزَّوْرَاتِ﴾.

ونسخ حديث الزاني المحض في الآية الكريمة: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾
 (البقرة: ٢٢٠) حيث نسخ الجلد بالرجم، فقد رجم رسول الله ﷺ معز والغديبة، ولم يجلد واحدا منهما،
 يدل على أن الحكم وهو نخلد نسخ بالسنة المظهرة، وهذا القول هو الأشهر والأظهر،^(٢) والله اعلم.

^(١) انظر كتاب "آثره في علوم القرآن" للإمام الزركشي.

^(٢) انظر أدلة الجمهورين مفصلة في كتابنا "والم بيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن ١/١٠١.

هل يقع النسخ في الأخبار؟

جمهور العلماء على أن النسخ يختص بالأحكام، بالأوامر والنواهي، والخبر لا يدخله النسخ؛ لاستحالة الكذب في حبر الله تبارك وتعالى.

وقيل: إن الخبر إذا نصّ حكماً شرعياً حاز نسجه، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّجِيلِ وَالتَّعَابِثِ تَجِدُونَ مِنْهُ مِنْكَ آيَاتٌ وَرِزْقاً حَسَنًا﴾ (سحر: ٦٧)، فهنا خبر عن الخبر الذي يخرج من الثمر والعنب، وقد نسجه الله عز وجل بآية تحريم الخمر: ﴿إِنَّمَا لَكُمْ الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّعْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لَهُمْ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (مائدة: ٩٠).

يقول شيخ المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره "جامع البيان" ما نصه: ﴿وَمَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسَبَهَا نَسْبًا بَخِيرَ مِنْهَا أَوْ جُلِيَهَا﴾ «آية ١٠٦» أي: ما نزل من حكم آية إلى غيرها، فبدله وبغیره، وذلك أن محوّل إحلال حرام، والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً... ثم قال: ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي، والخطر والإطلاق. والنسخ والإباحة، فأما الأخبار فلا يكون فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ.^(١)

هذه لمحة خاطفة عن النسخ في الشريعة الإسلامية، وفي القرآن والسنة النبوية، ينبغي أن يلم بها طالب العلم، وأن يعرف حكمه الله عز وجل في تشريع الأحكام، وإنزال الآيات على هذا الوجه الدقيق، الذي حقق مصالح لعباده، وسائر تطور الزمن بواسطة النسخ والمنسوخ، أو جزاءه في هذه الحالة ﴿وَأَنَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ (الأعراب: ٤).

♦ ♦ ♦ ♦

^(١) انظر تفسير "جامع البيان" للطبري: ٤٠٧/١.

الفصل السادس:

جمع القرآن الكريم

جمع القرآن في عهد النبوة:

جمع القرآن الكريم في عهدين: عهد النبوة، وعهد الخلفاء الراشدين، وقد كان لكل جمع خصائصه ومزاياه. وكلمة "جمع" تطلق أحيانا ويراد منها حفظ والاستظهار في صدور الرجال، وتطلق تارة ويراد منها الكتابة والتسجيل في الصحف والأوراق.

وقد كان لجمع القرآن في عصر النبوة الأمران معا:

أولا: الجمع في الصدور عن طريق الحفظ والاستظهار.

ثانيا: الجمع في السطور عن طريق الكتابة والنقل.

ومستحدثت عن كلا الجمعين بشيء من التفصيل؛ ليشين لنا العناية الفائقة بالقرآن العظيم وكتابته وتدوينه، مما لم يستطع لكتاب سماوي أن نال من الرعاية والعناية والاهتمام كما ناله القرآن الكريم، كتاب الله المجيد، ومعجزة شمد الخالدة.

جمع القرآن في الصدور:

نزل القرآن الكريم على النبي الأمي، فكانت همته مصروفة إلى حفظه واستظهاره؛ ليحفظه كما نزل عليه، ثم يقرأه على الناس على مكث؛ ليحفظوه ويستظهروه ضرورة أنه نبي أمي، بعثه الله إلى العرب الأميين^(١): ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (البقرة: ١٢٩).

ومن شأل الأمي في العدة أن يعتمد على حافظته وذاكرته؛ لأنه لا يقرأ ولا يكتب، ولقد كانت الأمة العربية على عهد نزول القرآن، تتمتع بخصائص اعروبة الكاملة التي فيها قوة الذاكرة،

^(١) نظر "معان العرفان" لمروفي.

وسرعة الحفظ، وسبلان الأذهان. وكان العربي يحفظ مئات الآلاف من الأشعار، ويعرف الأحساب، والأنساب، فيستظهرها عن ظهر قلب، ويعرف التواريخ، وقال أن أخذ منهم من لا يعد لك الحسب والنسب، أو من لا يحفظ التعقيقات العشر^١ على كثرة أشعارها، وصعوبة حفظها، لم جاعهم القرآن الكريم، فيهرهم بقوه بيانه، وروعة أحكامه، وجلال سلطانه، فأخذ عليهم مشاعرهم، واستمدوا على عقوبتهم وأفكارهم، حتى صرفهم إلى الكتاب الغني، فيمدوا وحوهم نحوه، يحفظونه ويستظهرون آياته وسوره، وتركوا الشعراء لأهمل وجعلوا في القرآن روح أحياء.

ثم إنهم قد بلغ من حرصه الشديد على حفظ القرآن: أن نجى الليل بتلاوة آيات القرآن في الخلوة، عبادة وتذبرا لمعانيه، حتى سقطت قدماه الشريفتان من كثرة القيام امتثالاً لأمر الله العلي الكبير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُلُوبُكُمُ الرِّجَالُ لَا تَلْبِسُوا بُرُوقَكُمْ وَلَا تَبْسُطُوا أَرْجُلَكُمْ فِي مَسَاجِدِ اللَّهِ فَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَأَنْتُمْ أَعْيُنُكُمْ﴾ (الحج: ١١)، لذلك فلا عجب أن يكون ﷺ سببا لحفاظ، وأن يجمع القرآن في قبه الشريف، ويكون مرجع المسلمين في كل ما يعنيه من أمر القرآن لعظيم.

وأما الصحابة رضي الله عنهم فقد كانوا ينساقون إلى تلاوة القرآن ومدارسته، ويدخلون قصارى جهدهم لاستظهاره وحفظه. ويعتصمونه أزواجه وأولاده في البيوت، حتى لقد كان الذي يمر ببيوت الصحابة في عسق الدجى: يسمع فيها دوي النحل بالقرآن، حتى كان صلوات الله عليه يمر على بعض دور الأنصار، فيقف على بعضهم يستمع القرآن في طلام الليل.

أخرج البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال له: "لو رأيته البارحة وأما استمع لقراءته، لقد أعطيت مرمرا، من مزامير آل داود". وروى في رواية مسلم: فقلت: "لو علمت أن الله يا رسول الله! أنك تسمع نقراعي لحببته لك تحبها".^(١١)

وورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إني لأعرف أصوات رقة الأشعرين بالقرآن حين يدعون

بالليل، وأُعرف منازلهم من أصواتهم الليل بالقرآن، وإن كنت لم أر منازلهم بالنهار" (رواه الشيخ).
وقد اشتهر كثير من الصحابة بحفظ القرآن الكريم، وكان الرسول ﷺ يذكّر فيهم روح العناية بحفظ القرآن، ويحث إلى التّدقّق والتّقرّئ من يتعلّمهم ويقرّئهم، كما بعث قبل الفجرة مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة، يعلمهم الإسلام، ويقرّئهم القرآن، وكما بعث معاذ بن جبل إلى مكة للحفاظ والتّحفيظ والتّعليم بعد هجرته ﷺ.
قال عبادة بن الصّامت: "كان الرجل إذا هجر دمه النبي ﷺ إلى رجل من يعلمه القرآن، وكان يُسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجّة بتلاوة القرآن، حتى نمرهم رسول الله أن يحفظوا أصواتهم؛ لئلا يغفلوا".

ومن هنا كان حفاظ القرآن في حياة الرسول ﷺ لا يحدّد، ويكفي أن نعلم أن عدد الذين استشهدوا في "معركة اليمامة" يزيد عددهم على سبعين من كبار الحفاظ، كما قُتل مثل هذا العدد في عهد الرسول بئر معونة. قال القرطبي: قتل يوم اليمامة سبعون من القراء، وقُتل في عهد رسول الله بئر معونة مثل هذا العدد. أي أن عدد الذين استشهدوا من الخفظة ٦٤٠.
ولقد كانت أشرف خصوصية هذه الأمة المحمدية أن يكون هذا الكتاب، مقدّس محفوفاً في صدورهم، وأن تعتمد في نقله على حفظ القلوب والأصوّر، لا على كتابته في النّصاحف والأسطور، فحسب، بخلاف أهل الكتاب الذين لا تحدّ منهم من يحفظ التّوراة أو الإنجيل، وإنما يعتمدون في حفظهما على الكتب المسعرة، ولا يقرؤونه إلا نظراً، لا عن ظهر قلب، ولهذا دعى إليهما التحريف والتّبديل.

أم القرآن الكريم فقد حفظه الله بعينه الإلهية، وبسره للحفظ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (نمل ١٧)، وحضاه من التحريف والتّبديل بطريق حفظه في الأسطور، وحفظه في العبادور مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَن نَّحْنُ نَرَتِّبَ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (المزمل ٤٠)، وهذا بلا شكّ عناية من الله خاصة بهذا القرآن المجيد، وشرف عظيم احتضن الله به هذه الأمة المحمدية حيث

جعل أبا جهم في منصوره، وأُتِلَ عليه كتاب لا يفسه الماء، والله در القائل:
 الله أكدر إن دين محمد
 وكتابه أقوى وأقوى قِلاً
 لا تذكر الكتب السوء عند
 ضيق الصباح فأطفا القديلاً
 جمع القرآن في المنصور:

وأما الطريقة الثانية لجمع القرآن العظيم، فهو جمعه وكتابه في المصحف، فقد كان لرسول الله ﷺ كتاب للوحي، كلما نزل شيء من القرآن أمرهم بكتابته، مبالغة في تسجيله وتثيقه، وزيادة في التوثيق والتوسط، والاحتياط الشديد في كتاب الله عز وجل حتى نظام تلك الكتابة الحفظ، ويعاضد لتسجيل المنصور ما أودعه الله في منصوره.

وكان هؤلاء الكتاب من غيرة لصحابة: اختارهم رسول الله ﷺ من المجدين المتقين؛ ليؤمروا هذه المهمة العظيمة، وقد اشتهر منهم: زيد بن ثابت، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، ومعاوية بن أبي سفيان، والخلفاء الراشدون وغيرهم من الصحابة الأجلاء رضي الله عنهم.

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال: «جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة: كُتِبَ من الأضراس: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو ذر، رضي الله عنهم، قبل أنس؛ من أبو زيد؟ قال: أحد عمومي».

وهؤلاء هم مشاهير كتاب الوحي، وإلا فهناك من لصحبة أجمع الكبار الذين كانوا يكتبون القرآن، وكثير منهم كان له مصحف خاص كتب فيه ما سمعه أو حفظه من رسول الله ﷺ، كمصحف ابن مسعود، ومصحف علي، ومصحف عائشة، وغيرهم.

طريقة الكتابة:

وأما طريقة الكتابة: فقد كانوا يكتبون القرآن على العصب وسجاف والرقاع،^(١) وعظام

العصب: جمع عصب، هو جريد شجر، كانوا يكتبون الحروف، ويكون في لفه فافهم بعض العلماء جمع فيه، ضج اللام وسكون الهمزة، وهي المعجمة ثم بعد ذلك جمع رقه، وهي قد تكون من جلد أو ورق، أو غيرها من ثوبت لكتابة

الأكثاف وغيرها. ذلك؛ لأن صنع الورق لم يكن منتشرًا عند العرب، وقد كان عند بعض الأمم الآخرين كالعرب والروم، ولكنه كذلك كان نادرًا، فلم يكن منتشرًا، فكان العرب يكتبون على ما يقع تحت أيديهم مما يصلح للكتابة.

روى عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: "كنا عند رسول الله ﷺ فؤلف القرآن من الرقاع، أي نجمه، وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي ﷺ وأمر من الله تبارك وتعالى، ولهذا اتفق العلماء على أن جمع القرآن 'توقيفي'، يعني: أن ترتيبه بهذه الطريقة التي نراه عليها اليوم في المصاحف إنما هو بأمر ووحى من الله، فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان ينزل دالّة أو الأمانات على النبي، فيقول له: يا محمد! إن الله يأمرك أن تضعها على رأسك، من سورة كذا، وكذلك كان الرسول يقول للصحابه: ضعوها في موضع كذا.

جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه:

انتقل رسول الله ﷺ إلى حواره بعد أن أدى الرسالة، وبلغ الأمانة، ونصح الأمة، وهدى الناس إلى دين الله القويم، وتولى الخلافة بعده "أبو بكر الصديق" رضي الله عنه وأرضاه، وقد واجهته - في خلافته - خطوب حسيمة، وشدائد عظيمة، ومشاكل صعبة، منها حروب الردّة التي وقعت بين المسلمين وبين أتباع مبلغة الكذاب، وكانت معركة "البيضة" معركة حربية الوحشية، وقد استشهد فيها كثير من قراء الصحابة ومن حفظة القرآن، يزيد عددهم على سبعين من كبار الحفاظ. وقد حال ذلك المسلمين، وعزّ الأمر على عمر رضي الله عنه، فدخل على أبي بكر، فوجده في حزن وألم، فأشار عليه أن يجمع القرآن خشية الضياع بموت الحفاظ، فتردد أبو بكر أول الأمر، ثم رأى أن يأخذ بإشارة عمر بعد أن تبين له وجه المصلحة، وشرح الله صدره لذلك فعمل الجليل، فأرسل إلى زيد بن ثابت، وعرض عليه الأمر، وطلب منه أن يقوم بجمع القرآن في مصحف واحد، ولكن ريدًا تردد في بادئ الأمر، ثم شرح الله صدره للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر،

وفد روى البخاري في صحيحه قصة هذا الجمع بتفصيلها لأهميتها:

رواية البخاري:

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: "أرسل إلي أبو بكر رضي الله عنه مقتل أهل البصرة - أي عقب استشهاد الحفاظ المسلمين في معركة البصرة - فإذ عمر حائس عنده، فقال أبو بكر: إن عمر جاءني، فقال: إن القتل قد استحر - أي بكر واشتد - يوم البصرة بقرآن القرآن، وبني أعشى أن يستمر القتل بالقرآن في كل المواطن، فيذهب من القرآن كثير، وبني أرى أن تأمر جمع القرآن، فقلت: وكيف أفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر رضي الله عنه: هو والله خير، فأم يزل يراجعني في ذلك حتى شرح الله صدري للذي شرح الله به صدر عمر، ورأيت في ذلك الذي رأي.

قال زيد: فقال أبو بكر: إني رجل شاب عاقل، لا تفهمك، قد كنت نكبت الوحي لرسول الله ﷺ فتبّع القرآن وجمعه، قال زيد: فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به، فقلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتبعت القرآن جمعه من اللحن والعيب، وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي حذيفة الأنصاري رضي الله عنه أحدهما عند أحد غيره ﴿لَقَدْ خَلَقَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ ﴿وَمُوزَنُ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ رواه (١٢٩: ١٢٨٤) أي إلى آخر السورة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله تعالى، ثم عند عمر حتى توفاه الله تعالى، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها «رواه البخاري». فهذه الرواية دلت على سب جمع القرآن.

تساؤلات حول جمع القرآن؟

وهنا أسئلة ينبغي الإجابة عليها بشيء من التفصيل، ونحن نوزعها فيما يلي:

أولاً: لماذا تردد أبو بكر عن جمع القرآن مع أنه شيء حسن، وأمر بوجبه الإسلام؟
والجواب عن ذلك: أن أبا بكر عليه عشي أن يساهل الناس في استظهار القرآن وحفظه غيباً،
ويعتمدوا على وحده في مصاحف، فتضعف نفوسهم عن الحفظ، وتصبح رعبتهم صحيحة في
حفظه واستظهاره اعتماداً على أنه مسطرٌ وموجود في مصاحف مكتوبة يمكنهم قراءة القرآن بها.
أما قبل أن توجد المصاحف، فقد كان الجميع يسعون جهدهم لحفظ القرآن، هذا من ناحية، ومن
ناحية أخرى: فإن أبا بكر الصديق كان رجلاً وفياً عند حدود الشرع، مقتنياً لأثار الرسول ﷺ،
فقد عشي أن يكون بعمله هذا مبتدعاً شيئاً لا يحبه رسول الله، وهذا قال لعمر: "كيف أعمل شيئاً
لم يفعله رسول الله؟" ونعمه كان يخاف أن يسوقه الإنساء والاختراع إلى الوقوع في المخالفة
والإتضاع، ولكنه لما رأى الأمر خطيراً، والمكربة - في حذائها - وسيلة من أعظم الوسائل لحفظ
الكتاب الشريف، والمحافظة عليه من الضياع والتخريف، وأيقن أنها ليست من الأمور الخارجة، ولا
من البدع المستحدثة، عزم على جمع القرآن، وظل يفتن زينة بذلك حتى شرح الله صدره، فقام
بتففيذ ذلك الأمر الخطير، والله أعلم.

ثانياً: لماذا اختار أبو بكر زيد بن ثابت من بين الصحابة الكرام لهذا العمل الجليل؟
والجواب عن ذلك: أن زيدا عليه قد اجتمع فيه من المزايا العظيمة التي تؤهله لجمع القرآن
ما لم يجتمع في غيره من الرجال؛ إذ كان من حفاظ القرآن، ومن كتاب الوحي لرسول الله،
وشهد "العرضة الأخيرة" للقرآن في ختام حياته ﷺ، وكان فوياً ذلك معروفًا بشارة ورعه،
وعظم أمانته، وكمال خلقه، واستقامة دينه، وكان معروفًا بالنبوغ والذكاء، وهذا ما أشار إليه
كلام أبي بكر في رواية البخاري حين استدعاه، وقال له: "بئس رجل شاب عاقل لا تهلك،
كنت نكتب الوحي لرسول الله".

فهذه الخصائل والزيات الحميدة، حثره أبو بكر الصديق لجمع القرآن، وهذا يدل على شدة ورع زيد
ابن ثابت أنه قال: "والله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به". الحديث

ثالثاً: ما هو المقصود من قول زيد بن عثمة في رواية البحاري: "حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي حزيمة عندهم أحدهما عند غيره؟"

والجواب عن ذلك: أن زيدا عنده لم يجد هذه الآيات مكتوبة عند أحد من الصحابة، إلا عند أبي حزيمة الأنصاري، وليس المراد أنه لم تكن محفوظة؛ إذ أن زيدا نفسه كان يحفظها، وكان كثير من الصحابة يحفظونها، ولكنه أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة، كما ينبغي أن شاء الله زيادة في ثبوتها، ومساعدة في الاحتياط، وعلى ذلك النهج الرشيد تم جمع القرآن.

المخططة الرشيدة في جمع القرآن:

وقد انتهج زيد بن ثابت عثمة في جمع القرآن مخططة رشيدة في غاية الدقة والإحكام، فهي ضمان لحفاظة هذا الكتاب المجيد بما يليق به من ثبت بالغ، وحذر دقيق، عزم يكتف عما حفظ في قلعه ولا بما كتب بعده، ولا بما سمع مألوفه، بل جعل يتبع ويستقصي أحداً نفسه أن يعتمد في جمع القرآن على مصدرين اثنين:

أ- ما كان محفوظاً في صدور الرجال.

ب- ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ.

فلا بد أن يتضافر الأمران "الحفظ، والكتابة"، وبإع من شدة حرصه واحتياطه أنه كان لا يقبل شيئاً من المكتوب، حتى يشهد شاهداً عدلين أنه كتب بين يدي رسول الله ﷺ بذل عليه الحديث الذي رواه أبو داود في سننه قال: "قدم عمر، فقال: من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن، فليأت به، وكثروا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب: وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهداً".

وبدل عليه كذلك ما رواه أبو داود أيضاً أن أبا بكر عثمة قال لعمر وزيد: "أقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتاباه".

قال ابن حجر: المراد بالشاهدين: الحفظ، والكتابة. وقال السخاوي: المراد قعما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ، وذلك غاية في التثبت والدقة والإحكام من الصديق عليه السلام، رأسه منها يزيد بن ثابت عليه السلام.

مزايها مصحف أبي بكر الصديق عليه السلام:

لنشرت الصحف التي جمعت في عهد أبي بكر الصديق في "مصحف واحد" بعلة مزايها، أهمها:
أولاً: التحري الدقيق للناس، والتثبت للكمال.

ثانياً: لم يسجل في المصحف إلا ما ثبت عدم نسخ تلاوته.

ثالثاً: إجماع الأمة عليه، وتواتر ما سجل فيه من الآيات القرآنية.

رابعاً: شمول المصحف للقراءات يلهمون بالثناء العاطر على أبي بكر الصديق حيث حفظ القرآن الكريم من الضياع، وذلك شوق من الله عز وجل، ومدد من عنده.
وقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: "أعظم الناس في المصحف أحراً أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله".

ولقد أصبح جمع القرآن منقبة عائدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل والثناء العاطر لأبي بكر في تشجيعه والإشراف، ولزيد بن ثابت في التنفيذ والعمل عليه.

وجمع القرآن في مصحف واحد في عهد أبي بكر لا يعني أن الصحابة عليه السلام لم يكن لديهم مصاحف كتبوا فيها القرآن من قبل، فإن ذلك لا ينافي أن يكون لبعض الصحابة مصحف خاص، ولكن هذه المصاحف لم تظفر بما خفف به مصحف أبي بكر من دقة البحث والتحري، ولاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته، ومن بلوغه حد التواتر، ومن إجماع الأمة عليه، ومن شموله للأحرف السبعة "القراءات السبع" كما تقدم.

فهذا علي عليه السلام كان له مصحف خاص كسبه في بدء خلافة أبي بكر، وعزم ألا يخرج إلا للصلاة

حتى ينتهي من كتابه. وروى السيوطي عن محمد بن سيرين عن عكرمة أنه قال: لما كان بدء جلالة أبي بكر، قدم علي بن أبي طالب في بيته، فقبل لأبي بكر: فدكره ببعثك، فأرسل إليه فقال: أكرهت يعني؟ فقال: رأيت كتاب الله يزداد فيه، فحدثت نفسي ألا ألبس ردائي إلا لصلاة حتى أجمعه. قال له أبو بكر: فإنتك نعم ما رأيت،^(١) فقد كان له مصحف، ولكنه كما يروى عن ابن سيرين كان فيه التامخ والمنسوخ، فلم يكن مثل مصحف أبي بكر.

لماذا لم يجمع القرآن في مصحف واحد:

ونساءل هنا:

لماذا لم يجمع القرآن الكريم في مصحف واحد في زمن النبي ﷺ؟

والجواب عن ذلك:

أولاً: إن القرآن لم ينزل مرة واحدة، وإنما نزل مفزعة، ولا يمكن جمعه قبل أن يتكامل النزول.

ثانياً: إن بعض الآيات كانت تُنسخ، وإذا كان القرآن عرضة للنسخ، فكيف يمكن أن يجمع في مصحف واحد؟

ثالثاً: إن ترتيب الآيات والسور لم يكن على حسب النزول، فقد تنزل بعض الآيات في أواخر الوحي، بينما يكون ترتيبها في أوائل السور الكريمة، وهذا يقتضي تغيير المخطوط.

رابعاً: كانت المدة بين نزول آخر ما نزل، وبين وفاته ﷺ قصيرة جداً، وقد تقدم في الفصل الأول أن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٨١) وقد انتقل رسول الله إلى جوار ربه بعد نزولها بتسع ليالٍ، فالمدة إذا قصيرة، ولا يمكن جمعه قبل تكامل النزول.

خامساً: لم يوجد من دواعي الجمع في مصحف واحد، مثل ما وجد في عهد أبي بكر، فقد كان المسلمون بخير، والقراء كثيرون، والفئة مأمورة، بخلاف ما حصل في عهد أبي بكر.

^(١) انظر كتاب "الإيمان" للسيوطي.

من مفضل الحفاظ، حتى حالف علي ضياح القرآن.

والخلاصة: إن القرآن أو جمع في مصحف واحد، والحال على ما ذكرنا لكان القرآن عرضة للتغيير والتبديل كما وقع نسخ، أو حدث سبب مع أن أدوات الكتابة لم تكن ميسورة، والظروف لا تساعد على ترك المصحف القديم، والاعتماد على المصحف الجديد؛ لأنه لا يمكن أن يكون في كل شهر أو يوم مصحف يجمع كل ما نزل من القرآن، ولكن لما استقر الأمر ختام التنزيل، ووفاء الرسول، وأمين النسخ، وعُرف الترتيب أمكن جمعه في مصحف واحد، وهذا ما فعله الخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وجزاه عن القرآن والمسلمين خير الجزاء.

جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه:

أما جمع القرآن في عهد عثمان، فقد كان له سبب آخر غير السبب الذي حدث في عهد أبي بكر، فقد اتسعت الفتوحات الإسلامية في عهد عثمان، وتفرق المسلمون في الأقطار والأمصار، واشتهر في كل بلد من البلاد الإسلامية قراءة النصحي الذي علمهم القرآن، فأعلن كُتُبهم كانوا يقرؤون بقراءة "أبي بن كعب" رضي الله عنه، وأهل الكوفة كانوا يقرؤون بقراءة "عبد الله بن مسعود" رضي الله عنه، وغيرهم كان يقرأ بقراءة "أبي موسى الأشعري" رضي الله عنه.

فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء، ووجه القراءات، حتى كان الأمر يصل إلى النزاع والشقاق بينهم، وكاد بعضهم يكفر بعضا بسبب اختلاف القراءة.

روي عن أبي قلابة أنه قال: "إذا كانت خلافة عثمان، جعل المعصم - القرئ - يعلم قراءة الرجز، وأعلم يعلم قراءة الرجز، فجعل العلماء يلتفتون فيحتلفون، حتى ارتفع إلى المعلمين، حتى كفر بعضهم بعضا، فبلغ ذلك عثمان، فاحتجب فقال: "أنتم عدي تخطفون، فمن يأى - أي بعد - عني من الأمصار فهم أخذ اختلافاً".

لهذه الأسباب والأحداث رأى عثمان شاقب رأيه، وحصاد نظره، أن يتدارك الخرق قبل أن

يسح علي الرافع، وأن يتأصل الداء قبل أن يصبب الدواء. فجمع أعلام الصحابة، ورجال الرأي والبصر فيهم، واستشارهم في علاج تلك الفتنة، وعلاج ذلك الاختلاف، فأجمعوا أمرهم على أن يستسخ أمير المؤمنين مصاحف عديدة، ويبعث إلى كل بلد أو مصر بمصحف منها، وأن يأمر الناس بإحراق كل ما عداها، حتى لا يبقى شئ طريق للنزاع والاختلاف في وجوه القراءة، فشرع - عليه السلام - بتنفيذ هذا القرار الحكيم، فعهد إلى أربعة من حيرة الصحابة وثقات الحفاظ وهم: يزيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن هشام، وقد كانوا جميعاً من قريش من المهاجرين إلا يزيد بن ثابت، فقد كان من الأنصار، وكان هذا العمل الجليل سنة "٣٤" هجرية. وقال هؤلاء: إذا احتفتكم في شيء من وجوه القراءة، فاكتبوه بلسان قريش، فإن القرآن نزل بلغتهم.

وطسب عثمان من حفصة بنت عمر أن تعطيه المصحف الذي كان عنده، والذي جمعه أبو بكر، لينسخ منه عدة نسخ ثم يبعده إليهم؛ ففعلت.

سبب جمع عثمان للقرآن الكريم:

روى البخاري عن أنس بن مالك أنه قال:

"إن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغاري أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفرح حذيفة اختلاطهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين! أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إتي بالمصحف فنسخها في مصاحف، ثم ردها إليك، فأرسلت لها حفصة أن عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإني نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا المصحف

في المعامد رد عثمان المصحف إلى حفصه، وأرسل إلى كل لقب بمصحف، مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق^(١).

الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان رضي الله عنهما:

ونستطيع كما سبق أن نعرف لفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان، وهو أن الجمع في عهد أبي بكر إنما كان عبارة عن نقل القرآن وكتابته في مصحف واحد مرتب الآيات، جمعه في المخاف والمسب والرفاع، وكان سبب الجمع موت الحفاظ، وأما جمع عثمان فقد كان عبارة عن نسخ عدة نسخ من المصحف الذي جمع في عهد أبي بكر؛ لترسل إلى الأفاق الإسلامية، وكان سبب الجمع إنما هم اختلاف القراء في قراءة القرآن، والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

♦ ♦ ♦ ♦

^(١) طبري صحيح البخاري في جمع القرآن.

الفصل السابع:

التفسير والمفسرون

أمر الله كتابه العظيم؛ ليكون دستوراً للمسيحيين، ومنهاجاً يسرون عليه في حياتهم، فيستضيئون بضلالتهم، ويهتدون بهديه، ويتفسيرون من تعاليمه الرشيده، وتضمنه الحكيمه ما يجعلهم في أوج السعادة والنعمة، ويرجع همه إلى تربية القوم والكمال، ويؤهلهم إلى قيادة ركب الإنسانية، ويجمعهم السادة والمفداة في هذه الحياة، يسرون بالأمن إلى حياة النعمة والكرامة، ويوصلهم إلى شاطئ الأمن والاستقرار والسلام.

ولا يجب أن النشئة تختلط اليوم في طنعت الشكوك، واختلافهم وتفرق في جدار التحلل وإعادة البناء، وليس لنا من مثق إلا الإسلام عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن وعلومه الحكيمه التي روعيت فيها جميع عناصر السعادة لخلق البشري على ما أحاط به علم الخالق الحكيم.

ومن الندهي أن العمل لهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن وتفسيره، والوقوف على ما حوى من صريح ورؤى، وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان؛ ما تدل عليه آيات القرآن، وهو ما نسميه "تفسير" خصوصاً في هذه العصور الأخيرة التي فسدت فيها ملكة البصيرة العربي، وضاعت فيها خصائص العروبة حتى من سلائل العرب أنفسهم.

والله سبحانه هو المدخ هذه الكنوز والمخازن التي احتوتها هذه الكتاب العجيب، ونوره لا يمكن الوصول إلى هذه الكنوز والدخائل، والآلاء والمخازن، مهما بلغ الناس في ترويض ألسنتهم لقرآن، وفروا آياته في كل صياح ومساء.

وإنه لمن المؤسف أن يكتفي المسلمون من الله بأن يلقوا برددوهم، وأنهم يلقونها في فناء وانقراض، وعند الاحتفالات، الترمية؛ ثم لا يكون للقرآن سبب مهم إلا الخطب، والسماع أو التردد بالذمة، وهذا ما عاهد الله أن يكون ^{بقرآن} يقول: 'يحدثون القرآن مراهم'

وقد نسي المسلمون أو تناسوا أن بركة القرآن العظمى إنما هي في تدبره وفهمه، وفي الاحتذاء بهديه، والاستفادة من تعاليمه وتوجيهاته، ثم الوقوف عند أزمته ومراضيه، والبعث عن مساحطه ونواحيه. والله تعالى يقول: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩)، ويقول سبحانه: ﴿فَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (ص: ٢٤)، ويقول جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِيرٍ﴾ (قمر: ١٧).

فما أشبه المسلم اليوم بالرجل العطشان يموت من العطش والماء بين يديه! أو بالحيوان يهلك من الجوع والعطش والزاد والماء على ظهره.

وما أجمل قول الثعالب:

كأنبيس في أنبيد، يقتلها الظما
وناء فوق ظهروها محمول

ولقد صدق رسول الله ﷺ حين قال: "لقد تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسك بهما بعدي أبدا، كتاب الله، وسنتي."^(١)

لماذا نفسير القرآن:

أسئلة تخطر ببال كل إنسان، وتحوّل في كل فكر: لماذا نفسير القرآن؟ لتسهيل قراءته وتفهّم تلاوته؟ ثم لتزيل الستر عن غامض معانيه؟ أم لتجلبو أسرارها، ونررّ غمضه؟

لا... لا... ليس لهذا، ولا لذلك فقط! بل لتتحرر من عبادة العباد، وتبعية البشر إلى عبادة رب العباد جل وعلا، وتزيط الفرد والجماعة بحالق العوالم، ومدبر الكون، رب السموات العلوي، ورب العرش العظيم. فالتقرآن الكريم دستور الأمة، وهداية الخائف، وشرعة الله لأهل الأرض، وهو النور الرباني، والهدي السماوي، والتشريع العام الخالد، الذي تكفل بكل ما يحتاج إليه البشر في أمور دينهم ودنياهم.

(١) الحديث: رواه أصحاب السنن

ولا عجب! فهو كتاب كامل، ونظام شامل، يشمل جوانب الحياة بأكملها، في العقائد، والعبادات، والأخلاق، والمعاملات، وفي السياسة والحكم، وفي السلم والحرب، وفي الشؤون الاقتصادية والعلاقات الدولية.

فهو كتاب جامع أنزله الله تبارك وتعالى لكل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، وهو في ذلك كله حكيم كل الحكمة، لا يهترى به خلل ولا اختلاف، فلا عجب إن كانت المساعدة لا تنال إلا بهديه، والبرام ما جاء به، فهو شفاء لنا في الصلوات، وعلاج لما حل أو يحل بالاجتماع من ضرور: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِعَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَجْزِيكَ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (١٦٠: سورة النحل: ٨٢).

الفرق بين التفسير والتأويل:

التفسير في اللغة: هو الإيضاح والتبيين، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان: ٣٤).

فقلنا: فسر: بمعنى بين ووضح، وكلام مفسر: أي واضح ظاهر. وأما التفسير في الاصطلاح: فهو علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه،^(١) وعرفه غيره بأنه "علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث ذلك على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية".^(٢)

معنى التأويل:

وأما التأويل، فهو لغة من الأول، بمعنى الرجوع، فكان المفسر أرجع الآية إلى ما يحتمل من المعاني. ويرى بعض العلماء أن التأويل مرادف للتفسير حتى قال صاحب القاموس: أول للكلام تأويلاً وتأويله بمعنى دبره وقلبه وفسره، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنشَاءً فَتَنَاءً فَأُولَٰئِكَ﴾ (آل عمران: ٦١).

^(١) التعريف لنزركسي من "كتاب الرهان" ص: ١٢.

^(٢) "سماح الرهان للزركاني".

أما في الاصطلاح: فهو عند المتقدمين بمعنى التفسير، فيقال: تفسير القرآن، ويقال: تأويل القرآن، بمعنى واحد.

قال ابن جرير الطبري في تفسيره: "انقول في تأويل قوله تعالى كذا...، واختلف أهل التأويل في هذه الآية"، يريد بذلك أهل التفسير.

وقال مجاهد: إن العلماء يعلمون تأويله - يعني القرآن - ويريد تفسير معناه.

ودفع فريق من العلماء إلى أن بين التفسير والتأويل فرقاً جلياً، وقد اشتهر هذا عند المتأخرين. لتفسير: هو المعنى الظاهر من الآية الكريمة.

وأما التأويل: فهو ترجيح بعض المعاني الخسلة من الآية الكريمة التي تحتمل عدة معان.

وقد أفاض العلامة السيوطي في كتابه "الإنقاذ في علوم القرآن" في هذا البحث، ونقل نقولاً كثيرة عن الثعلب، يكتفي بأجمعها، وأقرها إلى الصواب، وهو أن نقول "بأن التفسير هو كشف معاني القرآن الظاهرة، والتأويل ما استنبطه العلماء العارفون من المعاني الخفية والأسرار الربانية اللطيفة التي تحتملها الآية الكريمة".

هذا الذي اخترناه هو الذي ذهب إليه الألويسي رحمه الله حيث قال: قد تعرف عن المؤلفين من غير كثير أن للتأويل معان فاسية، ومعارف ربانية، تهول من سحب الغيب على قلوب العارفين، والتفسير غير ذلك.

وبالخلاصة: أن التفسير هو المعاني الظاهرة من القرآن الكريم التي هي واضحة الدلالة على المعنى المراد لله عز وجل.

والتأويل: هو المعاني الخفية التي تستنبط من آيات الكريمة، والتي تحتاج إلى تأمل وتفكر واستنباط، والتي تحتمل عدة معان، فيرجح المعسرُ منها ما كان أقوى عن طريق النظر والاستدلال، وليس هذا الترجيح بقطعي، بل هو ترجيح للأظهر والأقوى؛ إذ الحكم بأنه المراد القطعي عنكم في كتاب الله، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٧)، والله أعلم.

أقسام التفسير :

يقسم التفسير حسب - الاصطلاح العلمي الدقيق إلى ثلاثة أقسام :

أولاً: التفسير بالرواية، وهذا الذي يسمى التفسير بالنقل، أو التفسير بالمأثور.

ثانياً: التفسير بالتحريظ، وهذا الذي يسمى التفسير بالرأي.

ثالثاً: التفسير بالإشارة، وهو الذي يسميه العلماء: التفسير بالإشارة.

وستحدث عن كل قسم من هذه الأقسام بالتفصيل - إن شاء الله تعالى - ورضح السليم من السليم.

القسم الأول

التفسير بالرواية "المأثور":

هو ما جاء في القرآن، أو السنة، أو كلام الصحابة بيانا لمراد الله تعالى، فانفسر المأثور إما أن يكون تفسير القرآن بالقرآن، أو تفسير القرآن بالسنة النبوية، أو تفسير القرآن بالمأثور عن الصحابة.

١- مثال ما جاء تفسيره في القرآن الكريم

قوله تعالى: ﴿وَأُجِيبَتْ لَكُمْ نَهْمُهُمُ الْإِنْعَامُ إِلَّا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ﴾ (النمل:١)، فقد جاء تفسير قوله: ﴿إِلَّا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ﴾ في آية كريمة أخرى، هي قوله تعالى: ﴿وَحَرَّجْتُ عَلَيْكُمُ الْمِثْقَةَ وَالْمِثْمَ وَالْجَنِّيرَ وَمَا أَجَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ (الصافات:٣).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ (الطارق:١)، جاء تفسير الطارق في نفس السورة: ﴿وَلِجَنِّ النَّاقِثِ﴾ (الطارق:٣)، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَنَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة:٣٧)، جاء تفسير الكلمات التي تلقاها آدم في موطن آخر من القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿فَقَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف:٢٣).

ومن الأمثلة أيضا عني تفسير القرآن بالقرآن، قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ (الدخان:٣)، جاء تفسير الليلة المباركة بأنها "ليلة القدر" في قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر:١) إلى آخر ما هنالك.

٢- مثال ما جاء في السنة للتظهير تفسيراً وشرحاً للقرآن:

به عليه السلام لفسر الظلم بالشرك في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الحجرات:٨٦)، وأيد تفسيره هذا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (نساء:١٣٠)، وفسر عليه السلام الحساب التيسير بـ "العرض"، أي: عرض الأعمال على المؤمنين وذكره بما فقط،

وذلك حين قال: "من نوقش الحساب عذب"، فقالت السيدة عائشة له: يا رسول الله أوليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِرِسَالَةٍ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ إِلَى أَهْلِهِ مُسْرُورًا﴾ (الانشقاق: ٧-٩).

فقال ﷺ: "ذلك المرمى - يانا الحساب اليسر - وأما من نوقش الحساب عذب"، وكفسيره ﷺ: الصلاة الوسطى في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ (بقره: ٢٣٨) بأنها صلاة العصر، وتفسير ﴿الْمُحْصُونَ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الدفعه: ٧) في سورة الفاتحة باليهود، والنصارى.

ومن الأمثلة أيضا على تفسير النبي ﷺ للآيات الكريمة، تفسيره الزيادة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخُسَىٰ وَزَيْدًا﴾ (يوس: ٢٦). وقد فسرها بأنها النظر إلى وجه الله الكريم، وكفسيره ﷺ: القوة، بالرسم في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَغْنَوْا مِنْ قُوَّةٍ﴾ (العدل: ٦٠)، فقد قال ﷺ: 'ألا! إن القوة الرمي، ألا! إن القوة الرمي'.

وكفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ (هروله: ٤)، قال ﷺ: "أنسبون ما أعبأها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أن تشهد على كل عبد أو ممة بما عمل على ظهرها، تقول: عملت يوم كذا، كذا وكذا".

وأمدل هذه التفاسير كثيرة، وقد جمع السيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" طائفة كبيرة من التفاسير النبوية، فليراجع إليه.

وكلا هذين القسمين "تفسير القرآن بالقرآن"، وتفسير "القرآن بالسنة" لا شك في أنه أعلى أنواع التفسير، ولا شك في قبوله، أما الأول فلأن الله تعالى أعلم بمفراد نفسه من غيره، وكتاب الله تعالى أصدق الحديث؛ لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأما الثاني فلأن الرسول ﷺ قد بين الله مهيته في القرآن، وذكر أنها مهمة لتوضيح والبيان: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٢٤)، فما جاء عن رسول الله ﷺ من شرح أو بيان يسند

صحيح ثابت، فإنه لما لاشت في أنه حق يجب اعتناؤه.

٣- بقي القسم ثالث من أقسام التفسير بالمأثور، ألا وهو "تفسير الصحابة"، فإنه أيضاً من التفسير المعتمد المقبول؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم قد اجتمعوا بالرسول ﷺ، وبلغوا من معية الصالحين، وشاهدوا لرحمى والتنزيل، وعرفوا أسباب النزول، ولهم من صفاء نفوسهم، وسلامة عطرهم، وعلو منزلتهم في الفصاحة والبيان، ما يؤهلهم من الفهم الصحيح لتسايم لكلام الله، وما يحصمهم بتركول أسرار هذا القرآن أكثر من أي إنسان.

قال الخازن: "إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل له حكم المرفوع"، ومعنى هذا أن تفسير الصحابي له حكم الحديث النبوي الذي رفع إلى النبي ﷺ، فهو إذاً من المأثور. وما الشعبي: فقد خالف في تفسيره، فذهب بعض العلماء إلى أنه من المأثور؛ لأنه تلقاه من صحابة غائباء ومنهم من قال: إنه من التفسير بالرأي، أي: له حكم بقية التفسيرين؛ الذين فسروا حسب قواعده اللغة العربية دون التزام بالمأثور.

ملاحظة: التفسير بالمأثور من أحوال أنواع التفسير إذا صح سنده إلى الرسول ﷺ، أو إلى الصحابة رضي الله عنهم، وينبغي التثبت من الرواية عند ذكر التفسير بالمأثور، فالاحفظ ابن كثير رحمه الله: إن أكثر تفسير المأثور قد سري إلى الرواة من رداقة اليهود والفرس، ومنسمة أهل الكتاب، وحل ذلك في فصول الرمل مع أقوامهم، وما يتعلق بكتبهم ومعزاتهم، وفي تاريخ غيرهم كأصحاب الكهف... إلخ، فينبغي إذاً التثبت من الرواية.

أسباب ضعف الرواية بالمأثور:

ذكرنا فيما تقدم أن تفسير بعض القرآن ببعض، وتفسير القرآن بالسنة الصحيحة المرفوعة إلى النبي ﷺ لا شك في قبوله، ولا خلاف في أنه من أعلى مراتب التفسير، وأما تفسير القرآن بالمأثور مأثور عن الصحابة والتابعين، فإنه ينطرق إليه الضعف من وجوه:

أولاً: اختلاط الصحيح بغير الصحيح، ونقل كثير من الأقوال المنسوبة إلى الصحابة أو التابعين من غير إسناد ولا ثبت مما أدى إلى التباس الحق بالباطل.

ثانياً: أن تلك الروايات مليحة "بالإسرائيليات"، ومنها كثير من المفردات التي تصادم العقيدة الإسلامية، والتي قام الدليل على بطلانها، وهي مما دخل على المسلمين من أهل الكتاب.

ثالثاً: أن بعض أصحاب المذاهب المتطرفة تفقروا أقوالاً، وصنعوا أباطيل نسبوها إلى بعض الصحابة مثل الشيعة شيعة علي المتطرفين، نسبوا إليه ما هو منه بريء، ومثل أولئك المتزلفين للعباسيين، نسبوا إلى ابن عباس ما لم يصح نسبته إليه، فملقوا للحكام.

رابعاً: أن بعض الزنادقة من أعداء الإسلام دسوا على الصحابة والتابعين كما دسوا على رسول الله ﷺ في الأحاديث النبوية، وفلك بغرض مدم للدين عن طريق النس والوضع، فمن هذه الخاتمة ينفي الاحتيال والثبت والحذر من الأقوال التي تنسب إلى الصحابة الكرام أو التابعين.^(١)

رأي الزرقاني في مناهل العرفان:

وقد ذكر الأستاذ الزرقاني في كتابه "مناهل العرفان" كلاماً حسناً حول التفسير بالمأثور، بعد أن ذكر نقولاً عن الإمام أحمد رحمه الله، وعن ابن تيمية رحمه الله، فقال:

وكلمة الإنصاف في هذا الموضوع: أن للتفسير بالمأثور نوعان:

أحدهما: ما توافرت الأدلة على صحته وقبوله، وهذا لا يليق بأحد رده، ولا يجوز إهماله وإهماله، ولا يحمل أن تعثره من الصورارف عن هدي القرآن، بل هو على العكس عامل من أقوى العوامل على الاهتمام بالقرآن.

ثانيهما: ما لم يصح نسب من الأسباب الأتفة أو غيرها، وهذا يجب رده، ولا يجوز قبوله ولا الاشتغال به، ولا يزال كثير من أبقاط للمفسرين كالمين كثير يتحرون الصحة فيما ينقلون، ويؤثرون ما هو باطل أو ضعيف.

^(١) انظر كتاب "مناهل العرفان" للزرقاني.

أشهر المفسرين من الصحابة:

قال اسوطي في "الإتقان": "أشهر مائتفسر من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة. وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري. وعنه عبد بن الزبير رحمهم. أما الخلفاء فأكثر من روي عنه: فهم علي بن أبي طالب "كره الله وجهه"، وأبو بكر، وأبو العباس، فكان السبب في ذلك تقدم وفاتهم.

وأما السبب في قوة الرواية عن الثلاثة "أبي بكر، وعمر، وعثمان"، فإنه يرجع كما أنه إلى تسوي في عصر مدة خلافاتهم، وتقدم وفاتهم، ومن ناحية أخرى فإنهم قد عاشوا في وسط أغلب أهله كانوا، علماء بكاتب الله؛ لأهم صاحبوا الرسول ﷺ فكانوا وفقيين على ممر من السرايل، عذرا في معاليه وأحكامه، أما علي عليه السلام فقد عاش بعد الخلفاء الثلاثة في وقت اتسعت فيه رفعة الإسلام، ودخل كثير من العلم في الدين الجديد، ونشأ حل من أبناء الصحابة كانوا بحاجة إلى دراسة القرآن، وتفهم أسراره وحكمه، ولذلك اشتهرت الرواية عنه أكثر من بقية الخلفاء الراشدين، وستكلم بشيء من تفصيل عن بعض هؤلاء الصحابة الذين اشتهروا بتفسير القرآن.

عبد الله بن عباس رضي الله عنه:

عبد الله بن عباس رضي الله عنه حرم هذه الأمة، وهو ابن عم رسول الله ﷺ الذي دعا له الرسول الكريم بقوله: "إنهم فقهاء في الدين وعلمه التأويل"، وهو المسمى بـ "ترجمان القرآن"، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "يجمع ترجمان القرآن عبد الله بن عباس". كان أعلم الصحابة بتفسير القرآن الكريم، وقد شهد به الفضل - وهو شاب في غضون النصارى - كبار الصحابة، حتى كان يناقشهم، ويتنازع إصباحهم مع حذرة سنة، وكان عمر رضي الله عنه يدخله إلى مجلس المشورة مع كبار الصحابة الأجلاء يستشرونهم، وربما عرض الأمر عليه، وكان تغدير عمر لأبي عبد الله مثل جليل عبد بعض الصحابة، حتى قال بعضهم: "إنه يدخل هذا الشاب مجلسا وعنده من الأولاد

من هو أكثر منه متقاً؟ وله قصة رواها البخاري في صحيحه تدل على غزارة علمه، وعلو شأنه في القمص على دقائق أسرار القرآن:

رواية البخاري:

روى البخاري من طريق سعيد بن جبور، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه، فقالوا: لِمَ يدخل هذا معنا، وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من علمت - يعني: إنه من عرفتم ذكاه وعلمه - فدعاهم ذات يوم، فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليربهم، فقال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر:١)؟

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم، فلم يقل شيئا، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿وَإِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (النصر:٢)، فقال عمر: والله لا أعني منها إلا ما تقول^{١١}. لا يتركها إلا للراستخون في العلم، ولا عجب أن ينال ابن عباس تلك الرتبة الرفيعة في فهم أسرار القرآن، فقد دعا له الرسول ﷺ بالفهم والفقه في الدين، كما روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "ضمي رسول الله إلى صدره، وقال: "اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل".

وفي رواية: "اللهم علمه الحكمة".

وكان ابن عباس يسمى البحر؛ لكثرة علمه.

روي أن رجلا أتى عبد الله بن عمر رضي الله عنه يسأله عن السموات والأرض ﴿كَانَتْ رَقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ (الأنبياء:٣٠)، فقال: اذهب إلى ابن عباس فاسأله، ثم تعال، فأعبرني، فذهب، فسأله، فقال: كانت

^{١١} أخرجه البخاري رضي الله عنه في باب فضائل الصحابة.

السَّمَوَاتِ رَتَقًا لَا فُطْرَ، وَكَانَتْ الْأَرْضُ رَتَقًا لَا نَسْتِ، فَفَتَقَ عَدَدُ بَاطِرٍ، وَهَذِهِ بَاطِنَاتُ،
فَرَجَعَ إِلَى ابْنِ عَمْرِو، فَأَحْبَرَهُ، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَلُوْنُ: مَا يَعْبِيْنِي حِرَّةُ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى تَفْسِيرِ
الْقُرْآنِ. فَلَا أَلَا قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ أَلُوِي عَلِمَا.

وَرَوَى أَنَّ عَمْرُو بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ يَوْمَ الْأَصْحَابِ لِبَنِي مُجَنَّزٍ: فِيمَا تَرَوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ: ﴿يَا أَيُّهَا
أَحَدُكُمْ أَلَّا تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ جَبَلٍ وَأَعْنَاقٍ...﴾ (البقرة: ٢٦٦) قَالُوا: اللَّهُ أَعْلَمُ، فَمَضَى عَمْرُو، فَقَالَ:
قُولُوا: نَعْلَمُ، أَوْ لَا نَعْلَمُ.

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَحْمَرَ! قُلْ: وَلَا تَحْقِرْ عَمْرُو. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:
ضَرَبْتُ مَثَلًا لِّلْعَمَلِ، فَقَالَ عَمْرُو: أَيُّ عَمَلٍ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِمَ حُلَّ عَنِّي بِعَمَلِ بَضَاعَةِ اللَّهِ، ثُمَّ بَعَثَ لَهُ
الشَّيْطَانُ، فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ. (رواه البحري، فوافقه عمر عني هذا انقهم.

كُلُّ هَذَا وَأَمْنَانَهُ كَثِيرٌ، بَدَّلَ عَلَى مَلِغِ عَمْرِو ابْنِ عَبَّاسٍ وَفَهَمَهُ الثَّاقِبُ مِنْ حَدِيثِهِ سَمْعُهُ، وَهَذَا
أَصَحُّ فِي مَصَافِّ كَثَرِ شُيُوخِ الْمَصَنَّفَةِ، وَأَصْبَحَ يُدْعَى جَمِيعُ الْأُمَّةِ بِشَهَادَةِ انصَحَانِهِ أَنفُسِهِمْ.

شيوخ ابن عباس:

«مَنْ شُيُوحِ ابْنِ عَبَّاسٍ الَّذِينَ اسْتَقَى مِنْهُمْ عِلْمُهُ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ لَمْ يُرَ الْأَمْرُ فِي
تَوْجِيهِهِ وَتَفَاهُتِهِ "عَمْرُو بْنُ الْخَطَّابِ، وَأَبِي بَرَكَةَ، وَعَلِي بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ" (١)،
وَهَؤُلَاءِ الْخَمْسَةُ هُمْ أَهَمُّ شُيُوحِهِ الَّذِينَ أَحَدُهُمْ أَكْثَرُ عِلْمَهُ، وَنَفْسِي مِنْهُمْ مَعْظَمُ تَفَاهُتِهِ، وَكَانَ
لَهُمْ ثَرٌّ فِي تَوْجِيهِهِ نَمَتْ الرُّوحَةُ الْعِلْمِيَّةُ الدَّقِيقَةُ.

تلامذة ابن عباس:

نَفَضَى الْعِلْمُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَدَدٌ كَثِيرٌ مِنَ التَّابِعِينَ، كَانَ مِنْ أَشْهُرِهِمْ تَلَامِذُهُ الْمَشْهُورُونَ،
الَّذِينَ نَقَلُوا تَفْسِيرَهُ وَعِلْمَهُ الْعَزِيمَ. وَهَمَّ "سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ، وَبَجَاهِدُ بْنُ جَبْرِ الْخَزْرَمِيُّ، وَطَاوُسُ
ابْنُ كَثِيرٍ الْجَمَالِيُّ، وَعِكْرَمَةُ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعُضَاءُ بْنُ أَبِي رِيَاحٍ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَظْهَرُ تَلَامِذِهِ

الذين تغفروا مغفرته من قبل في التفسير أيضا عليه .

عبد الله بن مسعود:

ومن أعلام الصحابة الذين اشتهروا بالتفسير، وغفروا له آثار الرسل ﷺ وقوافله أعداء الله بن مسعود عليه السلام فقد كان من السابقين إلى الإسلام، وكان سادس ستة، ما عني وجه الأرض مسلم سرهه، وكان يخدم رسول الله ﷺ، يلبسه عليه، ويخشي معه وأمامه، فكان له من هذه انفسلة النبوية خير منسوب ومؤيد، لذلك عدّوه من أعلم الصحابة بكتاب الله، ومعرفة بحكمه ومبادئه وحلاله وحرمه.

قال السوطي: قد روي عن ابن مسعود في التفسير أنك مما روي عن أبي بكر كرم الله وجهه. روى الشيخان عنه أنه قال: والذي لا إله غيره، ما نزلت سورة من كتاب الله، إلا وأنا أعلم أين أنزلت؟ ولا أمرت أمة من كتاب الله تعالى، إلا وأنا أعلم فيه أنزلت؟ ولم أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبعه إلا من تركت إليه، روى عنه كثير من التابعين.

♦ ♦ ♦ ♦

القسم الثاني

التفسير بالدراية أو بالرأي:

بعد أن تحدثنا عن التفسير بالرؤية، نتقل الآن إلى الحديث عن التفسير بالدراسة، وهذا النوع يسمى عند علماء التفسير: التفسير بالرأي، أو التفسير بالعقول؛ لأن المفسر لكذب الله تعالى يعتمد فيه على جهاده، لا على المأثور المنقول عن الصحابة أو التابعين، بل يكون فيه الاعتماد على اللغة العربية، وفهم أسلوبها على طريقة العرب، ومعرفة طريقة المخاطب عندهم، وإدراك العلوم الضرورية التي ينبغي أن يكون ملماً بها كل من أراد تفسير القرآن، كالنحو، والصرف، وعلوم البلاغة، وأصول الفقه، ومعرفة أسباب النزول إلى غير ما هنالك من العلوم التي يحتاج إليها المفسر؛ كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

معنى التفسير بالرأي؟

المراد بالرأي هنا "الاجتهاد" المبني على أصول صحيحة، وقواعد سليمة متبعة، يجب أن يأخذ بها من أراد الخوض في تفسير الكتاب، أو التصدي لبيان معانيه، وليس المراد به مجرد "الرأي"، أو مجرد "الوهي"، أو تفسير القرآن بحسب ما يخطر بالبال للإنسان من خواطر، أو بحسب ما يشاء.

فقد قال القرطبي: من قال في القرآن ١٤: سنع في وهمه، أو عطر على باله من غير استدلال عليه بالأصول، فهو مخطئ، مذموم، وعيه يحمل الحديث الشريف: "من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار.^(١) وقد قال عليه السلام:
"من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ".^(٢)

^(١) الحديث: روى البخاري، وصلى عن علي عليه السلام ومعنى نبينا: أي نزل وبطل.

^(٢) الحديث: من رواية أبي داود، عن حماد.

فإن الفرضي يفتي في مقدمة تفسيره بجماع لأحكام القرآن" ما نفسه:

فسر الحديث ابن عباس عليهما السلام "ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار" تفسيرين:

أحدهما: من قال في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذهب السحابة والتابعين، فهو متعرض لسخط الله.

ثانيهما: من قال في القرآن قولاً يعلم أن المتن غيره، فليتوبأ مقعده من النار.

وقد رجح الفرضي القول الثاني فقال: وهو أنت القولان، وأصحهما معنى، ثم قال: وأما حديث "جندب" فقد حمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأي معنى به "الموى" والمراد: من قال في القرآن قولاً يوافق هواه، لم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب، فقد أخطأ حكمه على القرآن بما لا يعرف أصله، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه.

وقال ابن عطية: "ومعنى هذا أن يسأل الرجل على معنى في كتاب الله عز وجل، فيستور عليه أي بهجم عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء، واتخذته قوانين لعدم كالتحرر والأصول، وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر التعويذون لفته، والتعويذون شعور، والفقهاء معانيه وأحكامه، ويقول كل واحد واجتهاده المبني على قوانين علم ونظر، فإن القائل على هذه الصفة ليس فائلاً بمجرده رأيه." (١)

أنواع التفسير بالرأى:

وعلى هذا، يمكن تقسيم التفسير بالرأى إلى قسمين:

١- تفسير محمود.

٢- تفسير مذموم.

فالتفسير المحمود: ما كان موافقاً لغرض الشارع، بعيداً عن الجهالة والضلالة، متمسكاً مع

(١) تفسير الفرضي: ٢٢/١.

قواعد للغة العربية، معتمدا على أساليبها في فهم النصوص القرآنية الكريمة، فمن فسر القرآن برأيه - أي باجتهاده - ملتزما بالوقوف عند هذه الشروط، معتمدا عليها فيما يرى من معاني الكتاب العزيز، كان تفسيره جائزا سائغا، حذيرا بأن يسمى التفسير المحمود، أو التفسير المشروع.

وأما التفسير المذموم: فهو أن يفسر القرآن بدون علم، أو يفسره حسب الهوى مع الجهالة بمقاييس اللغة أو الشريعة، أو يحمل كلام الله على مذهبه الماسد، وبدعته الضالة، أو يخوض فيما استأثر الله بعلمه، ويجزم بأن المراد من كلام الله هو كذا وكذا، فهذا النوع من التفسير هو التفسير المذموم، أو التفسير الساطن.

وباختصار: فإن التفسير المحمود ما كان صاحبه عارفا بقوانين اللغة، نجرا بأساليبها بصيرا بقانون الشريعة.

والتفسير الباطل المذموم ما كان متبعنا عن الهوى، قائما على الجهالة والفضالة، مثاله: ما ورد عن بعض الجهلة من ادعاء العلم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ نَسَبٍ بِأَبْنَائِهِمْ﴾ (الإسراء: ٧١): أن المراد هنا أن الله تعالى ينادي "نفس" يوم القيامة بأسماء أمهاتهم سرّا عليها، فقد فسر هذا الجاهل "الإمام" بالأمهات، وحين أن الإمام جمع أم مع أن اللمعة العربية تأتي هذا: لأن جمع الأم أمهات قال تعالى: ﴿وَأُمَمُهُنَّكُمْ ثَلَاثِي أَرْضُكُمْ﴾ (نساء: ٢٣)، ولا يكون جمع الأم إماما، فإن ذلك فاسد لغة وشرعا، والمراد بالإمام هنا "النبي" الذي اتبعته أمته، أو كتاب الأعمال بدليل تنص الآية: ﴿فَمَنْ أُوْبَىٰ كِتَابُهُ يَمِيزُهُ وَأُوْبَىٰكَ يَمْرَأُوكَ كِتَابُهِمْ وَلَا يَظْلَمُونَ﴾ (الأنعام: ٧١).

فإذا لم يفهم الإسناد: قواعد اللغة، ولا أصول العربية، حبط حبط عشواء، وكان غليل لرأي مقيم الفهم، وكذلك من لم يفهم غرض الشرع وقع في الجهالة والفضالة، كمن باحد بظاهر الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي عَيْدٍ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ مَسِيلًا﴾ (الأنعام: ٧٢)،

فيحكمه على كل أعمى بالشقاوة والخسران ودخول جهنم مع أن المراد بالعمى ليس عمى البصر، وإنما هو "عمى القلب" بذليل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (البحر: ١٦).

وربما كان عمى البصر سببا لسعادة الإنسان كما جاء في الحديث القدسي: "من ابتليته بمحييته - يعني: عينيه - فصير، عوضته الجنة".

وسنذكر بعض النماذج عن التفسير الباطل المفهوم عند الكلام على غرائب التفسير؛ فارجع إليه هناك.^(١)

أمهات التفسير:

والأمور التي ينبغي استناد الرأي إليها في التفسير، أمهاتها أربعة كما ذكرها الزركشي في كتابه "البرهان"، ونقلها السيوطي عنه في كتابه "الإتقان"، ونحن نلخصها بإيجاز:

الأول: النقل عن الرسول ﷺ مع التحرز عن الضعيف والموضوع.

الثاني: الأخذ بقول الصحابي في التفسير، فإنه في حكم المرفوع.

الثالث: الأخذ بمطلق اللغة، فإن القرآن نزل بلسان عربي مبين، مع ترك ما لا يحتمله لغة العرب.

الرابع: الأخذ بما وافق الكلام العربي، وبذل عليه قانون الشرع، وهذا هو الذي دعا به النبي عليه الصلاة والسلام لابن عباس رضي الله عنهما في قوله: "أطلبم فقهه في الدين وعلمه التأويل".^(٢)

العلوم التي يحتاجها المفسر:

يحتاج المفسر لكتاب الله تعالى إلى أنواع من العلوم والمعارف، يجب أن تتوفر فيه حتى يكون أهلا للتفسير، وإلا كان داهيا في نوعه السابق؛ "من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار".

^(١) في صفحة: ١٢٦.

^(٢) انظر "الإتقان" ١/٢٧٩.

وقد ذكر العلماء أنواع العلوم التي يجب توفرها في المفسر، وأوصلها السيوطي في كتابه "الإتقان" إلى خمسة عشر علماً^{١١} ونحن نوزعها فيما يلي:

١- معرفة اللغة العربية وقواعدها، علم النحو، والصرف، وعلم الاشتقاق.

٢- معرفة علوم البلاغة "علم المعاني، والبيان، والبديع".

٣- معرفة أصول الفقه من "أخصاص، وعلم، ومحمل، ومفصل... الخ".

٤- معرفة لمبنيات التزويل.

٥- معرفة الناسخ والنسخ.

٦- معرفة علم القراءات.

٧- علم الموهبة.

أما الأول: وهو اللغة وما يتعلق بها من نحو وصرف واشتقاق، فإنه ضروري للمفسر، إذ كيف يمكن فهم الآية بدون معرفة المفردات والتراكيب؟ وهل باستطاعة أحد أن يفسر قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْكُلُونَ مِنْ نَسَائِهِمْ نُسًا شَهِيرًا فَأُولَئِكَ أَطْعَمُوا إِبْرَاهِيمَ فَقَدْ عَلَّمَهُ تَحْقِيقًا﴾ (مريم: ٢٦) بدون أن يعرف المعنى اللغوي للإيلاء والربص والقيء؟

قال الإمام مالك: لا أوتي رجلاً غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله، إلا سمعته نكالا. وقال مجاهد: لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يكتسب في كتاب الله إذا ثم يكن عالماً بلغات العرب.

فإذا لم يتقن اللفظ مع المعنى اللغوي كان باطلاً، كتفسير بعض الروافض قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ مَخْرَجَيْنِ﴾ (مريم: ١٩) فكما على قاضية حكيم، وقوله: ﴿يُخْرِجُ مِنْهُمَا النَّارَ وَالْمَرْحُومَ﴾ (مرم: ٢٢)

^{١١} عبد السيوطي العلوم خمسة عشر، وسردها على النحو التالي: أحدها: اللغة، الثاني: النحو، الثالث: التصريف، الرابع: الاشتقاق، الخامس: البيان، السادس: المعاني، السابع: البديع، الثامن: علم القراءات، التاسع: أصول الدين، العاشر: فصول الفقه، الحادي عشر: أسباب النزول، الثاني عشر: علم النسخ والنسوخ، الثالث عشر: علم لغة، الرابع عشر: الأحاديث الستة للمحمل والمبهم، الخامس عشر: علم الموهبة، (الإتقان: ١٢١).

يعني الحسن والحسين عليهما السلام.

وتفسير "فرعوناً" بالمعنى في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الزمر: ١٧)، ويريد به قلب الإنسان الفاسد.

قال القرطبي: وهذا حسن قد يستعمله بعض الومقظ في المقاصد الصحيحة؛ تحسباً للكلام، وترغيباً للمستمع، وهو محمود؛ لأنه ليس في اللغة، وذلك غير جائز، وهو أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي.^{١١}

وعلم النحو ضروري لأنه - كما أن المعنى يتغير بتغير الحركات تغيراً كبيراً، فقوله تعالى: ﴿يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُتْلِينَ﴾ (الزمر: ١٨)، يصبغ هاء الخلة، ورفع همزة العلماء، والمعنى صحيح؛ لأن معنى الآية: الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيره، فمن زداد علماً بالله ازداد منه خوفاً، وأو عكس فضم هاء الخلة، ونصب همزة العلماء ففسد المعنى.

قصة قطيفة:

ذكر القرطبي في "تفسيره" هذه القصة في عدم التحسن في القرآن، قال:

قدم أعرابي في زمان عمر بن الخطاب عليه السلام إلى المدينة المنورة فقال: من يعرفني مما أنزل على محمد ﷺ؟ قال: فأقره رجل سورة "براءة"، فقرأ عليه الآية الكريمة: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (البقرة: ١١٠)، فآخراً أي بحر اللام في "رسوله" بدل "نفسه"، فقال الأعرابي: أرفقه برئ الله من رسوله؟ فإن يكن الله برئاً من رسوله فأيضا أرفاً من رسوله، فاستعظم الناس الأمر، وبلغ عمر مقالة الأعرابي فغضب، فقال: يا أعرابي! أتبرأ من رسول الله ﷺ؟

فقال: يا أمير المؤمنين! إنني قدمت المدينة، ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يعرفني؟ فأقراني هذا الرجل سورة "براءة"، فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾، فقلت: أوقد برئ الله من

رسوله؟ إن يحكى الله برئ من رسوله فأنا أرى معه. فقال عمر: ما هكذا الآية، يا أعرابي! قال: فكيف هي؟ يا عمر المؤمن! قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَبَرُّءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ورسوله ﷺ، فقال الأعرابي: وأنا والله أرى ما برئ الله ورسوله منه، أرى من ينسركين... فأمر عمر من الخطأ صمحه ألا يقرئ الناس إلا عام بالغة، وأمر أن الأسود، موضع النحر." (١)

ومعرفة عمر التصرف والاشتقاق ضرورة أيضا لتفسيره حتى لا يخطئ الإنسان بحبط عيوبه، قال الزمخشري: من ساء التفسير فون من قال: إن الإمام في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾ (الزمر: ٢٧) جمع أم، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأسمائهم دون آياتهم، قال: وهذا غلط فاحش أوجب جهنم القتال بالتصريف، فإن "أما" لا تجمع على ميم.

وأما علوم المعاني، والبيان، والتدريج: فضرورة لمن أراد تفسير الكتاب العزيز؛ لأنه لابد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وذلك لا يدرك إلا بهذه العلوم، فمثلا قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعُحْلَ﴾ (نمل: ٢٣) أي أشربوا حب العحل، فهو على حذف مضاف، ومثله: ﴿وَأَسْأَلُ الْقُرْآنَ﴾ (يوسف: ٨٠) المراد أهل القرية، وقوله تعالى: ﴿مَنْ لَبَسَ لَكُمُ وَاثَمَ لِبَاسٍ لَكُمْ﴾ (الفرقة: ٢٨٧)، جس على الحقيقة، وإنما هو استعارة، فكما يستر اللباس العورة، ويرين الإنسان ويجمعه. كذلك لم حل والمرأة كل منهما كاللباس صاحبه برئته ويكمّله ويجمعه. وهو من دواعي النظم، ويذاع الكلام. وإذا حمل الإنسان المعنى على ظاهره فسد المعنى، كما يذكر أن "الفرسيين" أرادوا ترجمة القرآن إلى لغتهم، فلما وصلوا إلى هذه الآية الكريمة: ﴿مَنْ لَبَسَ لَكُمُ وَاثَمَ لِبَاسٍ لَكُمْ﴾ ترجموها بالظاهر، ولم يدركوا أسر الدقيق فيها، فكانت الترجمة كالتالي: "من سطلوناتكم، وأنتم بصطونات هن" لأن اللباس عندهم يسمى: "السطلون"، وهكذا ساء فهمهم، ولم يدركوا روعة تعبير القرآن.

وقريب من هذا ما وقع لبعض الأعراب حين سمع قوله تعالى: ﴿وَكُتِّرُوا اشْرَبُوا حَتَّى يَبْسُ نَكْمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ (سفر: ١٨٧): أخذ عقلائين: أبيض وأسود، وجعل يأكل ويمضر إليهما حتى كادت الشمس أن تصطبغ، فحاء إلى النبي ﷺ، فأخبره بذلك، فقال له: إنك تعريض للفتنة^{١١}، إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل.

وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة على الاستعارة والكناية والحجاز، ولا بد لي فيهما من معرفة علم البيان والبدیع، مثل قوله تعالى عن سفينة نوح ﴿تَخْرِي بِأَهْلِهَا﴾ (سفر: ١١) أي بحفظها ورعايتها، وقوله: ﴿قَدِمَ صِدْقِي﴾ (سوس: ٥٠) و﴿إِنْسَانٌ صِدْقِي﴾ (شعراء: ٨٤)، و﴿خَنَاحُ اللَّهِ﴾ (الأنعام: ٢٤). كل ذلك وأشباهه يحتاج إلى فهم علوم البلاغة وأسرار البيان.

وهكذا بقية العلوم من أصول الفقه، وأسباب النزول، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، وعلم القراءات، كل ذلك مما يحتاج إليه المفسر لكتاب الله تعالى حتى لا يخطيء في الفهم، ولا يزل عدمه بسبب الجهل بهذه الأمور الضرورية.

وأما علم الموهبة: فيقصد منه العلم الثلثي الرباني: ﴿وَعَلَّمَآهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف: ٦٤) الذي يورثه الله تعالى من عمل بما علمه، ويفتح قلبه بفهم أسراره، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾ (آقرة: ١٨٧) فهو ثمرة التقوى والإخلاص، ولا سأل هذا العلم من كان في قلبه بدعة، أو كبر، أو حب للدنيا، أو ميل إلى المعاصي، قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِخَيْرِ الْحَقِّ...﴾ (الأعراف: ٤٦) وما أحمل مول الشافعي رحمه الله:

شكوتُ إلى وكيع سوءَ جففي فأرشدني إلى تركِ المعاصي
والعزِّي بأن العلم نورٌ ونورُ الله لا يهتدي للمعاصي

قال السيوطي: ولعلك تستشكل علم الموهبة وتقول: "هذا شيء وليس في قدرة الإنسان"، وليس كما ظننت من الإشكال.

^{١١} عرجس الفتنة: كتابة عن إبلاهة، وسوء الفهم.

والطريق في تحصيله ارتكاب الأسباب الموجهة له من العمل والزهد، ثم قال: علوم القرآن وما يستنبط منه غير لا ساحل له. فهذه العلوم التي ذكرناها هي كالألة للتفسير، ولا يكون منسراً إلا بتحصيلها، فمن فسر بدونها كان مفسراً بالرأي الشبهى عنه.^(١)

وهذه الشروط التي ذكرها العلماء، إنما هي تحصيل أعلى مراتب التفسير، وهناك معاني عممة يهملها لإسنان عدد سماع المصنف الكريم، فقد سئل الله القرآن وبشره وأمر بالتدبر والتذكر لكتابته المجيد: ﴿فَلَا تَسْبُرُونِ الْقُرْآنَ﴾ (هود: ٢٤)، وذلك أدنى مراتب التفسير، والله الموفق.

مراتب التفسير:

وقد قسم المرحوم الشرح محمد عبده التفسير إلى مرتبتين:

١- مرتبة عليا.

٢- مرتبة دنيا.

أما المرتبة الأولى "عليا" فهي ثلاث: لا تأمور:

أولها: فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعت في القرآن عن طريق استعمالات أهل اللغة. ثانيها: معرفة الأساليب الرفيعة، وذلك بحصول عمادة الكلام البليغ ومزاولة مع المتفطن لشكوه ومحاسنه.

ثالثها: علم أحوال البشر، ومعرفة نسب الإهبة الكونية في تصور الأمم واختلاف أحوالهم من قوة وضعف، وغنى ودل، وإيمان وكفر.

رابعها: لعلم بوجه هشاية القرآن للبشرية، وما كان عليه العرب في الأخذية من شفاء وضلال، فقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: "لا يعرف فضل الإسلام من لم يقرأ حياة الجاهلية".

خامسها: انعلم بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وما كانوا عليه من عزم وعمل في الشؤون الدينية والدينية.

المرتبة الدنيا:

وأما أدنى مراتب التفسير: فهو أن يتبين بالإجمال ما يشرع قلبه عظمة الله وتزيهه، ويصرف النفس عن الشر، ويهديها إلى الخير، وهذه ميسرة لكل أحد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (الفجر: ١٧).

أوجه التفسير:

روى السيوطي نقلاً عن ابن جرير من طرق متعددة عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال:

التفسير أربعة أوجه:

١- وجه تعرفه العرب من كلامها.

٢- وتفسير لا يُعذر أحد بجهالة.

٣- وتفسير يعرفه العلماء.

٤- وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى.

أقوال العلماء في جواز التفسير بالرأي:

بعد أن عرفنا معنى التفسير بالرأي وشروطه، نذكر الآن أقوال العلماء فيه، وأدلة كس من المفسرين والمألفين له، حتى يظهر الحق أليق ساطعاً، مثل الشمس في رابعة النهار، فنقول - ومن الله نستمد العون -:

المراد بالرأي هنا الاجتهاد، وعليه فالتفسير بالرأي مجناه: تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب وأسلوبهم في الخطاب، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالتها، وقد اختلف العلماء في جواز التفسير بالرأي على مذهبين:

المذهب الأول: عدم جواز التفسير بالرأي؛ لأن التفسير موقوف على السماع، وهو قول طائفة من العلماء.

ثانياً: إذ الله تعالى قسم الناس قسمين: عامة وعلماء، وأمر بالرجوع إلى أهل العلم الذين يستنبطون الأحكام، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْوَدَانَ وَالْإِنْسَانَ أَكْثَرَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ لَآتَيْنَاكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ يُحَاطَبُونَ﴾ (البقرة: ١٧٥).

والاستسقاط هو استخراج أعمالي الحقيقة بنائب الذهن، وهو إما يكون بالاحتجاج والغوص في أسرار القرآن، كما يغوص السباح في أعماق البحر لاستخراج الحواضر والذرات.

ثالثاً: فالواضح أن كتاب التفسير بالاحتجاج غير حائز، لما كان الاحتجاج حائزاً، ولتفضل كثير من الأحكام، وهذا باطل؛ فإن المجهود في حكم الشرع مأجور سواء أفاض أو أخطأ مادام أنه قد استخرج جهده، وبذل ما في وسعه بعبء الوصول إلى الحق والصواب.

رابعاً: إن الصحابة قرؤوا القرآن، واختلفوا في تفسيره على وجود، ومعلمة أقدم لم يسمعوا كل ما قالوه في تفسير القرآن من النبي ﷺ؛ إذ أنه لم يبين لهم كل شيء، بل بس غم ضروري منه، وترك البعض الآخر الذي توصلوا إلى معرفته بقولهم واجتهادهم؛ ولو بين لهم كل معانيه لما وقع بينهم اختلاف في التفسير.

خامساً: إن النبي ﷺ دعا لابن عباس رضي الله عنهما، فقال: "اللهم فقه في الدين، وعلمه التأويل"، وهو كان "التأويل" مقصوراً على السماع والنقل كالتبريل، لما كان هناك مائدة في تخصيص ابن عباس بهذا الدعاء، فقد على أن التأويل هو التفسير بالرأي والاجتهاد.

الرد على أدلة المانعين:

وقد ردوا على أدلة المانعين بحجج دامغة، وبراهين قاطعة نثبت خطأهم، فقالوا في الرد على الدليل الأول: إن التفسير بالاحتجاج ليس قولاً على الله بعد علم، بل هو قول بعلم مأثور به من الشارع، فقد بين عليه الصلاة والسلام أن الجهد إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ، فله أجر واحد، فكيف يكون مأجوراً إذا لم يكن مسموحاً له بالاجتهاد؟

ثانيها: أما الدليل الثاني وهو حديث: "من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار"، فقد رد السيوطي بخمسة أدلة عليه، فقال: جملة ما تحصل في معنى التفسير بالرأي خمسة أقوال:

أحدها: التفسير من غير حصول على العلوم التي يجوز معها التفسير.

الثاني: تفسير المشابه الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

الثالث: التفسير المقرر للمذهب الفاسد، فيحمل المذهب أصلاً، والتفسير تابعاً.

الرابع: الحكم بأن مراد الله كذا على وجه القطع من غير دليل.

الخامس: التفسير بالاستحسان والظن.^(١)

ثالثاً: وفي الرد على الدليل الثالث قالوا: نعم! إن النبي ﷺ مأمور بالبيان، ولكنه تنقل إلى جوار الله، ولم يبر لهم كل شيء، فما ورد بيانه عنه ﷺ، فقيه الكفاية، وما لم يرد عنه بيانه فلا بد فيه من الاجتهاد وإعمال الفكر، وختام الآية يشهد ذلك: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ١٧٦)، فلا بد إذا من الفكر والاجتهاد.

رابعاً: وفي الرد على الدليل الرابع قالوا: إن إسحام الصحابة إنما كان منهم ورعاً واحتياطاً خشية ألا يصيبوا عین اليقين، وكانوا يرون أن التفسير شهادة على الله بأنه أراد باللفظ كذا، فأمسكوا عنه خشية ألا يكون انصواب جانبهم، وأما إذا ترجح لهم وجه الصواب، فإهم لا يمتنعون، وهذا أبو بكر الصديق يعني في الكلاله برأيه في قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُنَبِّئُكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ (النساء: ١٧٧)، فيقول ههنا: أقول فيها برأيي، فإن كان صواباً فسن الله، وإن كان غير ذلك فسنِّي ومن الشيطان. "الكلالة": ما خلا الولد والولد.

من هذه منظره العبارة يتبين لنا خطأ وجهة اثنين ممنوعوا تفسير القرآن بالاجتهاد، وقصروا على المنقول والمأثور، وقد علمت أدلة المحذور القوية، وتفتيدهم لأدلة المانعين. ونزهد هنا كلمة للإمام العراقي، وأخرى للراغب الأصفهاني، وثالثة للقرطبي حول جواز تفسير القرآن بالاجتهاد.

^(١) الإنشاد: ١٨٣/٢.

كلمة الإمام الغزالي:

قال الغزالي في الإحياء: إن في فهم معاني القرآن مجالا رحبا، ومسعا جالعا، وإن المقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه، فعلى أن يشترط السماع في التأويل، وجار لكل واحد أن يشتبط من القرآن بقدر فهمه وحذ عقله.^(١)

كلمة الراغب لأصفياني:

وقد الراغب الأصفياني في مقدمة التفسير: بعد أن ذكر المذهبين وأدلتهم، قال: وذكر بعض المحققين أن المذهبين هما الغزو وتفسير، فمن اقتصر على المقول، فقد ترك كثيرا مما يحتاج إليه، ومن أحاز لكل أحد غرض فيه، فقد عرض له التحليل، ولم يعثر حقيقة قوله تعالى: ﴿لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يُولُوا لِلْأَلْبَابِ﴾ (ص ٣٩، ٤٠).

كلمة الإمام القرطبي:

وقد العلامة القرطبي في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" ما نصه:
وقد اختلف بعض العلماء: إن للتفسير موقوف على السماع لقوله تعالى: ﴿لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يُولُوا لِلْأَلْبَابِ﴾ (ص ٥٩). وهذا فاسد؛ لأن الشئ غير تفسير القرآن لا يخلو بما يكون المراد به الإقتصار على السمع والمسموع وفرك الاستطاعة، أو المراد به أمر آخر، وما ظن أن يكون المراد به إلا يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه، فإن الصحابة رضي الله عنهم قد قرؤوا القرآن، واحتفتوا في تفسيره عن وجوده وليس كل من قلبه سمعه من النبي ﷺ، فإن النبي ﷺ دعا لابن عباس فقال: "اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل"، فإن كان التأويل مسموعا كالشريعة، فما فائدة تخصيصه بذلك؟^(٢)

^(١) الإحياء: ٣٦/٣-٣٧. ^(٢) مقدمة التفسير لراغب، ص: ٤٢٣.

^(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٢٣/١.

أحدهما: أن يكون به في الشيء رأي، وإبه ميل من الصبح والمهوى، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه.

الثاني: أن يتسرع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بمغائب القرآن، وما فيه من الخذف والإضمار، وتقديم والتأخير، تأمل قوله تعالى: **هَآؤَآءِ آيَاتِ الْآفَاقِ فَصَبْرٌ قَلِيلٌ حَتَّىٰ تَآخُذَ الْآسَافُ** (الأنبياء: ١٠٤)، فإن معناه: أنها لمود الآفاق معجزة واضحة وآية ظاهرة، فظلموا أنفسهم بمتلها.

والناظر إلى ظاهر العربية يظن أن الآية كانت مصفرة، ولا ينبغي بماذا ظلموا، وأهم ظلموا غيرهم أو أنفسهم، فهنا من الخذف والإضمار، وأنتان هذا في القرآن كثير، وما عدا هذين لوجهين فلا يشمله السهي.^(١)

• • • • •

^(١) المراجع لأحكام القرآن: ٣٤/١.

القسم الثالث

التفسير الإشاري وغرائب التفسير:

النوع الثالث من التفسير هو 'التفسير الإشاري'، وسنعرض في هذا البحث إلى معنى التفسير الإشاري، إلى شروطه، وإلى آراء العلماء به، ثم نعتب ذلك بياناً شاملاً عن التفسير الإشاري، وأهم الكتب التي نحت هذا الفن، وما فيها من حسنات وسيئات.

معنى التفسير الإشاري:

التفسير الإشاري: هو تأويل القرآن على خلاف ظاهره؛ لإشارات خفية تظهر لبعض أولي العلم، أو تظهر للمعرفين بالله من أرباب السبوك والمجاهدة لنفسهم من مؤي الله تعالى هم؛ فأدركوا أسرار القرآن العظيم. أو انقدحت في أذهانهم بعض المعاني الدقيقة بواسطة الإلهام الإلهي، أو الفتح الرباني مع إمكان الجمع بينها وبين الظاهر المراد من الآيات التكرية.

فالتفسير الإشاري هو أن يرى المفسر معنى آخر غير معنى الظاهر تحتلته الآية التكرية، ولكنه لا يظهر لكل إنسان؛ وإنما يظهر لمن فتح الله قلبه وأتاه بصيرته، وسلكه في ضمن عباده الصالحين الذين منحهم الله الفهم والإدراك، كما قال تعالى في قصة الخضر مع موسى عليه السلام: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ بَنَاتِنَا لَكُمْ خَيْرًا مِنْ أُولَئِكَ سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ بَشَرًا مِنْ لَدُنَّا عَلَمًا﴾ [نمل: ١٥].

وهذا النوع من العلم ليس من العلم الكسبي الذي يتل بالبحث والتذكر، وإنما هو من العلم اللدني أي الوحي الذي هو نور النقي والاستقامة والصلاح، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ وَبِهِ رُزْقًا مِنْ لَدُنْهِ وَيُؤْتِيهِمُ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [شورى: ٢٥٨].

آراء العلماء في التفسير الإشاري:

اختلف العلماء في التفسير الإشاري: وثابت فيه آراؤهم، فمنهم من أحازمه، ومنهم من منعه، ومنهم من عدّه من كمال الإيمان ومحض العرفان، ومنهم من اعتبره زها وصلالا، وأمرافا عن دين الله تبارك وتعالى.

والواقع أن الموضوع دقيق، يحتاج إلى بصيرة وروية، وعوض إلى أعماق الحقيقة؛ ليظهر ما إذا كان الغرض من هذا النوع من التفسير هو اتباع القوى، والتلاعب في آيات الله كما فعل "الباطنية"، فيكون ذلك زنادقة وخداع، أو العرض منه الإشارة إلى أن كلام الله تعالى لا يحيط به بشر؛ لأنه كلام خالق القوى والقدرة، وأن لكلامه تعالى مداهيم وأسراراً، ونكتاً ودقائق، وعجائب لا تنفسي، فيكون ذلك من محض العرفان وكمال الإيمان، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: "إن القرآن ذو شجون وفنون، وظهور وباطن، لا تنفسي عجائبه، ولا تبلغ غايته، فمن أوغل فيه برفق نجده، ومن أوغل فيه بعنف هوى، أضمحل وأمثال، وحلال وحرام، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وظاهر وباطن؛ فظهره التلاوة، وبطنه التأويل، فحاصلوا به العلماء، وحاتوا به المنهاء".^(١)

أدلة المجهزين:

وقد استدلل القائلون بجواز التفسير الإشاري بما رواه البخاري رحمه الله في صحيحه في باب التفسير عند تفسير سورة "النصر"، ونص الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:

"كان عمر بن الخطاب مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم تدع هذا معنا ولنا أساء مثله؟ فقال: إنه من علمهم؟ فدعاني ذات يوم، فأدخلني معهم، قال: فما رأيك أنه دعاني إلا ليريههم، فقال عمر: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر)، فقال بعضهم: أمرنا بأن نحمد الله ونستغفره، إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم، فلم يقل شيئاً،

^(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك، انظر "الإقلاق" ١٨٤/٢.

فقال لي: أكنه تقول يا ابن عباس؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أسبل رسول الله ﷺ أعلمه، فقال: ﴿إِذَا حَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فذلك علامة أجلك: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (نصر: ٢) فقال عمر رضي الله عنه: ما أعلم منها إلا ما تقول^(١).

فهذا فقههم من ابن عباس لم يفهمه بنية الصحابة، وإنما فهمه عمر رضي الله عنه وفهمه ابن عباس رضي الله عنهما وهو من "التفسير الإشاري" الذي يلهمه الله من شاء من تكلفه، ويطلع عليه بعض عباده. فالسورة الكريمة فيها "نعمي" لني عليه الصلاة والسلام، وإشارة إلى دنو أجله. ومثل هذا ما ورد في الحديث الشريف: أن النبي ﷺ خطب للناس يوما، فقال في جملة عظيّمته: "إن الله خير عدا بين الدنيا وبين ما عندها، فاختار ما عنده"، فبكى أبو بكر، وفي رواية فقال: فديتاك يا رسول الله بأمانتي وأماناتي، فحببنا له بيكيه، فلما قبض رسول الله ﷺ علمنا أنه كان هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا^(٢).

فأبو بكر اصديق رضي الله عنه فهم "بطريق الإشارة" ما لم يفهمه عامة الصحابة رضي الله عنهم، وكان الأمر كما قال: طائفة من أقوال العلماء:

وأنا أنقل هنا طائفة من أقوال العلماء في التفسير الإشاري بإيجاز، سائلا المولى أن يلهمنا السداد والرشاد، وأن يجنب الخطأ والضلal، ثم أعقبها بكلمة لحجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله فهي مستختامة، فأقول - ومن الله أستمد العون -:

كلمة الزركشي في البرهان:

قال الزركشي في البرهان: كلام المصوفة في تفسير القرآن، قيل: إنه ليس بتفسير، وإنما هو معان وموحيّد يجتوئها عند التسلاوة، كقول بعضهم في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ

^(١) نقل من "جمع الفوائد"، وأغلب الموارد ٢٥٨/٢.

^(٢) الحديث رواه البخاري، والترمذي.

أكثر منه أهمية^{١٠٠}، إن لم أذكر "النفس"، يريدون أن علّة الأمر بقتل من يبغى هي القرب، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه.

كلمة النسفي والتفتازاني:

وقال النسفي في المقامد: لنصوص علي ضواهرها، والعدول عنها إلى معاني بدعيتها أهل الباطل أخذ.

وقال التفتازاني في شرحه على العوائد: سميت الملاحدة باطنية لأدعائهم أن النصوص ليس على ظواهرها، بل لها معاد لا يعرفها إلا العجم، وقصدوا بذلك نفي الشريعة بالكلية، قال: وإنما ما يذهب إليه بعض الخفقيين من أن النصوص على ظواهرها، ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تكشف لأرباب السبوك، يمكن الاتفاق بينها وبين الظواهر سرادة، فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان^{١٠١}.

فأنت ترى أن النسفي أشار إلى 'الباطنية'، وبين أن طريقهم يخالف في دين الله، والتفتازاني فصل البحث، ووضح نصوصه، فردّ على 'الباطنية' ضلالهم، وأقرّ ببعض أرباب السبوك طريقهم في استنباط الدقائق، والإشارات الخفية، وجعلها من كمال المعرفة والإيمان.

ومن هذا يظهر لنا الفرق جلي بين 'التفسير الإشاري' الذي هو أساس بعض 'العارفين'، وبين 'التفسير الباطني' الذي هو تفسير 'الباطنية' الملاحدة الذين يدعون معاني للكلمات العريضة، ويقولون لا يدعون زيادة لظاهر، بل يقولون: إنه هو الأصل والأساس، ويحضون عليه ويقولون: لا بد من معرفة الظاهر أولاً، إذ من ادّعى فهم أسرار القرآن، ولم يُحكم لظاهر، يكون كمن ادّعى بلوغ سطح أبيات قبل أن ينجح ليات.

وأما 'الباطنية'، فإنهم يقولون: إن الظاهر غير مراد أصلاً، وإنما مراد الباطن، وقصدوا من وراء هذا

^{١٠٠} شرح المقامد السنية للتفتازاني

الكلام نفي شريعة وإبطال الأحكام، وهذا نفاثك إجماع في شيوخنا، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَجْعَلُونَا فِي قُلُوبِكُمْ حُجُورًا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ يُنْزِلُ فِي قُلُوبِكُمْ كِتَابًا يُذَكِّرُ الْبَشَرَ إِنَّمَا يَجْعَلُونَ كِتَابَهُمْ حُجُورًا لَّهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٢٩).

كلام السيوطي في الإنفاق:

والعلامة السيوطي ذكر في كتابه "الإنفاق" عن ابن عطاء النص الآتي: اعلم أن التفسير من هذه الطائفة - يعني التفسير الإشاري - لكلام الله وكلام رسوله ﷺ بالمعاني العربية ليس إجماعاً للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية معهود منه ما جاءت الآية له، ودلت عليه في عرف المسلمين، ولهم أفعال باطلة تمهم عند الآية والحديث من فتح الله قلبه.

فلا بصديق عن تلقى هذه المعاني منهم أن يقول ذلك ذو حيل ومعرفة: هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله ﷺ، فليس ذلك إحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهو لم يقولوا ذلك، بل يقررون الظاهر على ظواهرها، مرادها موضوعاتها، ويفهمون عن الله ما أفهمهم الله. أقول: هذا كلام الإجماع، فقد وضع الشيخ الحق في مصنفه، وجمع بين النصوص الظاهرة والمعاني الخفية الواردة التي تشرق على قلب المؤمن المتعارف بالله، كما كان الحال مع الصديق وعمر بن الخطاب، ولا عجب فإنه تعالى بعض الحكمة من يشاء، ويبيع أنفسهم فبمن أُرِدَ، وهذا هو القرآن الكريم بحسب ما عن داود وسليمان عليهما السلام: "في أمر عَرَضَ عليهما، فحكم كل واحد منهما بحكم يخالف الآخر فيقول: ﴿فَرِغْتُمَا مَا مَنَّ بِنَا وَكَرَرْنَا عَلَيْكَ وَوَعَدْنَا﴾" (الأنعام: ١٦٦).

معنى الحديث أنوار في التفسير الإشاري:

ويجوز ما هنا أن يكون معنى الحديث أنوار في تفسير الإشاري في بيان معنى ظهر الآية وبطنها، وخذ الحرف، ومطلق الحد ... إلخ؛ لئلا يتخذ الملاحدة الباطنية حجة لهم في دعواهم الباطلة

في تفسير كلام الله تعالى على طريقتهم الباطنية، وتلاعبهم في النصوص الكريمة حسب لأهواء. روى القرطبي بسنده عن الحسن بن النسي رحمهم الله أنه قال: "لكل آية ظهر وبطن، ولكن حرف حده، ولكل حد مطلع".

وروى الطبري عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً: "إن هذا القرآن ليس منه حرف إلا له حد، ولكل حد مطلع".

وقد ذكر العلامة السيوطي رحمهم الله بعض الوجوه في تأويل الحديث الشريف في معنى 'الظهر والبطن'، ونحن نذكر أقرب هذه الأوجه إلى الصواب:

الوجه الأول: أن أفراد الظاهر فظها، وباطن تأويلها.

الوجه الثاني: أن المراد بالظاهر، ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر، وبطنها ما تضمنته من الأسرار التي اطلع الله عليها أرباب الخفائق.

الوجه الثالث: أن المقصود التي قصها الله تعالى عن الأسم الناضية، وما عاتبهم به، ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين، وباطنها وعظ الآخرين، وتحذيرهم أن يفعلوا كفعليهم، فيحل بهم مثل ما حل بهم.

وما المراد "بالحد": فهو أحكام الحلال والحرام، والمراد "بالمطلع": الوعد والوعيد، ويؤيده حديث ابن عباس السابق: "إن القرآن ذو شجون وقنون"... الحديث، وقد مر معك ذكره.

شروط قبول التفسير الإشاري:

والتفسير الإشاري لا يكون مقبولا إلا إذا توفرت فيه الشروط الآتية، قال السيوطي: وهذا الوجه أشبهها بالصواب.^(١)

أولاً: عدم التنافي مع المعنى الظاهر في النظم الكريم.

ثانياً: عدم ادعاء أنه المراد وحده دون الظاهر.

^(١) عن الإفغان: ١/٢٤٤/٢، بصرف.

ثالثا: ألا يكون التأويل بعيدا مستحيلا لا يحتمله اللفظ، كتفسير الباطنية قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ (نمل: ١٦)، أي أن الإمام عليا ورت النبي في علمه.

رابعا: ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي.

خامسا: ألا يكون فيه تشويش على أفهام الناس.

وبشون هذه الشرائط لا يقبل التفسير الإشاري، ويكون عند ذلك من قبول التفسير بالمعنى والرأي المنهني عنه، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

كلمة قيمة للشيخ الزرقاني:

ونسوق هنا كلمة قيمة للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني حول التفسير الإشاري، فيها حكمة بالغة، ونصيحة صادقة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، قال رحمه الله:

"وأعلك تلاحظ معي أن بعض الناس قد فتنوا بالإقبال على دراسة تلك الإشارات والمخاطبات، فدخل في روعهم أن الكتاب والسنة؛ بل والإسلام كله ما هي إلا سرائح وواردات على هذا النحو من التأويلات والتوجيهات، ورعوا أن الأمر ما هو إلا تحيلات، وأن المطلوب منهم هو الشطع مع الخيال أينما شطع، فلم ينفقوا بتكاليف الشريعة، ولم يحترموا قوانين اللغة العربية في فهم أبلغ النصوص العربية، كتاب الله وصلة رسوله ﷺ.

والأدهى من ذلك أنهم يتخيّلون ويخيّلون للناس أنهم هم أهل الحقيقة الذين أدركوا الغاية، واتصلوا بالله اتصالا أمقط عنهم التكليف، وسما بهم عن حضيض الأخذ بالأسباب، ماداموا في زعمهم مع رب الأرباب، وهذا - لعمر الله - هو المصائب العظيم الذي عمل له الباطنية كي ما يهدموا التشريع من أصوله، ويأتوا ببيانه من قواعد.

فواجب النصيح لإخواننا المسلمين: يقتضينا أن نحذرهم الوقوع في هذه الشباك، ونشور عليهم أن ينفقوا أيديهم من أمثال تلك التفاسير الإشارية للتوبة؛ لأنها كلها أذواق ومواجيد صارحة

عن حدود الضبط والتقييد، وكثيراً ما يختلط فيها الخيال بالحقيقة، والخيال باساطل، فالأحرى بأن يغفل العاقل أن ينأى نفسه عن هذه المزالق، وأن يفر يديه من هذه التشبهات، وأمامه في الكتاب والسنة، وشروحهما على قوانين الشريعة واللغة ريباض وحنات: **هَذَا تَشْبِيلُونَ الَّذِي هُوَ أَذْنَى بِالَّذِي هُوَ حَتَّى كَيْفَ (الفرد: ٦١)؟**^{١١}

كلمة حجة الإسلام الغزالي:

ويقول حجة الإسلام الغزالي رحمه في كتابه "إحياء علوم الدين" في فصل الذكر والتذكر، ما نصه: "وأما الشطح فعني به صنفان من الكلام أحدثهما بعض الصوفية:

أحدهما: الدعاري الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصل المغني عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية، والمشاهدة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا وقتنا كذا، ويتشبهون فيه بالחסين "الحلاج" الذي صلب لأجل إطلافة كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله: "أنا أختي"، وهذا فن من الكلام عظيم ضرره على العوام، حتى من نصق بشيء منه فقتله أفضل في دوى الله من إحياء عشرة.

الثاني: كلمات غير مفهومة، لها ظواهر وافقة، وفيها عبارات هائلة، وليس وراءها طائل، ولا داللة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول، ويحير الأذهان، وقد قال ابن مسعود رحمه: ما حدث أحد قوماً حديث لا يفقهونه إلا كان فتنةً عليهم.^{١٢}

وقال علي كرم الله وجهه: كنموا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ﷺ.^{١٣}

أمثلة على التأويل الإشراقي الفاسد:

ثم قال - طيب الله ثراه -: وأما الطاعات فيدخلها ما ذكرناه من الشطح، وأمر آخر يخصها وهو

^{١١} متاهل العروان: ٥٥٨/١

^{١٢} روي في مقدمة صحيح مسلم موقفاً على ابن مسعود رحمه.

^{١٣} رواه الجعاري رحمه موقفاً على علي رحمه. ^{١٤} متفق عليه.

صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور راضة لا يسق منها إلى الألفاظ عائدة، فهذا أيضاً حرام، وضرره عظيم. ومن أمثلة تأويل أهل الطائعات قول بعضهم في تأويل قوله تعالى: ﴿إِذْ عَصَى إِبْرَاهِيمُ إِلهَهُ طَعَى﴾ (المائدة: ٢٧) إنه إشارة إلى قبحه، وقال: هو المراد بفرعون، وهو الطاغوتي على كل لسان، وفي قوله تعالى: ﴿لَنْ أَتَى عَصَاكَ﴾ (المراد: ٢١٧) أي كل ما يتوكل عليه، ويعتمده مما سوى الله عز وجل، فينبغي أن يلقبه.

وفي قوله ﷺ: "تَسْحَرُوا قَوْمٌ فِي السَّحُورِ بِرَكَّةٍ" فسروا السحور بأنه الاستغفار في الأسحار، وأمثال ذلك حوّل ليعرفوا القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس رضي الله عنهما وسائر العلماء، وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعاً، كتنزيل فرعون على القلب. فإن فرعون شخص محسوس نوار إلينا النقل بوجوده، وبعضها يحتم بطلانه بغالب الظن، وكل ذلك حرام وضلاله، وإفساد للدين على الخلق.

ومن يستجير من أهل الطائعات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ، بصاهي من يستحيز الاختراع والوضع "الكذب" على رسول الله ﷺ كمن يصنع في كل مسألة يراها حديثاً عن النبي ﷺ، فذلك ظنم وضلال، ودخول في لوعيد: "من كذب علي متعمداً فليشرأ متعمداً من النار"، بل انشأ في تأويل هذه الألفاظ أطمع وأعظم؛ لأنه يبطل الثقة بالألفاظ، وقاضع طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكلمة".^(١) انتهى كلام الغزالي رحمه الله.

خلاصة البحث:

وم تقدم تبين لنا أن التفسير الإشاري له ما يزيده من الشرع، ولكنه قد دخلت عليه بعض التأويلات الفاسدة، وسلك فيه بعض الناس مسلك الباطنية، ولم يراعوا الشروط التي وضعها العلماء، وأخذوا يتباطون فيه عبط عشواء، بل أصبح كل من هدأ ودأ يتطاول على كذب الله تعالى،

فتأوله حسب ما يحمله عليه الحق، أو يرمس له به الشيطان، ويزعم أنه من التفسير الإشاري مع أنه سفاهة وضلالة وجهالة؛ لأنه تعريف بكتاب الله وسلوك لمسلك الباطنية الملاحدة، وهو وإن لم يكن تحريفاً للألفاظ، فإنه تحريف لمعانيه، ولقد سمعت من يستشهد بالآية الكريمة: ﴿قُلِ اللَّهُ تَعَالَى ذَرَهُمْ لِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأعراف: ٩١-٩٢) على ضرورة ملازمة المريد لذكر الله تعالى بلفظ "الله" فجعل هذه اللفظة مقول القول أي: قل: الله، وما درى بهذا الجاهل الغبي أن هذه جملة حذف منها الخير؛ واستغدير: "الله أنزله" بتدليل سياق الآية الكريمة: ﴿وَمَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ خُذُوا حُوقاً فَرِيضَةً﴾ فأتوا ما أنزل الله تعالى بشر من شيء، قل: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى... إلى قوله ﴿قُلِ اللَّهُ تَعَالَى ذَرَهُمْ لِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأعراف: ٩١-٩٢). وأمثال هذا التعليل كثير، فلا ينبغي لعلماء المسلمين أن يسمحوا وأمثال هؤلاء الجهلة بالتناول على كتاب الله، وتفسيره بما يخالف الظاهر، ويتعالي الحق وانصواب: عما سبهم أنه من نوع "التفسير لإشاري"، فالتفسير له حدود وشرائط، وليس لكل إنسان أن يقول فيه براه: أو يبعث في نصوصه بفهمه العليل، ولقد صدق شيخ الإسلام ابن تيمية حين قال: "نصف صيب بقصد الأبدان، ونصف ساء بقصد الأبدان". والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

غرائب التفسير:

ذكر العلامة السيوطي في كتابه "الإنفان" نقلاً عن الكرماني أنه ألف كتاباً في مجلدين سماه "العجائب والغرائب"، صممه أقوالاً منكورة في التفسير، لا يجوز قولها ولا الاعتماد عليها؛ لأنها من أقوال أهل الضلال، وإنما ذكرها لتحذير منها، وقال: إنما أردت بذكرها أن يعلم الناس أن فيمن يزعم العلم حقاً، ونحن ننقل طرفاً منها؛ ونفى بعض أقوال أخرى عن الباطنية حتى يبعد المسلمون من أمثال هذه الأباطيل التي دخلت على الأمة الإسلامية بسبب التعصب الأعمى والتباعد الأهواء.

أمثلة على هذه العرايب:

أولاً: بي قوله تعالى: ﴿وَسَمِيعٌ شَرِيفٌ﴾ (البقرة: ١٢٨) قالوا: إخوانه حُرِّبَ عَلِيٌّ ومعاوية، والجمعة ولاية بني مروان، وأبغين ولاية عباسيين، والنسرين ولاية السفليين، ولقاف الخدوة سنجدي... إلى غير ما هنالك من الضلال.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَنُكِّنْكُمْ فِي الْأَنْبَاءِ﴾ (يوسف: ٦٩) قالوا: نقصص المراد به نقصص القرآن، وهو باطل لغة وشرعاً، وقول لا يقول به إلا الجهلاء.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَنُكِّنْكُمْ فِي الْأَنْبَاءِ﴾ (يوسف: ٦٩) قالوا: إن إبراهيم كان له صديق وحسنه بأنه عليه، ومسرود بمعنى ولكن ليسكن صديقي، وهذا بعيد جداً.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَنُكِّنْكُمْ فِي الْأَنْبَاءِ﴾ (يوسف: ٦٩) قالوا: به أحب والعشوة، ففسروا به لا طاعة إلا لله، وهذا التفسير الباطل، وهذا حكمة تكوئني في تفسيره.

خامساً: قوله تعالى: ﴿وَنُكِّنْكُمْ فِي الْأَنْبَاءِ﴾ (يوسف: ٦٩) قالوا: إنه الذكر إذا انصب، وهذا - بلا شك - حرفة عربية، ووقاحة شبيعة لا تصدر إلا من سعيه نحوي.

سادساً: قوله تعالى: ﴿وَنُكِّنْكُمْ فِي الْأَنْبَاءِ﴾ (يوسف: ٦٩) قالوا: المراد بالشجر الأخضر "إبراهيم"، وبأنه أي دور محمد ﷺ، فإذا أنتم منه توفدون أي تفتسرون اليه.

وهذا التفسير من العرايب لا تدل عليه اللغة. وهو أبول باطل الصور من الغرابة، وإن كان سبكه جيلاً وعارته نصيفة.

نماذج عن تفسير الشيعة:

الشيعة هم فرق محدودة، أسرموا في حب الإمام عليّ كرم الله وجهه، فسموهم من الفرق في نفس

التشيع حتى كفر، وعلى رأس هؤلاء ابن سبأ اليهودي الحبيث الذي ما اعتنق الإسلام إلا بقصد التكهيد له، والندس فيه، ومهم من يعتقد بأن الأمين جبريل قد أنه وأخطأ في النزول، وأنه كان سبزل بالرسالة على علي عليه السلام، فخطأ ونزل على محمد صلى الله عليه وآله، وهؤلاء كانوا دائما في حرب وخصومة مع المسلمين، حتى ورد أن عبدا نفسه شق العار على نفسه، وحاربهم، وطاردهم على كفرهم وضلالهم.

ومنهم أناس محتلون، لم يسقطوا في هاوية الكفر، وإنما خالفوا أهل السنة والجماعة، واعتقدوا بأفضلية علي عليه السلام على جميع الصحابة رضي الله عنهم، وأنه أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وبأحقية بالخلافة لأنه من أهل البيت، واعتقدوا بأن الخلفاء الثلاثة قد سلبوا عليا رضي الله عنه حقه في توليهم الخلافة، ومنهم من يفضل عليا رضي الله عنه فقط، ومنهم من لا يكفي بذلك، بل يشتتم الشيعين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ويعتقد فيهم الضلال والعياذ بالله - مع أن الله تعالى أني عليهما في آيات عديدة، وجعلهم من خاصة أصحاب نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، ومنعز إلى نماذج من تأويلات "الأثنا عشرية"، والشيعة "السيئة" في كتاب الله الكريم.

من تفسيرات الشيعة "الأثنا عشرية":

- ١- ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَعَنَتُهُمْ﴾ (الحج: ٢٤) فسروه بقاء الإمام علي عليه السلام.
- ٢- ﴿لَمْ يَرْحَمْ الرَّاحِمَةُ﴾ (نوح: ٢٨) المرحمة: الخصوم، والرافضة: أبوه علي كرم الله وجهه.
- ٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا أَمْرًا﴾ (نساء: ٥٥) يعني بالذين آمنوا: الأئمة الإثني عشرية.
- ٤- ﴿لَا تَجِدُ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (محل: ١) أي لا تتحدوا إمامين، إما هو إمام واحد.
- ٥- ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ (زمر: ١٦) أي أشرقت بنور الإمام عليه السلام.
- ٦- ﴿مَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (زمر: ١٦) أي من يكفر بآيات الله، فسروها

بأن من ميم بولاية علي لما نزل عليه، وأصبح كتاباً من أنبياء نوح عليه السلام.

١- في أنبياء كذا قرأنا في الآية ١٠: أي من شجرة أبي قحزب وهي كعبة علي عليه

من تفسيرات السجدة:

١- نسخة من السجدة، وهو يرسمون أن علياً كرم الله وجهه في السجدة، ويصرون

أبعد بأنه صلات علي بنحو، بلرق نعان سوطه، أو تسمه، وإذا سمع أحدهم

صوت الرعد يقول: عشت السلام - أمير المؤمنين!

٢- ومن مناسبتهم أنه يعتصمون بأن عمداً يخطو مرجع إلى نخلة بساء، ويصرون

بقوله تعالى: فإن أنبياءهم من حيث أنزل القرآن في معادله، أي مرجعاً إلى

النداء.

٣- وفي أن الأمانة في حرب الأمانة... في حطب الأمانة إلى أن كان معلوماً في الآية ١٠: أي من

وعمود أن الظلوم مجهول هو أبو بكر عليه.

٤- وفي قوله تعالى: هو كمثل السحاب إذا نزل الإنسان انقرا، أي: يصرون النضال

بأنه عمر عليه.

ومن ناسخ الشيعة كتاب يسمى 'أمناء الأسماء' وهو مضمون، مذهب يدعي

الحق الكاذب من الصحف، وهذا التفسير مشتمل على تأويلات منه تأويلات الجاهلية،

فأدرك بعضها بالدين، ولائمة عليهم السلام، والشيعة، والفقهاء التي هي من بعد

وفراهم، وأخبار الأمان،... إلخ.

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَنكِحُوا نِسَاءَكُمْ﴾ (النساء: ١٧)، المراد من الله وكتب الله، ويقول

في قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلُوا نِسَاءَكُمْ﴾ (النساء: ١٧)، المراد أنهم يحضروا في القرعة، إلخ.

١١- امر كتاب أمروا في بلد عقائد الشيعة ص: ٦٥، والفرق بين الفرق الشيعة ص: ١٣٠.

فأنت ترى أنه قد حمل اللفظ الذي لا يجهل أحد على معان غريبة من غير دليل، وما حمله على ذلك إلا مركب القوي، والتعصب "الأعشى" فذهب، وذلك لا شك ضلال لا يقل عن ضلال الباطنية ولا البهائية: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (غير ٢٣).^(١)

تفسيرات الباطنية:

الباطنية قوم لا يقبلون لأحد بظاهر القرآن، وإنما يقولون: إن القرآن له "ظاهر وباطن"، ويعتقدون بأن المراد منه "الباطن" دون الظاهر، ويستدلون بقوله تعالى: ﴿فَضْرِبْ يَنَّهُمْ يَسُورَ لَهُ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (الحديد: ١٢).

وهم فرق متعددة نذكر أهمها:

- ١- الإسماعيلية: نسبة إلى "إسماعيل" أكبر أولاد حمطر الصلاف، وكانوا يعتقدون فيه الإمامة.
- ٢- القرامطة: نسبة إلى "قرمط" إحدى قرى واسط، وقد تزعمهم رجل منها اسمه "حمدان".
- ٣- السبعية: نسبة إلى "السبعة" لأنهم يعتقدون أن في كل سبعة منهم إماما يقتدى به.
- ٤- الحرورية: نسبة إلى "الحرمة"، وذلك لأن هؤلاء يستنجييون اغمرات والقراحش.^(٢)

تماذج عن تفسير الباطنية:

- ١- قوله تعالى: ﴿لَنُرَكِّبَنَّهُ ظُبًّا عَن طَبَقٍ﴾ (الشعراء: ١٩) قالوا: إنه إشارة إلى الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء عليهم السلام، أي لتسلكن سبيل من قبلكم بالغدر في الأئمة بعد الأنبياء.

- ٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ الْغَفِيرُ لَا يَزِيحُونِ لِقَاءَنَا أَلَيْبَ يَفْرَاقُ غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدَلُهُ﴾ (يوسف: ١٥) يفسرونه: ﴿أَوْ بَدَلُهُ﴾ أي بديل عليها، ومعلوم أن عليها لم يسبق له ذكر.

^(١) انظر كتاب "الرشعة في نقد عقائد الشيعة" ص: ٦٥. و"الفرق بين الفرق" للبغدادي، ص: ٢٣٠.

^(٢) انظر كتاب "الفرق بين الفرق" للبغدادي.

٣ قوله تعالى: ﴿إِن تَبَيَّنَ أَحَدُكُمْ كُفْرًا، لَمْ يَأْمُرْهُ أَنْ يَكْفُرْ، ثُمَّ ارْتَدَّى، كُفْرًا، لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ وَلَا لِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (ن: ١٢٧). هو: إن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم أمروا بالنبي أولاً، ثم كفروا حيث عرضت عليهم ولاية علي عليه السلام، ثم آمنوا بالبيعة علي عليه السلام، ثم كفروا بعد موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم ارتدوا كفراً بأخذ البيعة من كل الأمة. (١)

٤ قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّكَ بِأَعْيُنِنَا لَوْ نَشَاءُ لَمُكَرُّكُم بِغَرَفٍ مِّنَ الْمَاءِ﴾ (الزمر: ٢٧). والمراد من قوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَمُكَرُّكُم بِغَرَفٍ مِّنَ الْمَاءِ﴾: فلو شاء الله لكانت لكم غرقة بالماء.

٥ قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تُخْتَصِرُونَ﴾ (التوبة: ١٠٩). والمراد من قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تُخْتَصِرُونَ﴾: يعلم ما تختصرون من الصلوات والعبادات.

وختصر، فذهب السائفة وراء وضلال، وخفى إليهم من الجوس، وهو يؤكفون اختباءً بالفساد السر، ويؤولون الغسل شديد العهد، والتميم بأخذ أحد عن المأذون، و"الصوم" بالإمساك عن كشف السر إلى آخر ما لديهم من صلوات وعبادات.

وهذه لتأويلات الغائبة من أئمتنا وأئمتنا ما يصاب به الإسلام والمسلمون: لأنها تؤدي إلى نقص نبيات الشريعة حجراً حجراً، وتخص القرآن للعبادة من أئمتنا هؤلاء الأئمة، ومن فصل الله أن كتبهم في نضهر إلى الوجود، وأنهم يخفون هذا في نفوسهم، ويقتنون به بين كل حين وآخر، وهم إلى الزوال والغناء إن شاء الله: ﴿وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيَّ أَمْرٌ وَالْكَوْثَرُ نَاسٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (زمر: ١١٠).

♦ ♦ ♦ ♦

(١) قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيَّ أَمْرٌ وَالْكَوْثَرُ نَاسٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (زمر: ١١٠).

أشهر كتب التفسير بالربطية والدراسة والاستاذ

مع تعريف موجز عن أصحابها

أشهر كتب التفسير بالربطية

الترتيب	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ الولادة	القبيلة
١	جامع البيان في تفسير القرآن	محمد بن جرير الطبري	٢١٠ هـ	عمر الطبري
٢	نزهة العلوم	عبد بن محمد السمرقاني	٣٧٢ هـ	فقيه أصغر فقيه
٣	مكتشف ونهار	أحمد بن راجب التميمي البغدادي	٤٢٢ هـ	فقيه البغدادي
٤	معالم القرآن	الحسين بن محمود النعماني	٥١٠ هـ	فقيه النعماني
٥	نزهة المؤمن في تفسير الكتاب العزيز	عبد بن علي بن عمار الأندلسي	٥٢٦ هـ	فقيه بن عمار
٦	تفسير القرآن العظيم	إسماعيل بن عمر الدمشقي	٧٢٤ هـ	فقيه ابن كثير
٧	تفسير القرآن في ألف و ثلاثمائة	عبد الرحمن بن محمد النعماني	١١٢٠ هـ	فقيه بن عمار
٨	الدر المنثور في التفسير العظيم	جلال الدين السيوطي	٩١١ هـ	فقيه بن عمار

التعريف بكتب التفسير بالمأثور

١- تفسير ابن جرير:

مؤلفه: هو ابن جرير الطبري، وكنيته "أبو جعفر" ولد سنة ٢٢٤هـ، وتوفي سنة ٣١٠هـ، وكتابه من أهل التفاسير بالمأثور، وأصحها وأجمعها لأقوال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ويحتوي المرجع الأول للمفسرين، قال المنوي رحمته:

"كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحد مثله".

مزايا هذا التفسير:

١- اعتماده على المأثور من أقوال النبي ﷺ والصحابة والتابعين رضي الله عنهم.

٢- عرضه للأسانيد والأقوال الفروية، وترجيحه للروايات.

٣- إحصائه بالتامخ والنسوخ من الآيات، ومعرفة طرق الرواية: صحيحها وسقيمها.

٤- ذكره لوجوه الإعراب، واستنباط الأحكام الشرعية من الآيات الكريمة.

وأخيراً فهو كتاب عظيم جليل، حافل بالروائع إلا أنه يذكر أحياناً أخباراً بأسانيد غير صحيحة، ثم لا يثبت على عدم صحتها، كما أنه يسوق بعض أخبار هي من "الروايات الإسرائيلية"، وتفسيره مطبوع منتشر في الأنظار، وهو عمدة لأكثر المفسرين.

٢- تفسير السمرقندي:

مؤلفه: نصر بن محمد السمرقندي، وكنيته "أبو الليث" توفي سنة ٣٧٣هـ، وكتابه يسمى: "بحر العلوم"، وهو تفسير بالمأثور، يذكر فيه كثيراً من أقوال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، غير أنه لا يذكر الأسانيد، وهو مخطوط في مجلدين، وتوجد نسخة منه في مكتبة الأزهر.

٣- تفسیر الثعلبی:

مؤلف هذا التفسير: هو أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، الملقب بالفسر، كتبه "بو إسحاق"، وقد توفي سنة ٤٢٧هـ، أما ولادته فيست معرفة على وجه الضبط، وكتابه يسمى "الكشف والبيان عن تفسير القرآن".

يقر القرآن بما ورد عن السلف مع احتضاره للأسانيد اكتفاء بذكرها في مقدمة الكتاب، ويتوسع في الأبحاث النحوية والفقهية، وهو موزع بالتخصص والأخبار، ولهذا فإننا نجد في تفسيره "قصصاً إسرائيلية" قديمة في الغرابة، بل منها ما هو باطل قطعاً.

يقول ابن تيمية عنه: "الثعلبي في نفسه فيه خير ودين، ولكنه حاطب ليل"^(١). وتفسيره مخطوط غير كامل ينتهي إلى آخر سورة الفرقان، وهو موجود بمكتبة الأزهر، وبمبنى الكتاب محفوظ.

٤- تفسير البغوي:

مؤلف هذا التفسير: هو الحسين بن مسعود الفراء البغوي، الفقيه، المفسر المحدث، لقب بـ "عبيد الله"، كتبه أبو محمد توفي سنة ٥١٠هـ بعد أن جاوز الثمانين من العمر، وكان إماماً حليلاً، ورعاً زاهداً، جامعاً بين العلم والعمل، وقد عدّه الحسكي من أعلام علماء الشافعية.

وقال ابن تيمية في مقدماته في أصول التفسير: والبغوي في تفسيره مختصر من الثعلبي، ولكنه صدق تفسيره عن الأحاديث للوضوغة، والآراء لابتدعة"^(٢).

وقد طبع هذا تفسير مع تفسير ابن كثير. كما طبع مع تفسير الخازن، وتفسيره هذا فيه بعض "القصص الإسرائيلية"، ولكنه في جمته أحسن وأسلم من كثير من كتب التفسير بالمانثور.

^(١) أصول التفسير لابن تيمية ص: ١٩.

^(٢) المربع الثاني ص: ١٩.

٥ - تفسير ابن عطية:

مؤلف هذا التفسير: هو عبد الحق بن غالب بن عطية، الأندلسي، المغربي، انطراطي، وكنيته "أبو محمد"، ولد سنة ٢٨١هـ، وتوفي سنة ٥٤٦هـ.

كان ثوبيا ثغوبيا، أدبيا شاعرا على غلبة من الذكاء والهاء، وقد تولى القضاء بالأندلس في العصور الذهبية للإسلام، وتفسيره يسمى "المحرر الموحى في تفسير الكتاب العزيز"، وقد جمع فيه مؤلفه الأقوال التي ذكرها علماء التفسير بالتأليف، وعرض ما هو أقرب إلى الصحة منها.

وابن تيمية في فتاواه يعقد مقارنة بين تفسير ابن عطية، وتفسير الزمخشري، فيقول: "وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري، وأصح نقلا ونحوا وأبعد عن البدع: وإن اشتهر على بعضهما، بن هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح منه التفسير".^(١)

وهذا الكتاب على شهرته الواسعة، ومزايده الفريدة، لا يزال مخطوطا إلى اليوم، وهو يقع في عشر مجلدات كبار، ولعل أنه يوفق من يخرج لما هذا الكثر الثمين. ويطبعه ليجمع به نفعه.

٦ - تفسير ابن كثير:

مؤلف هذا التفسير هو الحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير، القرشي الدمشقي، كنيته "أبو الفداء"، ولد سنة ٧٠٠هـ، وتوفي سنة ٧٧٤هـ.

كان ابن كثير عبقريا شاملا، وعزرا ذاهرا في جميع العلوم، وخاصة في التاريخ والحديث والتفسير، وكان إماما جليلا، منفذا في أسلوب الكتابة وأتائيف، قال الذهبي عنه:

"الإمام المسمى، الخليل السارح، فقيه متقن، محدث متقن، مفسر نقال، وله تصانيف مفيدة".
وتفسيره هذا يسمى "تفسير القرآن العظيم" وهو من أشهر ما دون في التفسير بالتأليف، ويعتبر الكتاب الثاني بعد كتاب الطبري، اعتمد فيه مؤلفه بالرواية عن مفسري السلف، مروى

الأحاديث والآثار مسنده إلى أصحابها، وتكلم عن بعضها بالجرح والتعديل، ورد ما كان منها منكراً، أو غير صحيح، وهكذا يعثر تفسيره من أحسن ما كتب في التفسير بالمأثور.

وطريقته في التفسير أنه يذكر الآية ثم يفسرها بعبارة سهلة موجزة، ورأيها ما يشاهده من آيات أخرى، ويغاري بين هذه الآيات حتى يبين المعنى ويظهر المراد، وهو شديد العناية بهذا النوع من التفسير، الذي يسمونه "تفسير لقرآن بالقرآن".

وأنا أفضل طرعا مما حياء في مقدمة تفسيره، يقول - طيب الله تراه - :

«إن قال قائل: فعا أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: أن أصح الطريق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك، فعليت بالشدة وإنما شارحة للقرآن وموصحة له، بل قد قال الإمام الشافعي رحمه الله: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال الله تعالى: ﴿يُرِيتُمْ أَتْزَلُّكُمْ أَتَمَّنُّوا﴾. فإنا نزلنا الكتاب حتى يحكم بين الناس بما أنزلناهم به».

وقال رحمه الله: "لا وإن أثبت القرآن ومثله معه".

وشما ممتاز به ابن كثير أنه يبه إلى ما في التفسير بالمأثور من سكرات الإسرائيليات ويحذر منها، وعلى الجملة: فعلم ابن كثير يحللي بوصيحي لمن يقرأ تفسيره وتاريخه، وهما من خير ما ألف، ومن أفضل ما كتب، وتفسيره هذا من أصح التفاسير بالمأثور، وإن لم يكن أصحها جميعا.

٧ - تفسير الجواهر:

مؤلف هذا التفسير: هو الإمام اجنيل عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف المالكي، الجزائري المغربي، المتوفى سنة ٨٧٦هـ: وتفسيره هذا من التفسير بالمأثور، نقل فيه أقوال السلف الصالح، ومير بين الصحيح والضعيف، وتفسيره هذا مطبوع.

٨- تفسير السبوطي:

مؤلف هذا التفسير: الإمام الحجة الثقة جلال الدين السبوطي، صاحب المؤلفات الشهيرة، المولود سنة ٨٤٩هـ، المتوفى سنة ٩١١هـ، وتفسيره هو المسمى "الدر المنثور في التفسير بالآثار" قال في مقدمته: إنه لخصه من كتاب ترجمان القرآن، وهو التفسير المستد إلى رسول الله ﷺ، وهو مطبوع بمصر. وقد ذكر في كتابه الإتيان: أنه شرع في تفسير جامع لما يحتاج إليه من التفسير المنقولة، والأقوال المعقولة، والاستنباط، والإشارات، والأعاريب، واللغات، وكتب البلاغة، وعناصر البديع، وسماه "مجمع البحرين"، ومطلع البدرين، وهو غير هذا التفسير المسمى بالدر، وقد أحصيت مؤلفاته، فبلغت قريباً من خمس مائة، رحمه الله تعالى على ما قدم في سبيل خدمة العلم والدين.

• • • • •

مشاهير كتب التفسير بالدراية

أشهر كتب التفسير بالدراية "بالرأي"

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ الوفاة	الشهر
١	مفاتيح العجب	محمد بن عمر بن الحبيب الرززي	٦٠٦هـ	تفسير الرززي
٢	تأويل التنزيل وأسرار التأويل	عبد الله بن عمر البصراوي	٦٨٥هـ	تفسير البصراوي
٣	ناب التأويل في معاني التبريل	عبد الله بن محمد المعروف بالخازن	٧٦٦هـ	تفسير الخازن
٤	معارك التنزيل ومفاتيح التأويل	عبد الله بن أحمد السعفي	٧٠١هـ	تفسير السعفي
٥	غرائب القرآن ورفائف الفوائد	نظام الدين الحسن بن محمد انبساطي	٧٦٨هـ	تفسير انبساطي
٦	إرشاد الفقهاء للسبيل	محمد بن محمد بن مصطفى الطحطاوي	٩٥١هـ	تفسير أبي السعيد
٧	البحر المحييط	محمد بن يوسف بن حياث الأتاسي	٧٤٥هـ	تفسير أبي حبيب
٨	روح المعاني	شهاب الدين محمد الأنصاري البغدادي	١٢٧٠هـ	تفسير الأنصاري
٩	السراج المنير	محمد الشربيني الخطيب	٩٧٧هـ	تفسير الخطيب
١٠	تفسير الجلالين	أ - جلال الدين السيوطي	٨٦١هـ	تفسير الجلالين
		ب - جلال الدين السيوطي	٩١١هـ	

تعريف بكتب التفسير بالرأي

١- تفسير الفخر الرازي:

مؤلف هذا التفسير هو العلامة شيخ محمد بن عمر الرازي، المتوفى سنة ٦٠٦هـ، وتفسيره يسمى "مفاتيح الغيب"، وقد سلك في تفسيره مسلك الحكماء الإلهيين، فصاح أدلته في مباحث الإلهيات، ورد على المعتزلة والفرق الفسلفة بالمجرح للباطل، والرازيين ثقافتهم، وتعرض بشبهات المكرمين واجادلهم بالنقص والتفنيذ، وتفسيره من أوسع التفسير في موضوع علم الكلام، كما أنه في العلوم الطبيعية والكونية بام حلز، فقد تكلم من الأدلة والأبراج، وعن أسماء والأرض، والخيول والسماء، وفي أجزاء الإنسان بشكل واسع، وعرض نصرة حق، وإقامة التوازي على وجود الله عز وجل، وإرد على أهل الترفيع والصلال.

٢- تفسير البيضاوي:

مؤلف هذا التفسير هو العالم الحليل الشيخ عبد الله البيضاوي المتوفى سنة ٦٨٥هـ، وتفسيره يسمى "أبواب التفسير"، وهو كتاب حليل دقيق، جامع بين الرواية والدراسة، وهو يقرر الأدلة على منهج أهل السنة، وهو حجة ثبوت، وقد انرم أن يختم كل سورة بما روي في فصلها من الأحاديث غير أنه لم يبحر التصحيح، وله حول حكمة أشهرها حاشية أشباه المفسرين، وحاشية سعدني أميني.

٣- تفسير الخازن:

مؤلف هذا التفسير: الإمام عبد الله بن محمد، المشهور بالخازن، توفي سنة ٧٤١هـ، وتفسيره يسمى "كتاب التفسير في معاني التنزيل"، وهو تفسير مشهور - يعني بالمتأخر - يبين أنه لا يذكر السند، وعذره سببه لا تحفيده فيها ولا عموض، وله وثق بالتوسيع في روايات واقفهم.

وقد يذكر في تفسيره بعض الروايات الإسرائيلية؛ لينبئ على ما فيها من دطل، فيسبق القصة المطروحة. ثم يحكم عليها بالضعف أو الكذب، ولكنه في بعض الأحيان يسكت عنها، حتى يظن القارئ أن هذه الرواية صحيحة، وبالجملة فتفسره حسن رائع، لولا كثرة ما فيه من قصص وروايات لا يحسن ذكرها؛ لكونها ضعيفة أو مكذوبة.

٤ - تفسير النسفي:

مؤلف هذا التفسير هو الشيخ العالم الزاهد عبد الله بن أحمد النسفي، اثنى سنة ٧٠١هـ، وتفسيره يسمى "مدارك التنزيل وحقائق التأويل"، وهو تفسير حليل، متداول مشهور، سهل ودقيق، يعتبر بالنسبة لبقية التفاسير بالرأي لوجز تفسيره وأوسطه، قال فيه صاحب كشف الظنون: "هو كتاب وسط في التأويلات، جامع لوجوه الإعراب والقراءات، متضمن لدقائق علم اليدع والإشارات، مرشح لأفان أهل السنة والجماعة، خال من أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطول النمل، ولا بالقصر المحل".

٥ - تفسير السيمايوري:

مؤلف هذا التفسير: هو الشيخ نظام الدين الحسن محمد السيمايوري، اثنى ٧٢٨هـ، وتفسيره يسمى "غرائب القرآن ورجائب الفرقان"، ويمتاز هذا التفسير بسهولة عبارته وبحقيق ألفاظه مع خنوه من الحنن والتعبد، وقد عُني بأمرين يلتزمهما: الكلام على القراءات، والكلام على تفسير الإشاري، وهو مطبوع طبعة شهيرة على هامش تفسير ابن جرير، وهو مختصر لتفسير لتفسير الرزي مع تقديم كبير.

٦ - تفسير أبي السعود:

مؤلف هذا التفسير العالم المغربي، الحجة الفليلع، القاضي محمد بن محمد بن مصطفى الطحاري، المشهور بأبي السعود، اثنى سنة ٩٥٢هـ، وتفسيره هذا يعتبر من أحسن التفاسير وأجمعها؛

لأنه غنية في حسن التصريح، وجمال التعبير، كسلف فيه غير أسرار البلاغة لغزائية، وأحكام لمداينة، يستهوننا حسن تميزه، وبروهة سلامة تفكيره. ويروى عن ما أخذ منه به من فحمة بلاغة القرآن، والعلامة في بيان إيجازاته مع سلامة في الذوق، وبخافضة على عقائد أهل السنة، وبعد عن احتشام والتطويل، وتفسيره دقيق يحتاج لعمقها الخاصة من أهل العلم.

٧- تفسير أبي حيان:

مؤلف هذا التفسير هو الشيخ محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، المتوفى سنة ٥٩٩ هـ، وعصره يسمى "البحر المحيط"، وهو في ذاتي مختلفات فنيته، وقد جمع المؤلف فيه فريد لغوي من نوع، ومصرف، وبلاغة، وأحكام فقهية إلى غير ما هنالك، ويعتبر هذا التفسير مرجعاً هاماً من مراجع التفسير، وعبارته سهلة، ليس فيها تعقيد، أو غموض. ومنه "البحر المحيط"، يذكر ما فيه من علوم موسوعة تجمع عادة التفسير.

٨- تفسير الأوسى:

مؤلف هذا التفسير هو الإمام العالم المحدث شهاب الدين محمد بن محمود الأوسى المتوفى سنة ٩٧٠ هـ، متفني بطلان، حجة الأدباء، وقوة العلماء. ومرجع أهل الفقه والعرفان. كان رحمه الله على حسب عظيم من تفهم والعبد وسعة الإخلاص، وكثرة التمسك روح المعاني، جامع لأراء السلف روية ودربك مشتمل على أقوال أهل الحق، جامع لخلاصة ما سبق من التفسير، وهو شديد نقد لمبادئ الإسماعيلية. يعني بالتفسير الإشاري، ومع حوء البلاغة والبيان، ويعتبر تفسيره من غير المراجع في علم التفسير بالرواية والدراسة والإشارة.

أشهر تفاسير آيات الأحكام

الترقيم	اسم الكتاب والمذهب	المؤلف	تاريخ المؤلف	الشهرة
١	أحكام القرآن (مطهر)	أحمد بن أبي الفوارس	٣٧٠هـ	تفسير إمامي
٢	أحكام القرآن (شافعي)	علي بن محمد الطبري الكندي	٥٠٤هـ	تفسير إمامي
٣	إيضاح مسائل الدين (شافعي)	جلال الدين سيوطي	٩٠٠هـ	تفسير إمامي
٤	أحكام القرآن (مالكي)	محمد بن عبد الله الأندلسي	٥٤٢هـ	تفسير ابن العربي
٥	مفتاح الأحكام الشرعية (مالكي)	محمد بن أحمد بن روح القرطبي	٦٧١هـ	تفسير القرطبي
٦	حكم القرآن (شافعي)	مقداد بن عبد الله السيوبي	٧٧٠هـ	تفسير السيوبي
٧	أحكام القرآن (شافعي)	يوسف بن أحمد اللخمي	٨٣٢هـ	تفسير ابن العربي

أشهر كتب التفسير الإيماني

الترقيم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الشهرة
١	نزهة القلوب (مكرم)	سجل بن عبد الله المغربي	تفسير إمامي
٢	حقائق التفسير	أبو عبد الرحمن الحارثي	تفسير إمامي
٣	الكنوز المبيحة	أحمد بن إبراهيم السجستاني	تفسير إمامي
٤	— من محرم	محمد بن عبد الله المغربي	تفسير إمامي
٥	روح المعاني	شهاب الدين محمد الأندلسي	تفسير إمامي

أشهر تفاسير المغتلة والشيعية

الرقم	اسم الكتاب والمذهب	اسم المؤلف	تاريخ الوفاة	الشبهة
١	ميزبه القرآن عن طاعين (معتزلي)	عبد الجبار بن أحمد نعماني	٤١٥هـ	تفسير النعماني
٢	ألماني الشريف المرتضى (معتزلي)	علي بن أحمد الحسين	٤٣٠هـ	تفسير المرتضى
٣	الكشاف (معتزلي)	محمود بن عمر الزمخشري	٥٣٨هـ	تفسير الزمخشري
٤	مرآة الأنوار ومنكحة لأسرار	عبد العظيم نكاززاني	عمر معروف	تفسير المنكحة (شيعي)
٥	تفسير العسكري (شيعي)	أخمين بن علي الهادي	٦٦٠هـ	تفسير العسكري
٦	مجمع البيان (شيعي)	الفضل بن الحسن الطبرسي	٥٣٨هـ	تفسير الطبرسي
٧	المصابي (في تفسير القرآن) (شيعي)	محمد بن الشاه مرتضى النكاشي	٦٠٩هـ	تفسير النكاشي
٨	تفسير القرآن (شيعي)	سيد الله بن محمد الطوسي	١٢٤٢هـ	تفسير الطوسي
٩	بيان المعادة (شيعي)	سهراب محمد بن جابر الخراساني	١٣٦٥هـ	تفسير الخراساني

أشهر كتب التفسير في العصر الحديث

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الشهرة
١	تفسير القرآن الكريم	محمد رشيد رضا	تفسير القرآن
٢	تفسير المرقشي	أحمد مصطفى المرقشي	تفسير المرقشي
٣	محاسن التأويل	جمال الدين القاسمي	تفسير القاسمي
٤	في ظلال القرآن	الشيخ محمد سيد قطب	تفسير الظلال
٥	التفسير فواضح	محمد محمود الحجازي	التفسير الواضح
٦	تفسير الجواهر	عبد الطوفان حواري	تفسير الحواري
٧	تيسر التفسير	الشيخ عبد الجليل عيسى	تفسير عيسى
٨	المصحف المفسر	محمد فريد وحدي	تفسير وحدي
٩	المهذب والعرفان	أبو زيد الدنهوري	تفسير الدنهوري
١٠	صفوة البيان	حسن بن مخلوف	تفسير مخلوف
١١	فتح البيان	صديق حسن خان	تفسير حسن خان

وهناك تفاسير أخرى غير هذه التفاسير السابقة، لم نذكرها خشية الطول، والله الموفق،
والهادي إلى سواء السبيل.

الفصل الثامن:

المفسرون من التابعين

إذا ذكر المفسرون من التابعين، فنظم يعتبرون كثرة كثرة، وبعدهم في العدد أكثر من أصحابه. ذلك؛ لأن الذين اشتهروا بالتفسير من الصحابة لا يزيدون على عشرة - كما ذكر ذلك البيهقي في كتابه الإئذان -، وقد تقدم معنا أسماءهم، وذكرنا بيضة عن ترجمة مشاهيرهم. أما التابعون فقد كثر فيهم المفسرون، واشتهروا شهرة واسعة، وبيع فيهم رجال أفذاذ، اعتنى العناية كبيرة بتفسير كتاب الله تعالى، وعينهم نقل المفسرون معظم لأرباب، وقد انقسموا إلى طيقات ثلاث:

١- طبقة أهل مكة.

٢- طبقة أهل المدينة.

٣- طبقة أهل العراق.

١ أما الطبقة الأولى:

وهي طبقة أهل مكة، فقد أخذوا علومهم من شيخ المفسرين ورمضان القرآن سيدنا عبد الله ابن عباس رضاهما، وقد نقل البيهقي عن ابن تيمية رحمه الله أنه قال: أعلم الناس بالتفسير أهل مكة؛ لأنهم أصحاب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

وقد اشتهر فيهم عدد كبير، وظهر فيهم رجال أفذاذ، على رأسهم: مجاهد وعطاء، وعكرمة، وطاوس، وسعيد بن جبر، وسمرقوس بنرجمة موزعة حياة هؤلاء العلماء الأعلام:

مجاهد بن جبر:

أما مجاهد: فقد ولد سنة ٢١. وتوفي سنة ١٠٣ هجرية. وهو جد جبر، وكتبه أبو الخجاج

المكي: كان من أشهر العلماء في التفسير، قال عنه الذهبي: "شيخ الفراء والمفسرين بلا مراء، أخذ التفسير عن ابن عباس"^(١).

وكان من أخص تلامذته، ومن أوثق من روى عنه، ولهذا يعتمد البخاري كثيراً على تفسيره، كما يعتمد كثير من المفسرين على روايته، تنقل في الأسفار، واستقر في الكوفة، وكان لا يسمع بالعجوبة إلا ذهب، فنظر إليها.

تلقي بمجاهد تفسير كتاب الله عن شيخه الجليل ابن عباس، وقرأ عليه قراءة تفهم وتدير ووقوف عند كل آية من آيات القرآن، يسأله عن معناها، ويستفسره عن أسرارها، روى الفضل بن يسوع عن مجاهد أنه قال:

"عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أنف عند كل آية منه أسأله عنها: فيم أنزلت؟ وكيف أنزلت؟".

وهذا العرض من مجاهد حدث على شيعته الجليل، إنما كان طلباً لتفسيره، ومعرفة أسرارهِ ودقائقهِ، وتفهم حكمهِ وأحكامهِ، ولهذا قال الإمام النووي رحمه:

"إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به" أي يكفي هذا التفسير، ويعني عن غيره من التفاسير إذا كان راويه الإمام مجاهد.

عطاء بن أبي رباح:

وأما عطاء بن أبي رباح: فقد ولد سنة ٢٧ هجرية، وتوفي سنة ١١٤ هجرية، نشأ بمكة، وكان مفتي أهلها وعلمهم، وهو تابعي من أجلة الفقهاء، وكان ثقة في الرواية عن ابن عباس.^(٢) قال عنه الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان: "ما لقيت أحداً أفضل من عطاء بن أبي رباح"، وقال قتادة: أعلم التابعين أربعة عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالناسك، وسعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير... إلخ.

^(١) لمطر الأعلام: ١٦١/٦.

^(٢) الأعلام للزركلي: ٢٩٥.

توفي رحمه الله، ودفن فيها عن سبع وأربعين (٨٧) سنة.

عكرمة مولى ابن عباس:

وَمَّا عَكَرْمَةُ: فَقَدْ وَفَدَ سَنَةَ ٢٥ هَجْرِيَّةً، وَتَوَفَّى سَنَةَ ١٠٥ هَجْرِيَّةً.

قال عنه الإمام الشافعي رحمه الله: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة، وهو مولى ابن عباس رحمه الله، تلقى عنه على ابن عباس، وأخذ عنه القرآن والسنة، وكان رحمه الله يقول: لقد فسرت ما بين المرحومين^(١) لكل شيء، أحدثكم في القرآن، فهو عن ابن عباس.

جاء في تعريفه في كتاب: "الأعلام" ما يلي:

"عكرمة بن عبد الله البربري المدني أبو عبد الله مولى عبد الله بن عباس، تابعي، كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي: حذف ابتدأ، وروى عنه زهاء ثلاثمائة رجل، منهم أكثر من سبعين تابعيا: وخرج إلى بلاد المغرب، فاعتمد على أهلها، ثم عاد إلى المدينة المنورة، فطلبه أميرها، فتمسك به حتى مات، وكانت ودته بالمدينة هو، والشاعر المشهور "كثير عزة" في يوم واحد فقيل: مات أعلم الناس، وأشعر الناس"^(٢).

طاوس بن كيسان البصري:

وَمَّا طَاوُسُ: فَقَدْ وَفَدَ سَنَةَ ٣٣ هَجْرِيَّةً، وَتَوَفَّى سَنَةَ ٩٠ هَجْرِيَّةً، وَهُوَ "طَاوُسُ بْنُ كَيْسَانَ الْبَصْرِيُّ" اشتهر بتفسير كتاب الله تعالى، وكان آية في الحفظ والتبوع والذكاء، وآية في الورع والتفكير والصلاح، أدرك من الصحابة نحو خمسين صحابيا، وتلقى العلم عنه خلق كثير، وقد كان عابدا زاهدا، ورد أنه حج بيت الله الحرام أربعين مرة، وكان مستجاب الدعوة، قال فيه ابن عباس رحمه الله: إني لأظن طاوسا من أهل الجنة.

^(١) يزيد بن اللوحين. ما بين دفني المصعب.

^(٢) الأعلام للزركلي: ٤٣٦.

جاء في تعريفه في كتاب "الأعلام" ما يلي:

"طارس بن كيسان الخولاني الحمدي أبو عبد الرحمن، من أكابر التابعين تفقها في الدين، ورواية للحديث، وتفتشاً في العيش، وحرأة على وعظ الخلفاء والملوك؛ أصله من النمر، ومولده ومنشؤه بالبصرة، توفي حاجاً بالمزدلفة، وكان هشام بن عبد الملك" حاجاً تلث السنة، فصلى عليه، وكان يأوي بالقرب من الملوك والأمراء، قال ابن عيينة: متعبو السلطان ثلاثة: أبو ذر، وطاوس، والثوري".^(١)

سعيد بن جبير:

وأما سعيد بن جبير: فقد ولد سنة ٤٥ هجرية، وتوفي سنة ٩٤ هجرية، وهو من أكابر التابعين علماً وورعاً، وقد اشتهر بتفسير كتاب الله عز وجل، وكان حرداً شامخاً، وعلماً لامعاً، تناقل علمه أرحال، وسرت بذكره الركبان،

وقد قال سفيان الثوري: أخذوا التفسير عن أربعة: عن سعيد بن جبير، وبجاهد، وعكرمة، والضحاك. وقال قتادة: كان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير.^(٢)

كان آية في الحفظ، يحفظ ما يسمع، وقد شهد له ابن عباس بالحفظ حتى قال له: "انظر كيف تحدث عني، فإنك قد حفظت عني حديثاً كثيراً". وكان ابن عباس بعد أن فقد بصره إذا أتاه أهل الكوفة يسألونه قال: تسألوني، وفيكم ابن أمّ دهماء، يعني - سعيد بن جبير - يهتف.

وقد كان عابداً زاهداً، يحتم القرآن في كل ليلتين، وقد قرأ ذات مرة القرآن كله في ركعة واحدة في الكعبة.

وجاء في ترجمته في "الأعلام" ما يلي: "سعيد بن جبير، الأسدي الكوفي، أبو عبد الله، تابعي، كان أعلمهم عنى الإطلاقي، وهو حششي الأصل، أخذ العلم عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما،

١١ الأعلام: ٣/ ٢٢٢.

١٢ الإفراد: ١٨٩. "أي: أني أرى طحاج أن يتركه يصلي متحجاً إلى قبلة المسلمين.

ولما خرج عبدالرحمن بن الأشعث عنى عبدالملك بن مروان، كان سعيد بن جبير معه، فلما قتل عبدالرحمن ذهب سعيد إلى مكة، فقبض عليه وألبها "عالم القسري"، وأرسله إلى الخجاج مقلته، وكان الخجاج يخاطبه "بشقي" بن كسير، بدل سعيد بن جبير، قال أحمد بن حنبل: "قتل الخجاج سعيداً، وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى عظمته".

ووروي أن الخجاج لما أراد قتله أمر الجلال أن ينطلق به، فيضرب عنقه، فقال له سعيد: دعني أصلي ركعتين، قاتل الخجاج ماذا يقول؟ قال: يريد صلاة، فأبى إلا أن يصلي إلى المشرق^{١٠} - فبة النصارى - ثم أمر أن تضرب عنقه، ووجهه موجه إلى غير القبلة، فأداروا وجهه، فقال سعيد عندئذ: ﴿فَأَنبَتْنَا ثَلَاثًا لَّأَنَّهُ أَفْهَمُ وَهُوَ أَشَقُّ﴾ (البقرة: ١٠٥)، ثم ضربت عنقه وهو يردد: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وذهبت نفسه أثيرة الظاهرة إلى ربها تشكو إليه ظلم الخجاج، وحاد بأنفسه في سبيل عقيدته ودينه، رحمه الله وأسكنه جنة^{١١}.

٢- طبقة أهل المدينة:

وقد اشتهر منهم عندنا على رأسهم: "محمد بن كعب القرظي"، وأبو العافية الرباعي، وزيد بن أسلم^{١٢}.

ونحن نتحدث عن هؤلاء الثلاثة الذين اشتهروا بالمفسر من أهل المدينة المنورة، وتذنب كان هم أثر عظيم في نقل علوم الصحابة، سواء كان ذلك في الفقه، أو الحديث، أو التفسير، وإن كان هناك غيرهم ممن اشتهروا من التابعين، ولكن شهرة هؤلاء كانت أوسع، وأثرهم كان أظهر.

محمد بن كعب القرظي:

جاء في "مذهب التهذيب" للعسقلاني في ترجمته ما يلي:

"هو محمد بن كعب القرظي، أبو حمزة المسدي من حلفاء الأوس، سكن الكوفة، ثم المدينة،

^{١٠} انظر طبقات الكوفي لاس سعد: ١٦/٩٥٧.

روى عن جمع غفير من الصحابة وخاصة عن علي بن أبي طالب، وسعد الله بن مسعود رضي الله عنه قال ابن سعد: كان ثقة عالماً بكثير الحديث، ورعا صالحاً قال عون بن عبد الله: ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن مني، وبذا قرأ نخاعي في سبب تسميته بمأخرظي أن أده كان ممن لم يثبت يوم فريضة هرتك، وذلك أن النبي ﷺ قتل أرحال من بني قريظة حينما خانوا العهد، وغدروا بالرسول، فأمر بقتل مفتنهم، وترك الأطفال والنسباء. وقد كان من أفاضل أهل المدينة علماً وفقهاً، وكان يحدث في المسجد، فسقط عليه النصف وعلي أصحابه، فمات تحت الدم، وكان ذلك سنة (١١٧) هجرية رضي الله عنه.

أبو الحالبية الرباحي:

اسمه ربيع بن مهران، وكنيته أبو الحالبية وهو مولى امرأة من بني رباح، وهو تابعي ثقة من أهل البصرة، اشتهر بالفقه والتفسير، رأى أبا بكر، وغراً القراء على أبي بن كعب وغيره، وسمع من عمر، وابن مسعود، وعبيد، وعائشة، وغيرهم رضي الله عنه روي عنه أنه قال: قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم عشر سنين. وكان منذ حدثه سنة رابعا في العلم، مكث على صلبه حتى نزع فيه وفاة الأقران، وخاصة في التفسير، وقد كان من علماء رضي الله عنه يرفع عنه سريره وقربى أسفل منه، ويقول: هكذا العلم يزيد اشرف شرفا، ويجلس لمعلوك عن الأسورة، مات سنة ٩٣ هجرية عن عمر يناهز الثمانين، رضي الله عنه.

زيد بن أسلم:

هو زيد بن أسلم العدوي العمري، يكنى: أبا أسامة، وهو فقيه محدث من أهل المدينة، كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته، واستقدمه الوليد بن يزيد في جماعة من فقهاء المدينة إلى دمشق

مستحباً في أمر، وكان ثقة كثير الحديث، له حلقة في المسجد النبوي، رآه كذب في "التفسير" رواه عنه ولده "عبد الرحمن"، وقد كان رجلاً مهيّباً.

قال ابن عجلان: "ما هبت أحدٌ قط هبتي يزيد بن أسلم".

وحدث ذات يوم بحديث ولم يسنده، فسأله رجل يا أبا أسامة! عمن هذا؟ فقال: يا ابن أخي! ما كنت تذاق أسننها.

وكان له حلقة كسرة في المسجد النبوي الشريف، وكان علي بن الحسين يجلس إليه، فيستمع له ويترك مجلس قومه، ف قيل له في ذلك: ترك مجلس قومك إلى عبد عمر بن الخطاب - حيث كان مولى لعمر - فقال عبي: إنما يجلس للرجل إلى من ينفعه في دينه، توفي بحد باندبنة المورة سنة ١٣٦ هجرية.^(١)

٣- طبقة أهل العراق:

وقد اشتهر منهم عدده وعلى رأسهم: الحسن البصري، وسروق بن الأجدع، ونفاعة بن دعام، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني، ومرة الهمداني.

وحس تحدث عن درجة هؤلاء الأعلام مشي من الإيجاز، فنقول: ومن الله نستمد نعمون.

الحسن البصري:

هو الحسن بن يسار البصري، إمام أهل البصرة، وحر الأمة في زمانه، يكنى: أبا سعيد، وهو أحد العلماء، والفصحاء، والشجعان، وأتسك، ولد بالبصرة المورة، ونسب في كنف^(٢) علي ابن أبي طالب، واستكنه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية، فسكن البصرة، وعصمت هيته في القلوب، فكان يدخل على الولاة، فأمرهم وينهاهم، لا يخاف في الحق لومة لائم، رأى مائة وعشرين صحابياً، وكان من أقصاح أهل البصرة: وأعيدهم، وأفقهم.

^(١) تذكرة الحفاظ للذهبي، ١/ ٦٦.

^(٢) الكنف: حذاء الشئ، لاطلاق جمع أكفاف، يقال: كفته في كنفه أي أحاط به.

قال الفراءني: كان الحسن البصري أنشبه الناس بكلام الأنبياء، وأقرهم هدياً من الصحابة، وكان في غاية من الفصاحة، تنصّب الحكمة من فيه.

قال أيوب: ما رأيت عيناى رجلاً قط كان أفقه من الحسن البصري، كان يعني^(١) الحكمة، ويطلق عما، وكان إذا وعظ، أبكى الحاضرين كأنما كان في الآخرة، ثم جاء منها، فهو يخبر عما رأى وعاش، ولهذا فقد اشتهر بالوعظ، وكان رفيق القلب، فصيح اللسان.

وكان يحدث بالأحاديث لنووية، فإذا حدث عن علي بن أبي طالب لم يذكره خشية من بطش الحجاج، قال يونس بن عبيد: سألت الحسن، قلت: يا أبا سعيد! إنك تقول قال رسول الله^(٢) وإنك لم تذكره؟ قال يا ابن أخي! لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد قبلك، ولولا منزلتك مني ما أنكرتلك، إني في زمان كما ترى - وكان لي عمل الحجاج - كل شيء سمعته أقول: قال رسول الله فهو عن علي بن أبي طالب غير أني في زمان لا أستطيع أن أذكر علياً.^(٣)

ولما روي عمر بن عبد العزيز الخليفة كتب إليه: إني قد ابتليت بهذا الأمر، فانظر لي أعواناً يعينوني عليه، فأجابه الحسن: أما أبناء الدنيا، فلا تريد، وأما أبناء الآخرة، فلا يرشدونك، فاستعن بالله على أمرك.^(٤)

توفي بالبصرة سنة ١١٠ هجرية، ودفن فيها بكنة رحمة واسعة.

مسروق بن الأجدع:

مسروق بن الأجدع المصداقي، كوفي، تابعي ثقة، من أصحاب ابن مسعود الذين نقلوا لنا هدي الرسول ﷺ، وهو عابد قبيح يكنى: أبا عائشة، وقد اشتهر بالتفسير، ورواية الحديث، كان أبوه أفرس فارس باليمن، وكان حاله عمر بن مديكرب.

^(١) يعني: وعياً، وعى الشيء: جمعه في الوجداء، وعى الحديث: حفظه وفهمه، وعى الأمر: أدركه عن حقيقته.

^(٢) التميمي التيهذيب: ٢/٢٦٢.

^(٣) الأعلام: ٢/٢٤٢.

وقد نولي القضاء، فلم يكن يأخذ على القضاء رزقا، وكان قائما زهدا، راضيا بما قسم الله مع أنه كان صاحب مبال، جهته امرته يوما فقال: يا أماه عائشة! إنه ما أصبح اليوم بعيال رزق، فبسم، ثم قال: والله ليأتينهم الله برزق، فرقة الله رزقا واسعا. روي عنه أنه لقي مسر ابن الخطاب رضي الله عنه، فسأله ما اسمك؟ قال: مسروق بن الأجدع، فقال له عمر: الأجدع شيطان، أنت مسروق بن عبد الرحمن، فكان بعد ذلك يقول: أنا مسروق بن عبد الرحمن.

قال عبي بن المديني - شيخ البخاري -: ما أقدم على مسروق من أصحاب عبد الله بن مسعود أحدا، صلى خلف أبي بكر، ولقي عمر وعثمان رضي الله عنهما.

شهد القادسية مع إخوته الثلاثة، فقتلوا يومئذ بالقادسية، وخرج مسروق، فسلت يده، وله طريقة لطيفة في التصح والوعظ، خرج يوما ومعه بعض تلامذته، فارتقوا بهم على كناسة في الكوفة، فقال: ألا أرىكم الدنيا؟ هذه هي الدنيا: أكلوها فأفقرها، لبسوها فأفقرها، ركبوها فأفقرها، سكرها فدماءهم، واستحلوا فيها عمارتهم، وقطعوا بها أرحامهم.^١

سئل يوما عن بيت شعر، فقال: أكره أن أرى في صحيفتي شعرا.

فتادة بن دعام:

ولما فتادة: فهو أبو الخطاب السدوسي البصري، ولد في البصرة سنة ٦١، وتوفي سنة ١١٧ هجرية، وعمره ٥٥ سنة. روى عن أنس بن مالك وسعيد بن المسيب، وجمع من الصحابة رضي الله عنهم. وكان قوي الحفظ، شديد الذكاء، يروى عنه أنه قال: "ما قلت لحديث قط: أعبد علي، وما سمعت أذناي شيئا إلا وعاه قلبي". ويروى أنه دخل على سعيد بن المسيب، فجعل يسأله أباها، وأكثر عليه من السؤال، فقال له سعيد: أكل ما سألتني عنه تحفظه؟ قال: نعم، فتعجب منه، فقال له فتادة: سألتك عن كذا، فقلت فيه كذا، وسألتك عن كذا، فقلت فيه كذا، حتى أورد

^١ القديب التهذيب: ٦/٨٦.

عليه جميع ما سمعه منه، فقال له سعيد: ما كنت أظن أن الله خلق مثلك، وقد عنه مرة: ما أناني عراقياً أحسن من فتاة.

وفُرئت عليه مرة صحيفة جارية، فحفظها.^(١)

وقد كان ضربه فاقد البصر. حيث ولد وهو أعشى، ولكنه كان أبه ي حفظ ولسوع والدكاه. وكان أحمد بن حنبل يظن في ذكره والثناء عليه، وينشر من علمه وفقهه. وكان إماماً في التفسير والفقه، ولكنه أخذ عليه أنه كان يأخذ عن كل أحد، حتى قال به: «نشعي: فتاة حاطت ليل»^(٢).

توفي سنة بالبصرة، ودفن بجاء ولما مات بكى عليه أهل البصرة.

عطاء الخراساني:

قال الحافظ الأصمعي: كان مولده سنة ٥٠، ووفاته سنة ١٣٥ هجرية. وهو عطاء بن أبي مسلم الخراساني، يكنى: أباً عثمان، وكان ثقة صدوقاً، عابداً زاهداً، كثير العبادة والשתغل، كان يحكي الليل فحماً وصلوة. روى عبد الرحمن بن يزيد أنه كان يحكي الليل صلاة، فإذا ذهب من الليل ثلثه، أو نصفه، نادى يا فلان، ويا فلان قوموا، فقوموا فقوموا وصلوا، وإن قيام الليل وصيام النهار أيسر من شراب الدبدر.^(٣)

وكان يفتي بشر العلم، وإذا لم يجد أحداً من تلامذته يحدّثه ذهب إلى المساكين، فحدثهم خوفاً من الرعب فكانهم العلم.

وقد اشتهر بالهكمة والحديث والتفسير، وكان على غاية من الزهد والورع.^(٤)

^(١) الخليل: ٣٥١/٨.

^(٢) نفس المراجع، الجزء ١، الصفحة

^(٣) انظر "تدبير الكمال" للبرقي: ٤٣٩/٤.

^(٤) انظر "تدبير التهذيب": ٨٨/١٠.

مرّة أهداني:

هو مرة بن شراحيل المصنعي. أدرت عددا من الصحابة غير قليل، ويكنى: أبا إسحاق، وهو المعروف مرّة الطيب، ومرّة الخير. لُقب بدلت لعبادته، كالأعباد، ورعا، ورهنا صالحا. قال النحلي: كان يصلي في اليوم والليلة خمسين ركعة، وهم تابعي ثقة، توفي سنة (٧٦) هجرية، رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

هؤلاء هم أعلام المفسرين من التابعين، استمدوا علومهم، وقبوا معارفهم من الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأخذ تابعوا التابعين. ومن بينهم من العلماء العالمين. وهكذا حفظ دين الله، وكتبه، وشرعيته، وعلومه ومعارفه، سنيمة كاملة عن طريق اثنين والثلاثين، جيلا عن جيل. مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا إِنَّا لَنَحْبِطُونَكُمْ﴾ (الحج: ٢٠).

ولقد صدق الرسول نكرهم فيما نبأ عنه، وأخبر حيث قال: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدويه، يعمون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين".

وهكذا حفظ الله كتابه بحفظ هؤلاء الرجال الأعلام، والثقات الأفاضل، الذين كرسوا جهودهم في خدمة العلم والدين، فحزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الحزاء، وأسكنهم فسيح جناته. آمين.

تنبيه:

يلاحظ على تفسير التابعين رضي الله عنه، ودخبت إلى أقوالهم بعض الروايات الإسرائيلية، واختلط الصحيح بالغير، ونقل على أسانهم بعض الروايات التي لم تثبت، فبني تشبه عند نقل أقوالهم إلى الصحيح منها، وأن يرجع الإنسان إلى المراجع الموثوقة من كتب التفسير، كتفسير من جريد وغيره من التفاسير الموثوقة.

قال السيوطي في كتابه "الإتقان" بعد أن ذكر أشهر المفسرين من التابعين ما نصه:

"فهؤلاء مدعاء المفسرين، وعلمت أقوالهم تنقوها من الصحابة، ثم بعد هذه الصفة أنفت
فما من تجمع أقوال الصحابة والتابعين، كتفسير سفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وسعيد
بن الحجاج، ويزيد بن هارون وأخريين، ثم جاء بعدهم ابن جرير الطبري، وكتبه أهل
التفسير وأعظمها".^١

الفصل التاسع:

إعجاز القرآن

العناية بدراسة القرآن العظيم:

له يحدث في تاريخ البشرية أن أمة من الأمم اعتنت بكتابتها لتسماري كما اعتنت هذه الأمة الحميدة، ولم نسمع عن كتاب مقدس نال من الحفظ والرعاية، والإجلال والإكبار، كما نلته هذا الكتاب المجيد. معجزة "محمد" الخالدة، وحثته الجادة، ودعوته إلى الناس أجمعين.

ولا عجب أن ينال القرآن العظيم هذه المنزلة الرفيعة، ويختل من نفوس المسلمين تلك المكانة الجليلة، ذلك لأن الأحداث التي راقت نزول هذا الكتاب المقدس، تجعله يتبوأ مكان الصدارة بين جميع الكتب السماوية، ويقوق كل ما جاء به الأنبياء والمرسلون، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من هداية وإصلاح، وزينة وتعليم، وسمو وتشريع، ولقد أحسن وأبدع من قال:

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أهدى وأقوم قبلا
لا تذكروا الكتب شتوانف عبده طلع الصباح فأطفيء القنديلا

القرآن معجزة "محمد" الخالدة:

وقد حوت حكمة الله الأزلية أن يزيد أياته ورسله بالمعجزات الباهرات، والدلائل الواضحات، واتحجج وتبرهن بالدعوة التي تنش على صدقهم، وعلى أنهم أنبياء مرسلون من عند الله العزيز القدير، وقد خص الله تبارك وتعالى نبينا ﷺ بمعجزة العظمى القرآن الكريم. "ذلت النور الرباني، والوحي السماوي، الذي ألقاه على قلب نبيه قرآنا عربيا غير ذي عوج، يتلوه آتاء الليل وأطراف النهار، ولذي أحبا به أجيالا من القدم، كانت في عداد الموتى، فأحياها الله نور هذه الفسرة،

وهداهم اقوام طريق واغسلهم^(١) من الخصبين^(٢) فجعلها حج أمة أخرجت للناس، وصديق الله
حيث يقول: ﴿وَمَنْ كَانَ ثَبَاقًا حَيَّانًا وَحَقْلًا لَهْ نُورًا يَجْنِي بِهِ عَى لِبَاسٍ كَثِيرٌ مِثْلُهُ فِي الطَّلَبَاتِ
لَيْسَ يَخْرُجُ مِنْهَا كَذِبٌ وَلَيْسَ يَلْكَأُ مِنْهَا تَائِبًا يَقُولُونَ لَهُ﴾ (الأنعام: ٦٢).

لقد أنبأ القرآن أممًا، وأُوحِدَ بمجتمعها، وأُثِفَ جيلًا لم يعرف له التاريخ مثيلًا، فأخرج من العرب الذين كانوا زعماء الإمل والعجم، سادة الشعوب والأمم، فملكوهم الدنيا حتى حكموا أفضي المعمورة؛ ولكن ذلك تفصيل هذا القرآن، معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين، وفي ذلك يقول أمير الشعراء:

أُخْبِرَكَ بِمَعْنَى دَعَا مِثْلًا عَصَامَ نَهْ وَأَنْتَ أَحَبُّنَا أَجْلًا مِنْ أَحَدٍ

وإن كانت معجزة الأنبياء السابقين معجزات "حسية" تتناسب مع العصر والزمان الذي بعثوا فيه، كمعجزة موسى عليه السلام حيث كانت اليد، والعصا؛ لأنه بُعث في زمنٍ كثر فيه السحر، واشتهر فيه السحر. وكذلك معجزة عيسى عليه السلام حيث كانت بإحياء الموتي، وإبراء الأكمه^١ والأبرص، وإلحاح عن بعض المتقيبات؛ لأنه بُعث في عصر كثر فيه الطب والحكمة، وظهر فيه الأطباء شديعون؛ فأنهم عيسى بن مريم بما أدهشهم وأعجزهم من شفاء المرضى، وإحياء الموتي، وإبراء العمى، إلخ، فكما انقسم

أقول: إذا كانت معجزات الأنبياء السابقين معجزات عادية حسية، فإن معجزة محمد بن عبد الله - معجزة روحية عقلية، وقد حوته الله بالقرآن، معجزة العقل الباطني على الزماني لبراهها بدوى القلوب، والبصائر، فيسبروا بضرائها، ويسمعوا عليها. في المستقبل والحاضر، وقد ورد عن سيد المرسلين ﷺ أنه قال:

«الفتيل الشيء منه يفتل الشيء منه» أسير؛ رعبه، فذل يفتل الجمع من القوم ويخل الخربق من الماء.

١١ اغتصب. من سلا من الأرض.

[illegible]

"ما من شيء من الأنبياء إلا أعطيت من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا" (دواء السعدي).

أجل... هذا الوحي السماوي الذي أنقاه الله على قلب نبيه الأمين؛ ليكون ضياءً ورحمة للعالمين، هو معجزة الإسلام الخالدة؛ وحجته الباقية، تقوم على فم الدنيا هذه بصدى الرسول، فاعلمت بعظمة الإسلام، وحلوت هذا الدين، بينما ذهبت المعجزات الحسية، ومضت مع أحداثها الزمنية، وتلاشت من الوجود بعد وفاة الأنبياء الكرام، الذين أتوا بها، فلم بعد لها وجود وبيان إلا في هذا القرآن الذي أختبر عنها؛ فكان له الفضل الأعظم عليها، سابقا ولا حقا، والله در القائل حيث يقول:

جاء النبيان بالآيات فأنصرفت وجئنا بكتاب غير متصرف

آياته كلما طال المدى جدد بزئنه جمال العبق والقدّم

الآيات: المراد بها المعجزات، جمع أية بمعنى المعجزة. أنصرفت: أي ذهبت بدهانهم.

قال العلامة الزرقاني: ^(١)

"وهنا نلتم النظر إلى أن القرآن بما اشتمل عليه من المعجزات الكثيرة، قد كتب له الخلود، فلم يذهب بذهاب الأيام، ولم يمت بموت الرسول ﷺ، بل هو قائم على فم الدنيا يحاج كل مكذب، ويتحدى كل منكر، ويدعو أئمة العالم جمعاء إلى ما فيه من هداية الإسلام، وسعادة بني الإنسان، ومن هذا يظهر الفرق جليا بين معجزات نبي الإسلام ﷺ ومعجزات إخوانه الأنبياء عليهم أزركى الصلاة وأتم التسليم، فمعجزات محمد ﷺ في القرآن وحده آلاف مؤلفة، وهي متمدة بالبقاء إلى اليوم، وإلى ما بعد اليوم، حتى يروى الله الأرض ومن عليها؛ أما معجزات سائر الرسل: فمحدودة العدد، قصيرة الأمد، ذهبت بذهاب زمانهم وماتت بموتهم، ومن يطلبها الآن لا يجدها إلا في حجر كان، ولا يسلم شاهد له إلا هذا القرآن.

^(١) انظر "مناهل العرفان": ٢٣٢/٢.

«نبت نعمة بئها القرآن على سائر الكتب والرسول، وما صنع من الأدباني كلفه، قال تعالى: «وَهُوَ الرَّؤُوفُ الْيَّودُ» (الأنعام: ١٠٨).
وقال عز اسمه: «مِنْ أَوَّلَ شَيْءٍ سَأَلْتُنِي إِيَّاهُ مِنْ ذَنْبِهِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ كُلُّ أُنَاسٍ لَدِي مَعِي مِزَانٌ» (الأنعام: ٢٨٥).

فقد لم تكن معجزة سيد الأنبياء معجزة حصيد: نفع الجسم وتنبؤ على النفوس، فلم يكن عصا تنقلب حبة كعصا موسى خشك، أو نار تصور به دا، وسلاما كالدار التي ألقي فيها الخليل، أو زلفة تخرج من صخر أصم ولها رغاء كغافاة صاخطة، أو مريضاً يشفي، أو أعمى يراه كما فعل عيسى -يا-، وإنما كانت معجزة «شفلية خالدة» لأنها خلاصة الرسالات، فهي حادثة خلود الدهر، ببقية بقاء الإنسان.

ويقول الشيخ محمد البنا ما نصه:

«وإذا كان قد جرت حواشيق لمعادت على يد النبي ﷺ غير القرآن، كما ورد في صحاح السنن، فإن النبي ﷺ لم يتحدث بها من كان الشك في القرآن وحده، وبهذا كان القرآن معجزة الرسول التي تؤيد رسالته، وتشرق في قلوب الذين آمنوا من المؤمنين.

ورسالة النبي ﷺ شاملة خالدة؛ لأنها خلاصة الرسالات، فكانت الحكمة أن تأتي معجزة مع نوع رسالته، بد كل شيء سبق، كذا يأتي رسالة لقوم بأعيانهم، تنهي يد يأتي بعدها من الرسالات، ولم يكن من الممكن أن تكون معجزة حاتم الأبياء، أمراً حساباً يراه جماعة حين يضع، فإذا لم يوافق الرسول بالرفيق الأعلى، انقضى ذلك الأمر المخصوص، ولا يراه أحد من بعده؛ لأن الأمور المخصوصة لا تبقى مع نوع هذه الرسالة، ولا مع خلودها، لقد كان القرآن معجزة لسان جميعه، ولذلك جاء من نوع آخر غير نوع المعجرات السابقة، وقد جاء للعالم بعد أن اكتملت اندارك البشرية، والرفيق الحكيم الإسلامي؛ لأن رسالة سيدنا محمد ﷺ وافقت البشرية بعد أن أفركت رشدها، وبكامل النمو العقلي في مجموعها، فكانت معجزة تدرك «بالعقل»، ولا تحتاج

إلى أي نوع من الحس، فهي معدن خالدة، يدرك سموها الإنسان في كل الأجيال، وهي معجزة يخاطب بها الناس جميعاً^{١٢}.

معنى إعجاز القرآن.

الإعجاز في اللغة العربية هو: سنة المعجز إلى المعير، قال تعالى: هَذَا نِعْمَتُ اللَّهِ عَلَى الَّذِينَ هَؤُلَاءِ رَعَوْا وَإِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ. والمعجزة لغة معجزة، لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، لأنها أمر خارج عن حدود الأسباب المعروفة.

وإعجاز القرآن معناه: إثبات عجز البشر - متفرقين وعجميين - عن الإتيان بمثلها، وليس المقصود من "إعجاز القرآن" هو تمييز البشر بذات التمييز، أي تعريفهم بمعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن، فإن ذلك محرم لدى كل عقل، وإنما الغرض: إظهار أن هذا الكتاب حق، وأن الرسول الذي جاء به رسول صادق، وهكذا سائر معجزات الأنبياء الأكرام التي يعجز البشر عنها. ليس الغرض منها إلا إظهار صدقهم وإثبات أن ما جاءوا به إنما هو بروحي من الحكيم العليم، وتزويل من الإله الباطل، وأنه إنما ينفون رسالات الله، وليس هم إلا الإخبار والتبليغ.

فالمعجزات إنما يراهون من الله سبحانه إلى عباده، بصدق رسله وأتبيائه، فكان الله تعالى - بواسطة هذه المعجزة - يقول: صدق عندي فيما بَلَغَ عني. وأنا أرسلته: لئبلعكم ذلك، والذليل على صدقه أن أجري على يديه خوارق العادات، مما لا يستطيع أحد منكم أن يأتي بمثلها، وما ليس بمقدور أحد من الناس أن يجزبه في مثل هذا الأمر المحجب ذلك هو معنى الإعجاز، وذلك هو مفهوم المعجزة.

متى يتحقق لإعجاز؟

والإعجاز لا يتحقق إلا إن توافرت أمور يجعلها فيما يلي:

- أ- الأول: التحدي، أي: طلب الجائزة والمعجزة.
 ب- الثاني: أن يكون الدافع إلى ردّ التحدي قائما.
 ج- أن يكون الدافع متغيبا.

ولنوضح هذه الأمور الثلاثة ببعض الأمثلة، فنقول:

هذا القرآن العظيم 'معجزة محمد الكبرى' الذي تحدّى الله به العرب حاضرة، والداين أجمعين، يأتي به نبي أمي. لا يعرف القراءة والكتابة، ولم يدرس في مدرسة، أو يلقى علومه في جامعة من الجامعات الكبيرة، ولم يثبت عنه أنه كان قد تلقى شيئا من العلوم والمعارف عن بعض السابقين من العلماء، أو المبرزين في صنوف الشاعرة والعرفان، ولم يتصل بأحد من علماء أهل الكتاب، اليهود والنصارى، حتى يطالع على أبياء الأمم السابقين، وأخبار الأنبياء المتقدمين.

حازهم بهذا الكتاب الخيد متحدٍ لهم - وهم أئمة انصاحه، وفرسان البلاغة - وطلب منهم معارضة القرآن بعبارة قوية، ولحقات وإحزاف، تستفز الغزوة، وتدفع إلى أليافه، وتزلّ معهم من التحدي بجميع القرآن إلى التحدي بعشر سور مثله، ثم إلى التحدي بسورة واحدة من مثله، وهم في كل هذا واجهون،^(١) لا ينسبون إليه شقة، وهم دعم هذا التحدي ينتقلون من عجز إلى محجز، ومن هزيمة إلى هزيمة.

أفيس في هذا أكثر شاهد وبرهان على إعجاز القرآن؟

أسلوب القرآن في التحدي:

جاء التحدي في القرآن الكريم بصور متعددة، وأساليب متنوعة، فخر كيان العرب هرا، وتحجّهم إلى ميدان جرا، وفي أسلوب منع أخاد، يملك عنهم شعورهم، ويستحوذ على أفتدّهم سحره وجماله ورواقه.

(١) واجهون من وجههم وهما ووجهوا: سكت على عيط وسكت من الكلام لشده المر، وسكت فزع.

تعد أعدادهم عبي أن يأتوا بمثل القرآن، معجزوا وولوا الأديار مع ألفه مرسا الفصاحة، وملوك ليمان، ففتن معهم إلى عشر سور من مثله مفتريات: فانقطعوا واندهسوا، وعجزوا عن لإتيان تلك السور العشر.

فتن معهم إلى ما هو أسهل وأيسر إلى لإتيان عشر "سورة واحدة" فقط من سور القرآن، فلم يتقدم واحد منهم إلى حلبة الابدان...، وبذلك سجل عليهم القرآن العجز والخرعة، ولنت معجزة محمد النبي الأمي على أن هذا القرآن تنزيل من رب العالمين: ﴿وَلَقَدْ نُنْزِلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزْلًا بِهِ زُورٌ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ لَبَّاسًا عَرِيسًا مِثْلَ الدُّرِّ الْكَامِنِ﴾ (الشعراء: ١٩٦-١٩٧) وصدق الله حيث يقول: ﴿قُلْ نَزَّهَ دُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رُكُوتِ الْمَلَكُوتِ لَبَّاسًا عَرِيسًا مِثْلَ الدُّرِّ الْكَامِنِ﴾ (النحل: ١-٢).

أنواع التحدي:

والتحدي الذي جاء في القرآن الكريم كان على نوعين:

١- التحدي العام

٢- التحدي الخاص.

أما الأول: فقد ورد لجميع الخلق بما فيهم العلماء، والعابرة، والعلماء، والحكاماء، وجاء لجميع البشر بدون استثناء عربهم وعجمهم، أيضهم وأسودهم، مؤمنهم وكافرهم.

استمع إلى هذا التحدي الصارخ في سورة الإسراء: ﴿قُلْ لِّبَنِ الْخَمْسَةِ الْإِنْسِ وَالْجِبِّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِشَيْءٍ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فِتْنًا﴾ (الإسراء: ٨٨).

وأما الثاني: التحدي الخاص: فقد جاء للعرب خاصة، وعلى الأخص منهم لكفار قريش، وقد ورد هذا التحدي على نوعين أيضا:

١- التحدي المكلف: وهو التحدي لجميع القرآن في أحكامه وروعه وبلاغته وبيانه.

٢- التحدّي الجزئي: وهو التحدّي بمثل سورة من سور القرآن الكريم ولو من أقصر سورة كمسورة الكوثر.

هذه الآيات الكريمة "قرآن مثله" أي: باتوا بقرآن يشبه هذا الذي جاءهم به محمد رسول الله، والذي رغبوا فيه، وتقوله على الله، كما ورد التحدي بالقرآن كله في سورة القصص في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِثْلِ الْقُرْآنِ﴾ (القصص: ٢٤).

فقد طلب منهم أن يأتوا بكتاب كامل غير هذا الكتاب الكريم، فإذا لم يستجيبوا لدعوته، فليأثموا هم أناس متعبدون، ويعبدون الهوى، ويسبون على غير هدى الله.

أما التحدي الحزبي: فقد ورد في سورة "هود" في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ فَسُوفَ يَكُونُوا آفَافًا عَلَيْكُمْ﴾ (هود: ١٠٣).

كما ورد التحدي بأقل من ذلك، نُداهم بسورة واحدة من أقصر سور القرآن، وجاء هذا التحدي مقروناً بالتحجير للقاضح، في الحاضر والمستقبل، مسحلاً عليهم ذلك العجز بما يثير حفيظهم، ويفرهم بتكليف المعارضة، لا سيما بعد قولهم للضبيحة ودعوهم الكاذبة حين قالوا: ﴿لَنْ نَمُوتَ نَفْلًا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأعداء: ٣).

حَاسِبُكُمْ التَّحْلِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى سَيِّدِنَا فَاصْبِرُوا ۚ إِنَّا بِمَا نَفْعَلُونَ مُتَّبِعُونَ﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ (البقرة: ٢٤).

قال العلامة الفرطى في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن": قوله: ﴿فَبِأَن تَقُولُوا﴾ أى: تعيقوا ذلك فيما بأن، وفيه إثارة لسمهم، وتحريك لغوهم، ليكون مضى، ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾ أى: تعيقوا ذلك فيما بأن، وفيه إثارة لسمهم، وتحريك لغوهم، ليكون مضى،

مخبرهم بعد ذلك مُدَّخ. وهو من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها. ^(١)
أما الأمر الثاني وهو: قيام المقضي بمعارضة المعارض بعد العرب فقد كان حاصلًا وقائماً، فإن
الله ﷻ جاءهم بآيتين حديد، أبطل فيه دينهم، وسفَّه أحوالهم، وسَجَّر من آخِثهم وأصنامهم،
وجعلهم أضحوكة بين الناس، دعاهم إلى اتباعه، وإلى اعتقاد أنه رسول من عند الله، وقال لهم:
إن الحجة على صدقي هذا الكتاب الذي أوحاه الله إليّ، فإذا لم تصدَّقوني في ذلك، فلأنا أنحداكم
أن تأثروا عظه، أو تنس سورة منه، وإذا عجزتم، فلذلك أبا صدق ومرهان رسائي إليكم.

فما كان أحوجهم إلى أن يأتوا بمتنه خاصة بعد هذا التحدي المسافر، والتهكم الشديد اللاذع
بفتولهم، وأقنتهم وأصنامهم.

أقول: ما كان أحوجهم إلى دحض ما ادَّعاه، وإضاح أنه من عند الله، وذلك بسلوك أسير
الطرق، ولولوج اقرب الأبواب لرد دعواه، وذلك عن طريق ما برعوا فيه، واشتهروا بخودته
ورفائه، ألا وهو "البيان في التلويح" و"المصاحبة" في اللسان، وكان ذلك أضع لهم من الحرب
التي ذاقوا ويلاتها، وحذوا غمارها حتى شربوا كؤوس الأسى، ولحرقوا ألوان الفتور،
ولكنهم احتاروا طعن الرماح ووقع السال، ولم يدخلوا في المرافعة.

يقول القاضي البيهقي رحمه الله:

كيف يجوز أن يقترعوا على معارضة القرآن السهلة عليهم، وذلك يُدحض حجته، ويصد دلائله،
ويظن أمره، فيعدون عن ذلك إلى سائر ما صاروا إليه من الأمور التي ليس عليها مزيد في الزيادة
والمعاداة، ويتكون الأمر أخفِّف؟ هذا ما يمتنع وقونه في العادات، ولا يجوز اتفاقه من المعتاد.

وأما الأمر الثالث: وهو "انتفاء ما يمنعهم من معارضة القرآن"؛ فدلَّاه نزل بسم الله الرحمن الرحيم - هو
لسانهم -، وألفاظه من أحرف العرب، وعبارته على أسلوب لعرب، وهم أهل نبيان واللسان،
وأمرنا المصاحبة والملاعبة، وقد دلت أشعارهم. وعطفت خطبهم وحكمهم على براعتهم في ذلك.

وعنى أنه حرروا قصب السبق في مضمار الفصاحة والبيان، كما أثبت أدباء القم من ذوي القدرة والإسالة على أن درؤوا في الشعر والنثر وأن حلقوا في سماء العجى، لا وهي لغتهم الأساسية لغة القراء النبي هاشم بن عبد المطلب، ويعقوب بن المشيكة، وشمس بن الغدي، يستمعوا أرواح قصائده والحطب، ويصوغوا أحجار الألفاظ والعبارات، ولم يكنوا في عجز من قدرتهم، أو انهم في عفوهم بل كانت قدرتهم موفيرة، واستطاعتهم مشهورة، وهم أتوا الشيء والألفاظ ومع ذلك فالتقرآن دعاهم أن يستنبوا عن شأؤهم، ويكملوا ما يفهمهم أهل الأديان، ويستحضروا خاتمة بالآتيين بالسحرة والكهنة، ومن شأؤهم من صواله الإس والمجان، فليس أمامهم إجابة مانع، والتي ^١ لم يضرهم أجيالا للمعاصرة، لم عند ربحنا للمعاصرة، حتى يقولوا: إنهم إن لم يمس لا يكفى، وليس فيه سعة، كما أن القرآن لم يزل حجة واحدة حتى يتجوز بذلك، بل نزل مفرقة في ثلاث وعشرين سنة، بين كل مجموعة وأخرى ومن توسع للمعاصرة والإتيان بشئ، لو كان في مقدورهم ذلك، فلما عجزوا عن على أنه لم يزل رب العباد، وكفى بذلك دليلا وبرهانا.

مثل على إعجاز القرآن:

وقد ذكر المرحوم "الشيخ الخزاعي" كلاما طويلا في كتابه "مناهل العرفان" نفقه فيه، فإن الله، في بحث تعريف "المعجزة" ما يلي:

"المعجزة: هي أمر خارج عن حدود الأسباب المعروفة، يخلقه الله تعالى على يد مدعي السوء عند دعائه، بإعجاز، شاعرا على صدقه، فإذا قام الإنسان ما، وأدعى أنه مدعوت من الله تعالى إلى خلقه، ورسوله إلى عباده، وقال: إن الله صديقي فيما أدعيه أن يعير الله الذي أرمي شاك من عباده على يدي، وأن يخرج الآن عن سبه من سبه العارفة في وجوده، ثم قال: وسأتيكم الله بهذا الأمر لتعجبوا من باب نزول أنكم فيه مانعون وعجب فتدرون، وإني أنفذكم

- زرعتم ووجعنا - أن نأولاً، مثل هذه الآية، وأمامكم الباب مفتوحاً كما نعتنسون، وفيكم الصبر موفوراً كما تدعون، ثم أنتم مجتمعون وأنا وحدي.

قال ذلك بلغة الوائى، وتعدنا هذا للتجدي الظاهر في وقت يثور فيه عنى عفاننا وعاننا وأخلاقنا، وبسقة فيه أحلامنا وأحلام أمثنا من أمثنا، ونحن أحرص من نكون على تعجزه ونهينه والعلية عده والمظفر به دفاعنا عن كرمنا، واقتصر لأمر شيء لنبينا، ثم لم يلبث أن قام وفند، وأجمع أمره وأجمعت، وإذا عن جميعاً بعداً، محاولات ومصاولات: ثم نستطيع أن نألي عمل ما أتى به فضلاً عن أعظم منه، مع أننا أمة وهو فرد، ومع أنه قد دخل إلينا من أيسر الطرق في نظرينا، ومن أشهر فن في رسمنا، ومع أنه قد أعطانا الفرصة الكافية لمناظرته، وأنصنا كل إنصاف من نفسه.

هل يشك كل ذي مسكة من عقل في أن هذا الإنسان المنفوق المتذر صادق في رسالته، وعق في دعوته، خصوصاً إذا عرفنا طوق ذلك كله: أنه نشأ لنا على الصدق والأمانة، ومكارم الأخلاق من لدن صبيه وظفرائه إلى يوم مبعثه ورسالته.

لو أنه جاء بالمعجزة من باب لا نعرفه، لقلنا: رحل حذق فدا من المنون التي لا علم لنا بها، أو تعلم صناعة من الصناعات التي لم نخط بحرها.

لما وفد حاءنا من الناحية التي نشهد لأنفسنا فيها بالثبوت والسبق، فلا يسعنا إلا الإذعان له، والإيمان بما جاء به ما دعنا منصفين...

ولنضرب لك مثلاً: جاء موسى عليه السلام عصا من الخشب، لا روح فيها ولا حركة، ولا لين ولا دطوبة، ثم ألهاها باسم الذي أرسله، فإذا هي حية تسع، بينما الأمة التي تحدوها بذلك كانت قد تقرفت في السحر وحذقته، وضميت فيه بأروفر سهم، وأوقى نصيب، خصوصاً أنهم أمة وهو فرد وهم نابغون في السحر، وهو مع نشأته فيهم لم يعرف يوماً من الأيام معجزة السحر، فهل يبقى للشك ظل بعد أن ألقي موسى عصاه، فإذا هي تلفف ما يافكم؟

فَنُفِرْعُ الْحُسْنُ وَنُفِرْعُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَنَقِلُوا هَبَالِكَ وَنَقِلُوا صَابِرِينَ، وَنَقِلُوا الشَّجَرَةَ سَاجِدِينَ.

قُلُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامَاتِ (١٦٦-١٦٧).

الحق أبلج، ولذلك كان أول من آمن به هم السحرة أنفسهم؛ لأنهم أعرف بالسحر ومقدماته ونتائجه، وقد رأوا رأي العين أن ذلك الإعجاز ليس من نوع السحر الذي عرفوه. قل مثل ذلك في معجزة كل رسول أرسله الله، قل في عيسى من مرتبه مثلاً، وإبراهيم الأكرم والأمرس، وإحياء الموتى، وخلقه من الطين كهنية الفخار، ياذن الله أمام قوم بعوا في انطباق أيما نوع، ومهرؤا فيه أتم مهارة.

وقل مثل ذلك وأكبر من ذلك في حاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، وما جاء به من آيات بينات، ومعجزات واضحات، وحسيك القرآن وحده برهاناً ساطعاً، بل يزعمين ساطعات، كل مقدار ثلاث آيات منه حجة قاطعة، يقوم في يوم الدين إلى يوم الساعة، لتحدي العالم بما يكون فيها من أسرار الفصاحة والبيان، والمعجزة والمعارف، وأناء العبد وشواهد الحق^(١).

شروط المعجزة الإلهية:

وللمعجزة شرائط خمسة به عنها العلماء، فإن احتل منها شرط لا تكون معجزة:

١- الشرط الأول: أن تكون مما لا يقدر عليه إلا الله رب العالمين.

٢- الشرط الثاني: أن تخرق العادة، وتكون مخالفة للسنن الكونية.

٣- الشرط الثالث: أن يستشهد بها متعدي الرسالة على صدق دعواه.

٤- الشرط الرابع: أن تقع على وفق دعوى النبي لتحدي بطلان المعجزة.

٥- الشرط الخامس: ألا يأتي أحد بخلاف تلك المعجزة على وجه المعارضة.

لهذه الشروط الخمسة إن تحققت كان ذلك الأمر الخارج للعادة معجزة دالة على نبوة صاحب الدعوى، التي ظهرت المعجزة على يده، وإن لم تتحقق غير حدث عن كونها معجزة، ولم تدل

على صدق صاحب الدعوى.

أما الشرط الأول: فإنه لا شيء - في زمن يصح فيه يحيى المرسل - وادعى إسماعيل، وجعل معجزته أن يقوم ويقعد، ويأكل ويشرب، ويتحرك من مكان إلى مكان، ثم يكن هذا الذي دعاه معجزة، ولا دلائل على صدقه لقدرة الخلق على منه، وإنما يجب أن تكون المعجزات مما لا يقدر عليها البشر: كخلق الحرة، وإسحاق الحجر، وإحياء الموتى... إلخ.

وأما الثاني: وهو حرق العادة، فهو من المذهبي لسببه: معجزتي أن أطلع الشمس من المغرب، وعرب من المغرب: وأن يأتي النهار بعد الليل، لا يمكن فيما ادعاه معجزة؛ لأن هذه الأمور، وإن كان لا يقدر عليها إلا الله، لكنها لم تفعل من أجله، وقد كانت من قبله، وليس فيها دلالة على صدقه.

وأما الثالث: وهو أن يستشهد لها داعي الشبهة، وأحصل عند طلب تصديق دعاؤه، فهو ادعى إيمان أن معجزته أن يقدح الخمد في حيوان أو إنسان، ولم يفلح على صدق دعاؤه.

وأما الرابع: وهو أن تقع المعجزة على وفاء الدعوى لا على خلافه؛ لأنها حينئذ تكون تكذيباً له. روي أن مسيلمة الكذاب - عنه الله - طلب منه أصحابه أن يتفل في شرا ليكثر فيها الدماء، فعارت الشر، فدل على كذبه.^(١)

خامساً: ألا تعارض المعجزة فإن عورضت بص كبرها معجزة، ولم يدل على صدق صاحبها، فهو استعراض أحد فلق البحر أو شق البحر لم تعد معجزة، وهذا قال تعالى في خطاب المشركون: ﴿فَلْيَبْذُوبُوا حِذْبًا مِنْهُ إِنَّ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (سفر: ٢٤).

ثم كان إعجاز القرآن؟

القرآن العظيم كلام الله المعجز لخلق في أسبويه ونظمه، وفي روحته وبيان، وفي علومه وحكمه، وفي تأثير هديته، وفي كشفه المحجوب عن نفوس الماضية والمستقبلة، ولقد جاء العلماء في كشف أسرار البيان عن وجود إعجاز القرآن بعد أن شئت عددهم بالوحدان والبرهان، وقد أجمع أهل

(١) غير "تفسير نغرضي" ٢٠/١٨.

العربية قاطبة، وأهل النسخ منهم والبيان سى أن القرآن أعجز بذاته" أي: أن إنحدود إعجاز القرآن بفساحة أمطاه، وروعة بيانه، وأسلوبه العريق، الذي لا يتناهيه فيه أسلوب، لا من لحن، ولا من شعر، ومسححه المنطقية الحلابة، التي تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله المعنوي، وبراعته الفنية.

مذهب أهل الصرفة:

وقد ذهب بعض المعترضة منهم "أبو إسحاق الطغام" إلى أن إعجاز القرآن إما كان بـ "الصرف" بمعنى: أن الله عز وجل صرف الشعر عن معارضة القرآن مع دارفه عليها، ونحو: فيهم المعجز عن محاكاته في أعصمهم (أحسنهم). ولولا أن الله صرفهم عن ذلك لاستطاعوا أن يأتوا مثله، ونعمري هذا قول من لم يتدقق في علم العربية، ولا عرف أسرارها، بل قول من لم يدرك من العلوم إلا قشورها لا تسمى - ولأنه من جوع، هو قول سافط مردول، يخالف لما أجمع عليه العلماء والمفسرون والمحدثين.

ينبغي حجة لأدب عربي مصطفى الزبلي يشرح: "وقد احتجبت آراء المعترضة في وجه إعجاز القرآن، فذهب سبطان الشكسين "أبو إسحاق الطغام" إلى أن الإعجاز كان بالصرفة، وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف حارفاً للعادة." وقال "المرتضى" من الشيعة: من معنى الصرفة أن الله سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعرفة؛ ليحيوا بحيي القرآن...

فكأنه يقول: إلهي، دعاء، وفرد، ون علي مثل المنظم والأسلوب. ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما تسته أنفاد القرآن من المعاني، إذ لم يكونوا أهل علم، ولا كان العلم في إيمانهم... وهذا رأيي بين المخلص كما ترى. ثم قال: وعلى الخاصة فإن القرون - الصرفة لا تختلف عن قول العرب فيه: "هذه قال إن هذا إلا يسعرون" أي: لا يدركون، وهذا زعم زعم الله عن أهله، وكذلكهم فيه، وجعل القرون به ضربة من المعنى: "فإنهم هذا أنه لا يصحرون به العلم".

وعلى ذلك ينهض العاسد يمكن أن يقال: إن المعجز ليس هو القرآن الكريم على حد زعمهم، إنما هو الصرفة التي بسببها عجزوا عن الإتيان بمثلها: ﴿وَسَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(١) وقد أسلف "ابن حزم" الظاهري حين سلك ذلك المسلك المتوهم، وذهب إلى ما ذهب إليه سلفه "النظام" من ضعف الكلام، ولكن بأسلوب رقيق وحيث يقول في كتابه: "المفصل" في سبب الإعجاز ما نصه:

"لم يقل أحد: إن كلام الله تعالى غير معجز، ولكن لما قاله الله تعالى وجعله كلاماً له، أصاره معجزاً، ومنع من مماثلته، وهذا برهان كاف لا يحتاج إلى غيره".

فأنت ترى صاحب هذا الرأي يجعل القرآن الكريم معجزاً بمنع الله عز وجل من مماثلته، وهذا عين رأي النظام الذي يقول بالصرفة، وهو رأي باطل - كما أسلف - والقوم محوون عن ضياء الحق الساطع، وما أجمل قول القائل:

قد تذكر العين ضوء الشمس من زمر
ويُنكر القم طعم الماء من سقم

آراء العلماء في الإعجاز:

بعد أن أجمع العلماء على إعجاز القرآن بقرائنه، وعلى عدم استطاعة أحد من البشر الإتيان بمثله، اختلفت آراؤهم في وجه إعجاز القرآن على آراء:

- أ- يرى بعضهم: أن وجه الإعجاز في القرآن، وهو ما اشتمل عليه من النظم الغريب المتخالف لنظم العرب ونثرهم في مطالعته، ومقاطعته، وقواصله.
- ب- ويرى البعض الآخر: أن وجه الإعجاز إنما يكمن في فصاحة ألفاظه، وبلاغة عباراته، وجودة سبكها؛ إذ هو في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلاً.

^(١) البقرة: ١٧٧.

ج- ويؤى آخرون: أن الإعجاز في علوه من التفاضل، واشتماله على المعاني الدقيقة، والأمور الغيبية التي ليست تخدور البشر، ولا في استطاعتهم معرفتها، كما أنه سليم من التناقض والتعارض.

د- وهناك من يقول: إن وجه الإعجاز هو ما تضمنه القرآن من إزاجاً لظاهرة، وأبداناً لماتية في التوافق، والتفاهد، والحواس في كل سورة، والعمول فيه عددهم ما يلي:

١- الفصاحة في الألفاظ.

٢- البلاغة في المعاني.

٣- صورة النظم المدبج.

وهذه الأقوال كلها لا تخرج عن دائرة واحدة هي 'الدائرة النبوية' التي اختارها القرآن، وهي وإن كانت حقاً إلا أن إعجاز القرآن ليس في 'الفصاحة والبلاغة' فحسب؛ بل هناك وجوه أخرى لإعجاز القرآن، وقد أحاد العلامة 'القرطبي' عليه السلام في 'تفسيره الكبير المسمى: 'الجامع لأحكام القرآن'، فعدّ عشرة وجوه لإعجاز القرآن، كما ذكر فضيلة الشيخ 'أوزقاني' في كتابه 'مناهل العرفان' أربعة عشر وجهاً من وجود 'الإعجاز' منها ما ذكره 'القرطبي' ومنها ما لم يذكره، ونحن نذكر هذه الوجوه بالإيجاز، ثم نعليقها بشيء من التفصيل، فنقول - ومن الله نستمد عون -

وجود إعجاز القرآن الكريم:

أولاً: النظم المدبج المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب.

ثانياً: الأسلوب العجيب المخالف لجميع الأساليب العربية.

ثالثاً: الجرأة التي لا يمكن لمحتوى أن يأتي بمثليها.

رابعاً: التشريع الدقيق الكامل، الذي يترك كل تشريع وضعي.

- خامساً: الإخبار عن الغيبات التي لا تُعرف إلا بالوحي.
- سادساً: هذه التعارض مع العلوم الكونية المقطوع بصحتها.
- سابعاً: الوفاء بكل ما أُخبر عنه القرآن الكريم من وعد ووعيد.
- ثامناً: العلوم والمعارف التي اشتمل عليها: العلوم الشرعية والعلوم الكونية.
- تاسعاً: وفائده بمباحث البشر.
- عاشراً: تأثيره في قلوب الأتباع والأعداء.

١ - النظم البديع:

أما انوجه الأول من وجوه إعجازه فهو "النظم البديع" المتخالف لكل نظم معروف في لسان العرب، فالقرآن الكريم لا يشبهه شيء في نظمه، لا من شعر ولا من نثر، وذلك بشهادة أساطين البلاغة، وأئمة الفصاحة والبيان: "الوليد بن المغيرة"، و"عنتبة بن ربيعة" وغيرهما من فصحاء العرب ومشاهيرهم.

أمثلة من التاريخ:

- ١ يروى أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكانه رفاقه، فبلغ ذلك أبا جهل. وأتاه فقال: يا عم! إن قومك يريدون أن يجسموا لك مالا؛ ليعطوه لك، فإنك أتيت محمد لتعرض لما فيه - أي: تنال من مصله -.
- فقال الوليد: لقد علمت فريش أبي من أكثرها مالا.
- فقال له أوجهه: فقل فيه قولاً يطلع قومك أنك مذكر له.
- قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، لا برحز، ولا بقصيدة، ولا بامتداد البحر، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئا من هذا، والله إن لغوته لحلاوة، وإن عبه لطفاوة، وإن أعلاه لمسر. وإن أسفله لمغنى، وإنه ليعلو، وما يعلى عليه.
- فقال أبو جهل لأهله: والله ما يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال:

﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَهٌ سِحْرٌ يُؤْتِرُكُمْ﴾، فزول فيه قول الله تعالى: ﴿وَدُرِّي وَأَنْزِلْ خَفِيفٌ وَجِيدٌ، وَخَفِيفٌ لَهُ دَلَالٌ مُعَلِّمٌ دَالٌ﴾ (الشعر: ١١-١٠)، إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُ فُكِّرَ وَقُدِّرَتْ لَفَقِّحَ كَيْفَ قُدِّرَتْ ثُمَّ تَبَيَّنَ كَيْفَ قُدِّرَتْ ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ، فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَهٌ سِحْرٌ يُؤْتِرُكُمْ﴾، إِنَّ هَذَا إِلَهٌ قَوْلُ الْبَيْتِ (الشعر: ١٨-٢٥).

٢- وروى، أن ابن زيد لما سمع القرآن من النبي ﷺ تأثر تأثراً بالغاً، فحاء بقومه "بني مخزوم"، وقال لهم: والله لقد سمعت من محمد أمراً - أي: سابقاً - كلاماً هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة... الخ.

فقالت قريش: صبا والله الويد؛ لصبا بن قريش كنها.

فقال أبو جهل: أنا أكفيكهموه، فقعده إليه سزينا وكلمه بما نأخذه، فقام الوليد، وقام معه أبو جهل، فلما انتهى قومه قال: ترعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه يخفق؟ ويقولون: إنه كاهن. فهل رأيتموه يتكهن؟ وترعمون أنه شاعر؟ فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط؟ وترعمون أنه كتاب، فهل جرستم عليه شيئاً من التكذب؟

فقالوا في كمال ذلك: اللهم لا... ثم قالوا: فما هو؟ ففكر، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يعرف بين الرجل وأهله، وبين الولد وولده، وما الذي يفونه إلا سحر يأثره - أي: ينقله - عن أهل بابل، فارتهج النادي فرحا، وتفرقوا متعجبين بقوله، ومتعجبين منه، فنزلت الآيات الكريمة. (١)

٣- وفي صحيح مسلم أن "أنيساً الغفاري" أخطأ أي ذر، قال لأبي ذر: لقيت رجلاً ممككاً على دينك، يزعم أن الله أرسله، قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، ساحر، كاهن. وكان أنيس أحد الشعراء. قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قومه على أقراء الشعر - يريد أنواعه وبحوره -، فقام يلتزم على لسان أحد منهم أنه شاعر. ولقد إنهم لكاذبون، وإنه لصادق. (٢)

(١) رواه البيهقي في "دقائق النبوة".

(٢) الكشاف: ١/٤٩٩.

(٣) تفسير القرطبي ٧٣/٦.

١- وأُخرج ابن إسحاق في السيرة: "أن أبا جهل قال في ملأ من فريش: الحمد انميس عليها امر
تعمدهموا التمسيم لنا رجلا مدنا بالشعر والكهانة والسحر، فكسبه، ثم أتانا سياب عن امرأه
فقال "عبه من ربيعة" - وكان من أشرف نفوه وسادهم - أنا أقوم إليه وأكسبه، فأتاه فقال:
يا محمد! أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فم نسيتم اغتبا
وتفضلت؟ فإن كنت تريد الرياسة: فخذنا لك اللواة؛ فكنت رئيسا، وإن كنت تريد النساء:
روحك ما تشاء، منهن، فختار من أي بنات فريش ما شئت، وإن كنت تريد المال، جمعنا لك
من أموالنا حتى تكون أغنىنا، وأكثر مالا

وإني ﷺ ما كنت لأبجيه، فما فرغ من عرصه، فإن له امي ﷺ: "ثم غت؟ قال: نعم، قال:
واسمع إذا، فذلا عنه سورة فصحت ﷻ: قَتْرِيْلٌ مِنَ الرِّجْلِ الرَّجِيْمِ، كِتَابٌ فَصَّلَتْ اِيَّاهُ قُرْآنًا
غَرِيْبًا لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ، اَشْيَرًا وَاَكْبَرًا فَانْفَرَضْنَ اَسْتَكْبَرَهُمْ فَبَوَّأَ لَا يَسْمَعُوْنَ ﷻ (ص: ١٠٤) حتى سمع قوله
تعالى: ﷻ: اَعْرَضُوْا فَقُلْ اَنْذَرْتُكُمْ صَاعِدَةً ﷻ (ص: ١٣) فامسك عتبة على ٥٥، وانشأه بالرحم
أن مكفلا

ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى فريش، فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبه إلا قد صبا،
فانطلقوا إليه، وقالوا: يا عتبه! ما حبست عنا إلا أنك قد صبا، فقصص: نعم فإن لهم: والله
لقد كتبت، فأجاني بشيء، والله ما هو شعر، ولا سحر، ولا كهانة، وقد ما شدته بالرسيم
أن يكف عتبية أن ينزل بكم العذاب، وقد عتبت أن تسمت: إذا قال شئ ما يكذب ﷻ^(١)

قال العلامة نقرطبي رحمه:

"وإد اعترف عتبه علي موضع من الفساد، وموضعه من العصاة والبلاغة، بأنه ما سمع ما
سمع مثل القرآن قط، كان في هذا القول مقر ما عجز الفراء ٥ ونظريته من المتحفين
بالعصاة والفسادة على السكلم بجميع أخصاي لقول وأنوعه"

^(١) انظر الكشاف: ١٩٢٤.

٢ - الأسلوب العجيب:

أما النوح الثاني لإعجاز القرآن فهو 'الأسلوب العجيب' المتخالف لجميع الأساليب العربية، فقد جاء القرآن بذلك الأسلوب الرائع الخلاب، الذي هو للعرب بروفته وجماله، وعذوبته وحلاوته، وقد كانت فيه من الخصائص العليا ما لم توجد في كلام بشر على نحو ما يحدث في القرآن خصوصاً، وأن النبي ﷺ نحى به، فأعجز أساطير الفصحاء، وأدب مفكرين البلغاء، وأعجز ألفه فحول البيان، وذلك في عصر كانت القوى فيه قد توافرت على الإحادة والتبريز في هذا الميدان، وفي أمة كانت مواهبها ممتلئة لتنفق في هذه التماجية.

يقول الزرقاني رحمه:

وها قد مرت على اللغة العربية - من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا - أدوار مختلفة بين علم ونزول، واتساع وانقضاء، وحركة وجمود، وحضارة وندوة، والقرآن في كل هذه الأدوار واقف في عليائه، يطل على الجميع من سمائه، وهو ينسج نوراً وهداية، ويبصق عذوبة وحلاوة، ويسيل رقة وجزلة، وبرق حدة وطلاوة، ولا يزال كما كان غضاً ضرها، يحمل رايه الإعجاز، وينحدي أسم العالم في يقين وثقة، قائلاً في صراحة الحق وقوته، وسلطان الإعجاز وصورته: ﴿قُلْ نَبِيٌّ اجْتُمِعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِشَيْءٍ هَذَا الْقُرْآنُ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ نَعْصُهُمْ لِنَعَصِ طهيرا﴾ (النجم: ١٨).

خصائص أسلوب القرآن:

وللقرآن الكريم في أسلوبه العجيب المتخالف لجميع الأساليب البشرية: خصائص عديدة تجعلها فيما يلي:

الخاصة الأولى: مسحة القرآن اللفظية، التي تنجني في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي.

الخاصة الثانية: إرضاءه لعمامة والخاصة بمعنى أن الجميع يحسبون بجلاله، ويشعرون بروحته.

الخاصة الثالثة: إرضاءه العقل والعاطفة معاً، فالقرآن يخاطب لعقل والقلب، ويجمع الحق والجسمال معاً.

الخاصة الرابعة: جودة سبك القرآن وحكام سرده، فكانه سبيكة واحدة، تلعب بالمقول وتأخذ بالأبصار.

الخاصة الخامسة: براعته في نصريف القول، وتنشئة في ضروب الكلام بمعنى: أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ شتى، وطرق مختلفة، وكلها رائعة ذائقة.

الخاصة السادسة: جمع القرآن بين الإجمال والبيان.

الخاصة السابعة: الوفاء بالمعنى مع التقصد في اللفظ.^(١)

أمثلة توضيحية على خصائص أسلوب القرآن:

يقول حجة الأدب العربي الفقيه "مصطفى الرانعي" رحمه الله:

١- "لو تدرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللحوية، تجري في الموضع والتركيب بحرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، ولم يحدّها إلا مولفة مع أصوات الحروف متوافقة لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة، فلا تُعَذَّب ولا تُساع، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنا عجيبا... من ذلك لفظة 'التَنَزُّر' جمع تنذر، فإن الحزمة ثبلة فيها لتواليها على النون والذال معاً، فضلاً عن جساءة^(٢) هذا الحرف، ونوّه^(٣) في اللسان، ولكنه جاء في القرآن على العكس في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْهُ بِطَبَئٍ خَاسِرٍ﴾ بالتَّشْرِيطِ (نظم ٣٦)، فتأمل هذا التركيب، وأنعم، ثم أنعم على تأمله، وتدوّن مواقع الحروف: وأحر حركاتها في حسن السمع، وتأمل مواضع الغلغلة في دال "لقد"، وفي الطاء من "بطشاً"،

^(١) انظر "محل العرفان" للزرقاني.

^(٢) عطونة.

^(٣) ما الشيء براً ونوّه: م يستوف مكانه المناسب له. ويقال: كلمة نايبة قلقة غير منسجمة.

وفي الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى اللواو من قوله: ﴿نَبِّئْنَا نَمَارُوتًا﴾ مع الفصل بالمد؛ ليكون نقل الضمة عليه مستحسنا بعد، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها، كما تكون الأحماس في الأصحمة.

٢- "وفي القرآن لفظة غريبة، هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها فيه، وهي كلمة ﴿ضَبْرِي﴾ من قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ إِذَا فَسَعُ ضَبْرِي﴾ (نجم: ٢٢)، ومع ذلك فإن حسنيتها في نظم الكلام من أغرب الحسن ومن أعجمه، ولو أردت اللغة العربية ما صُلح لهذا الموضع غيرها، فإن السورة التي هي منها، وهي سورة النجم مفصلة كلها على انباء، فعادت الكلمة فاصلة من الفواصل، ثم هي في معرض الإنكار على العرب؛ إذ وردت في ذكر الأصنام، وزعمهم في قسمة الأولاد، فأنهم جعلوا الفلائكة والأصنام بنات الله مع وأدهم لبنات، فقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى، ذَلِكَ إِذَا فَسَعُ ضَبْرِي﴾ (نجم: ٢٢)، فكانت غرابة اللفظة أشد الأشياء ملائمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة التعلق بها الإنكار في الأولى، والتهكم في الأخرى، وكان هذا التصور يبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل".

٣- وبما لا يسعه طروق إنسان في نظم الكلام البليغ، ثم مما يدل على أن نظم القرآن مادة فوق الصنعة ومن وراء الفكر، وكأنها صبت على الجملة صبا، أنك ترى بعض الألفاظ لم رأت فيه إلا مجموعا، ولم يستعمل منه صيغة المعرد، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها، كلفظة "اللب"، فإنها لم ترد إلا مجموعة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ٢١)، وقوله: ﴿وَيَذَكِّرْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢١)، نحوها، ولم ترد فيه مفردة، بل جاء مكانها "القلب" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنِ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٢٧: ٢٨)، وذلك لأن لفظ "اللب" شديد بجمع، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة للتسرية، فيما لم نحسن اللفظة أسقطها من نظمه بشة.

وأما حسن، من الكلام غير ما نردده ضاعوا، وكيف لهم في معارضة بطبيعة غير مخلوقة؟^١

وبشرى المرحوم فضيلة الشيخ "أوزقاني" في موضوع خصائص أسلوب القرآن.

"والقرآن مسجود جلالة حجب، تنحني في نظامه الصوتي، وحالته اللغوي... ويريد نظام انفراد الصوتي، اساق النور، والاختلاف في حركته، مسكناته، ومبانيه، وغنايه، واتصالاته ومسكناته، تساق عجيبة، والاختلاف، والسرعى الأشماع، ويستهيى النور، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أى كلام آخر من منظوم ومأثور.

ويريد جمال القرآن اللغوي تلك الصاعرة العجيبة التي انتار بها القرآن في وصف حروجه وترتيب كلماته ترتيباً ذبونه كل ترتيب تعاطاه الناس في كلامهم، وتنفذ وحل هذا الجمال اللغوي بل فمة الإعجاز، حيث لم تكن في القرآن شيء من كلام الناس، لا عتلى مذاقه في أنوار قاريه، واحتل نظامه في أفان سامية.

ومن عجب أمر هذا الجمال اللغوي، وذلك النظام الصوتي: أهـ - كما كان - دليل إعجاز من ناحية، كذا مؤورا حياء لحفظ القرآن من ناحية أخرى، وذلك أن من شأن الجمال الشعري، والنظام الصوتي أن يسرعى الأشماع، ويشير الاشء، ويعرك داعة الإقنا في كل تسال إلى هذا القرآن، الذكرى، وينتلك بقى أنه الدهر ساءه، على ألسنة الخلق، وفي أفاهم، ويعرف مداه ومرباه بينهم، فلا يجرأ أحد على تغييره، وتبدله، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿إِنْ يَحْكُمُ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَرِهُوا لَكُمْ فَقَدْ ضَلُّوا سَبِيلًا﴾^٢.

ومن خصائص أسلوب القرآن العظيم: أنه يخاطب العقل والقلب معاً، ويضع الحق والحال معاً، اغتر به وهو في معمدان^٣ بقمة اللذيل العضي على البعث والشور، وفي مواجهة التفكير المكبر، كيف يسوق سلاله سوفيا يجر القنوب ذرا، ويمنع لعاطفة امتاعاً عا ساء في ضي هذه لأدلة

^١ إعجاز القرآن، دار المعنى، ص ١٦٩، ص ١٦٩، ص ١٦٩، ص ١٦٩.

^٢ الصافات، ص ٢٠١، ص ٢٠١.

^٣ المشعشع: شدة الحر، يقال: يوم مشعشع، ويوم مشعشع.

المسكنة المنقعة، إذ قال سبحانه في سورة "فصلت": ﴿وَمِن آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَرَاكَ غُلَظَهَا الْمَاءُ افْتَرَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ مَلَكِي أُخْبِنَهَا الْمُخْبِي الْمُنُونِي إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (ص: ٢٩).

واستمع إليه في سورة "ق" إذ يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ خُبَاتٍ وَخُبَّ الْحَبِيبِ وَانْحَلَّ بِاسْقَافِهَا طَلْعُ نَبِيدٍ، رَرَقَالَيْعًا وَأُضْحِفَا بِه بَلَدٌ مِّثْلَ مَا كَذَلِكُ الْخُرُوجِ﴾ (ق: ١٦-١٩).

تأمل هذا الأسلوب اليبّار الذي قنع العقل، وأمتع العاطفة في آن واحد حتى في الجملة التي هي بمثابة النسخة من مقدمات الدليل؛ إذ قال في الآية الأولى: ﴿إِنَّ الَّذِي أُخْبِنَهَا لَمُخْبِي الْمُنُونِي﴾ (ص: ٢٩)، وفي الآيات الأخيرة قال: ﴿كَذَلِكُ الْخُرُوجِ﴾ أي: الخروج من القبور، واسع والشور.

بالاحتمال الساحر، ربا للإعجاز الباهر، الذي يستقبل عقل الإنسان وقلبه معاً، بأنصع الأدلة، وأجمل البيان في هذه الكلمات للعدودات.

ثم انظر إلى القرآن، وهو يسوق قصة "يوسف" عفاً - مثلاً - كيف يأتي في علاجها بالعظمت الباقية، ويطلع من خلالها بالرايين الساطعة على وجوب الاعتصام: بالنعاف، والشرف، والأمانة، إذ قال في فصل من فصول تلك القصة الرائعة: ﴿وَزَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَنَاقِبِي إِنَّهُ لَا يُغْلِبُ الظَّالِمِينَ﴾ (يوسف: ٢٣).

فتأمل في هذه الآية كيف قوبلت دواعي الثعالب الثلاث، بدواعي العفاف الثلاث؟ مقابلة صوّرت من القصص المتشع جداً عينا بين "جند الرحمن" و"جند الشيطان"، ووضعتهما أمام العقل المنتصب في كفتي ميزان، وهكذا نجد القرآن كله مزيجاً حلواً سائغاً، يخفف على النفوس أن تخرج الأدلة العقلية، ويرفع عن العقول بالفتات العاطفية، فهل تسعد بمنزل هذا فيكلام البشر؟ لا، ثم لا، فكلام البشر إن وفّى بحق العقل: عكس العاطفة حقها، وإن وفّى بحق العاطفة: يحس العقل حقها، حتى لقد باتت العرف العام يقسم الأساليب البشرية إلى قسمين، لا ثالث لهما "أسلوب علمي"، و"أسلوب أدبي".

فقطلاب العلم لا يرضيهم أسلوب الأدب؛ وطلاب الأدب لا يرضيهم أسلوب العلم، وهكذا نجد كلام العلماء والمحققين فيه من الخفاء والعري، ما لا يهز القلوب ويحرك النفوس. ونجد في كلام الأدباء والشعراء من الغزل والنعيم العلمي ما لا يعذي الأفكار ويقنع العقول. أما القرآن فقد انفرد بهذه المزية بين أنواع الكلام؛ لأنه تنزيل من القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن: ﴿فَتَبَارَكَ الَّذِي رَزَقَ الْعَالَمِينَ﴾ (ملء: ١٤).^(١)

٣ - الإيجاز الرائع:

الوجه الثالث من وجوه الإعجاز ذلك الإيجاز الرائع، والميزة^(٢) الخارقة التي ليس بإمكان مخلوق من البشر أن يحيط بها، أو يأتي بمثلها؛ لأنها فوق الطاقة البشرية، والقدرة الإنسانية، لقد كان البدوي - راعي النعم - يسمع القرآن فيخر ساجداً لله رب العالمين، وذلك لروعة هذا الكتاب المجيد، ولما يفعل به في نفوس السامعين، وهو دليل رقة الإحساس، ولطف الشعور من أولئك الرعاة الخفاة.

قصة الجارية والأصمعي:

يروى أن الأصمعي خرج ذات يوم فبقي جارية، حماسية أو سداسية، وسمعتها تشتد ثباتاً من الشعر رائعة، وأعجب بتلك الأبيات وهزت منه النفس والقلب بحمال أسلوبها، وروعة بيانها، وفصاحة أنشائها، فقال لها: قاتلتك الله ما أفصحك؟ فقالت له: ويحك! أويتمد هذا فصاحة بعد قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ إِذْهَجَفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيَهُ فِي الْيَمِّ وَلَا تُخَافِي وَلَا تُحْزَنِي إِنَّا زَادُوهُ غَلَابًا وَعَجِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (قصص: ٧)، ثم قالت له: فقد جمعت هذه الآية على وحازتها بين أمريس، ونمين، وعبرين، وبشارتين إلخ.^(٣)

^(١) ساهل العرفان: ص: ٢١٠.

^(٢) المراد بالجزالة: النعامة في الألفاظ، والإحادة في التعبير مع قوة المسبك وعدم التعقيد.

^(٣) نقصة ذكرها القرطبي في تفسيره: الجزء الثالث عشر ص: ٢٥٩، وذكرها صاحب المنار في الجزء الأول ص: ٢٨. والمراد بقوله: "حماسية أو سداسية" أي: طوقاً خمسة أشبار، أو ستة أشبار، أي أنها معتدلة القامة.

قال الأصمعي، فأعجبت بفهمها وإدراكها أكثر ما أعجبت بشعرها، فهي حارية بدوية صغيرة السن، ولكنها واسعة العلم والفهم، أما الآيات التي كانت تنشدها فهي قولها:

أَسْتَغْفِرُكَ اللَّهُ لِدُنْيِي كُلِّهِ قَبْلْتُ إِنْسَانًا بِغَيْرِ حِلِّهِ
مِثْلُ الْقَرَالِ نَاعِمًا فِي دَلِّهِ وَاتَّصَفَ اللَّيْلُ وَلَمْ أَصْلِهِ

وغدا أشارت هذه اجارية على الأصمعي بروعة ما في القرآن من بلاغة وفصاحة، وإيجاز وإعجاز، فالآية الكريمة جمعت بين أمرين وهما: ﴿أَرْضِيبِي﴾، و﴿فَالْقَلْبَ فِي أَثَمِي﴾، وقين وهما: ﴿لَا تَخَافِي﴾ و﴿لَا تَحْزَنِي﴾ وخبرين وهما: ﴿أَرْحَمَنًا﴾ و﴿عَفِيفًا﴾ وشارتين وهما: ﴿إِنَّا رَأَوْنَاهُ يُنَزِّلُ﴾ و﴿وَجَاءَهُنَّ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، فالبشارة الأولى: برده إليها سليما كريما، والبشارة الثانية: وهي أن الله سبحانه وتعالى سيحمله رسولا هاديا.

فانظر - رعاك الله - كيف أدركت هذه الجارية البشوية بفطرتها العربية، سرا من أسرار هذا الإيجاز والإعجاز، وانتهت إلى ما لم يدركه هو من أسرار هذا القرآن، فكان الآية نظمت في عقد من اللؤلؤ والمرجان، فكانت لأفئدة عجزان.

ويروي أن ابن المقفع - الكاتب البليغ المشهور - حاول أن يعارض القرآن ذات مرة، فسمع صيا يقرأ قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ رَبَّنَا سَحَاءُ أَفْلَحِي وَبَعْضُ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْحُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: ٤١)، فكسر الألفلام، ومزق الصحف التي كان قد بدأها في المعارضة، وقال: هذا والله مما لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثلها، ففرق ما جمع، واستحيا على نفسه من إظهاره. وهكذا رجع الأدب فكبح البليغ عن عزمه بعد أن حدثته نفسه بمعارضة بعض سورته؛ لأنه شعر بروعة القرآن.

ثم انظر إلى الجزالة والإيجاز في أسلوب القرآن، وقارنها بأروع أسلوب نطق به عربي، وهو أسلوب أفصح من نطق بالفضاء، سيد المرسلين محمد بن عبد الله، الذي شهد ببلاغته وفصاحته أعذوه قبل أنصاره، فإذن بين القرآن والسنة النبوية "تحد الفرق شامعا، والبين بعيدا، كغرق ما بين السماء

والأرض، قبلاغة القرآن ونضارته وإشراقه في أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإعجاز والبيان، تأمل قوله ﷺ في صفة الجنة وما فيها من نعيم وخلود: "فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر" الحديث، وفارق بين هذه الألفاظ على روعتها وبين قوله تعالى في وصف نعيم أهل الجنة: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْبِهُ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ (نور: ٣١).

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ عِشْرٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (السجدة: ١٧)، فهذا أعدل وزناً وأحسن تركيباً، وأعذب لفظاً، وأجزل عبارةً، وأقل حروفاً.

ووزن بين قوله ﷺ: "كلكم راعٍ، وكلكم مسؤولٌ عن رعيته، الرجل راعٍ في بيته، ومسؤولٌ عن رعيته" الحديث.

وبين قوله تعالى: ﴿فَقَوْمٌ رَبَّكَ نَسِيتَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ عند كانوا يقولون ﷺ (نور: ١٧، ١٨)، وقوله: ﴿فَلْيَسْأَلُوا الَّذِينَ يُرْسِلُ إِلَيْهِمْ سَأَلُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الزمر: ٢٠).

وكذلك فارق بين سائر أقواله ﷺ وبين القرآن الكريم، تحد أن كلام الرسول على بلاغته لا يخرج عن كونه كلام بشر في الذروة العليا من الكلام، أما كلام الله تعالى فلا ينسبه كلام لأنه كلام خالق البشر، انظر إليه وهو يتحدث في جزء آية من آياته المشيدة عن أعمال الأمم السابقين، ومال الجاحدين، الكاذبين، وما حل بهم من كوارث ونكبات، نتيجة لطغيانهم ومغردهم، ثم كيف انتقم الله منهم جميعاً بعد أن حاربوا الحد في الطغيان. فلم ينج منهم إنسان، يقول حل نفاذه: ﴿فَقَمَعْتُمْ مِنْ أَرْضِنَا عَلَيْهِ خَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الضَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانُوا لِنُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (مذكورة: ٤٠).

يقول القرطبي رحمه: نقلنا عن "ابن الخصار": وهذه الثلاثة أوجه من "النظم، والأسلوب، والجزالة" لازمة كل سورة، بل هي لازمة كل آية، وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبما وقع لتحكي والتعجيز، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة من غير أن يتضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة، فهذه سورة "الكوثر" ثلاث آيات فصار،

وهي أقصر سورة في القرآن، وقد تضمنت الإخبار عن ميتين:

أحدهما: الإخبار عن الكثر - غر في آيته - وعصفه وسعته وكثرة آياته، وذلك يدل على أن المصدقين به أكثر من أتباع سائر الرسل.

والثاني: الإخبار عن الوليد بن المغيرة، وكان عند نزول الآية ذا مال وولد، ثم أهلته الله سبحانه بماله وولده^(١) وانقضى نسله^(٢).

٤ - التشريع الإلهي الكامل:

ومن وجود إعجاز القرآن الكريم ذلك التشريع الإلهي الكامل الذي يسمو فوق كل تشريع وصفي عرفه بشر في القمم والحدب. فالقرآن الكريم هو الذي وضع أصول العبادات، وأحكام العبادات، وقوانين الفضائل والأدب، وقواعد التشريع الاقتصادي والسياسي، والفن والاحتمس، وهو الذي نظم حياة الأسرة والمجتمع. ووضع العدل المباني، الإنسانية الكريمة التي نادى بها دثرة. لإصلاح في القرن العشرين، ألا وهي المساواة، الحرية، العدالة - التي يسمونها الديمقراطية - الشورى إلى غير ما هنالك من أسس الحضارة والتشريع الذي تسعى إليه المدنية الحديثة. ففي العقائد دعا القرآن إلى عقيدة طاهرة سامية، واضحة حية: عمادها الإيمان بالله عز وجل والتصديق بجميع أنبيائه ورسله، والإيمان بجميع الكتب السماوية: مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَشِّرُوا بِلِقَائِهِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَالْخُشُوعِ كُلِّ آتَمِنَ بِاللَّهِ وَلَا يَتَكَبَّرْ فِي كُتُبِهِ وَرُسُلُهُ لَا تَعْرِفُونَ أَيْنَ يَخُذُ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

ودعا أهل الكتاب اليهود والنصارى إلى كنعة سواء، لا يحرف فيها ولا التواء، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا مَعْشَرُ الْأُخَرَاءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعُولُوا إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وفي العبادات جاء القرآن العظيم بأسمى العبادات ودعائها، فطرح الصلاة والصيام، والحج

^(١) معنى الأمر المادي لا ولده ولا نسل، والثاني: معناه الشخص. وقد قل المرعشي كما روت في بعض من ذلك.

^(٢) الجامع لأحكام القرآن لقرطبي: ٧٤/١.

والزكاة، وسائر أعمال البر والطاعة.

وليست 'العبادة' في الإسلام قاصرة على هذه الدعائم والأركان، بل هي تشمل كل عمل غير وفعل برا، أو طاعة، ولهذا فإن العلماء فرروا أن كل عمل يقصد به الإنسان وجه الله يكون عبادة. وقالوا: "إن لنية الصالحة تغيب العبادة إلى عبادة". فإذا عمل الإنسان، واحترف له صنعة بقصد لتعفف عن الحرام، والإنفاق على أهله وعياله، وإذا أكل أو شرب بقصد التقوي على طاعة الله كان عمله عبادة يثاب عليها، والأصل في هذا قول النبي الكريم ﷺ: "وإنك لن تتفق نفقة تبغني بها وجه الله إلا أحرث عليها، حتى الممعة تضعها في بي امرأتك" الحديث.^(١) وقوله ﷺ: "وفي بُشيع أحدكم صلعة، فقلوا: يا رسول الله! أيأني أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكلان عنه وزر؟ فكنثلت إذا وضعها في حلال كان له أجر".^(٢)

وإذا أعمت النظري أصول العبادات المفروضة نجد أن الإسلام قد وسعها ونوعها، وحملها ضرباً متفاوتاً، فمنها ما هو "عبادة مالية" كالزكاة والصدقات، ومنها ما هو "عبادة بدنية" كالصلاة والصيام، ومنها ما هو يجمع بين الأمرين 'عبادة مالية وبدنية' كالجهاد في سبيل الله يكون بالمال والنفس، وهذا التنوع له مغزاه وحكمته السامية، وذلك؛ لئلا تألف النفس شيئاً فتصبح لها عادة، أو عُلّ وتضجر من العبادة الواحدة.

وفي مجال "التشريع العام" نجد القرآن العظيم قد وضع قواعد عامة في التشريع المدني، والجنائي، والسياسي، والاقتصادي، ووضع أسساً للتعامل الدولي في حالة السلم والحرب على أكمل وجه وأعدل نظام.

^(١) الحديث من رواية البخاري في قصة "سعد بن أبي وقاص" حين دخل الرسول ﷺ بوزره من وجه الشدة به.

^(٢) الحديث من رواية مسلم، وهو في باب كثرة طرق الخير، وأولها: أن ما قالوا: يا رسول الله! ذهب أهل العنور بالبحور.

ففي أمر المعاملات، حرم القرآن أكل أموال الناس بالباطل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَيْنَهُمْ فِئَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٥).

ودعا إلى الإعتدال عند إبرام البيع وبكاسة الثمن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا فَعَلْتُمْ بَيْنَكُمْ إِلَىٰ آخِلٍ مِّنْكُمْ فَأَنْكِحُوا وَلِيَكُنْ بَيْنَكُمْ كِتَابٌ بِالْعَدْلِ﴾ (البقرة: ٢٣٥). وفي الأمور الجنائية شرع القرآن الحدود، وأوجب على الأمة تعديدها من أجل حماية المجتمع، وصيانة من القوضى والاضطراب، وتأمين الأمة على حياقتها ومستقبلها، وتوابعها وأعراضها؛ لتعيش الحياة الكريمة السعيدة التي لن تكون إلا عن طريق الأمن والاستقرار.

وقد نصر القرآن الشكر على أمهات الجرائم، وأعظمها عتقا على مستقبل الفرد والجماعة، ووضع لكل منها عقوبات مقسمة لا تخور الزيادة عليها أو القصص منها، أو تشابه في نصيبها، وترك ما سوى ذلك من "الجرائم الخفيفة" لمحاكم المسنن ينفذ فيها ما يراه من العقوبة على ضوء أسسة الشريعة المظهرة، وبالشكل الذي يتفق روح الإسلام من إرادة الخير للناس، وتطهير المجتمع من الفساد والظلم الاجتماعي.

أما جرائم الكبرية التي عُنَّ لها القرآن عقوبات رادعة، فهي خمسة: "جرمة القتل، جرمة الزنا، جرمة السرقة، جرمة قطع الطريق، جرمة الاعتداء على كرامة الناس بالحدود".

وأهل أنواع مثل للمقارنة بين "التشريع الإلهي القرآني"، وبين "التشريع الوضعي" الذي هو من صنع بشر، ذلك الأمر العظيم الذي تركه القرآن الكريم في دعوى العرب، بسبب تلك الطريقة الحكيمة التي سلكها في معالجة المعاصد والأمراض الاجتماعية حيث قضى على كل فساد، واستصل كل جرمة من نفوسهم، وجعلهم عبيد أمة أخرجت للناس، فملكوا الدنيا وسادوا العالم.

أمنلة من واقع الحياة:

ومن الأمنلة على تفوق ذلك التشريع القرآني الحكيم على بقية التشريعات البشرية والنظم الأرضية: ما نلمسه في واقع الحياة، ويمكن أن نشير إشارة حافظة إلى سمو الشريعة الإسلامية على بقية

النظم فيما يلي:

- ١ - منذ زمن قريب حرمت "أمريكا" الخمر، ولكنها فشلت، ولم تنجح؛ لأنها لم توفق إلى الطريقة الحكيمة التي تبناها الإسلام في تحريم الخمر، فعادت إلى إتاحتها مع اعتقادها بضرره القادح.
- ٢ - أماحت بعض الدول الغربية وخاصة "أمريكا" الطلاق بعد أن كان ممنوعاً لديها بسبب تعاليم الكنيسة، ولكنها أسرفت فيه إلى درجة ضارة، ولا تزال تأخذ بتشريع الطلاق.
- ٣ - مصلحو أوروبا يزعمون أصواتهم بضرورة السماح "بتعدد الزوجات" حتى بعض نساءهم ضابن بذلك نتيجة لكثرة العواصر من النساء، بحيث أصبحت المشكلة ذات أهمية خطيرة على المجتمع الأوروبي.
- ٤ - الحيوانات الزوجية انتشرت في المجتمع الأوروبي "المتمدن" بشكل فظيع، وبصورة مذهلة، حتى أصبحت الأسر مهددة بانقضاء عراها، وكثر فيها اللقطة، وذلك بسبب السعور والترح، والاختلاط بين الجنسيتين.
- ٥ - إسبانيا: أصدرت حكومتها قراراً وسّعت قانوناً بمنع البغاء الرسمي في بلادها، ومنع النساء من المرور على الشوارع في ثياب الامتحمام.
- ٦ - رجم فرنسا نادي غداة هزيمتها أمام الألمان في الحرب الأخيرة يقول: إن سبب هزيمة دولة فرنسا وسبب هزيمتها وانكسارها هو انقسامهم في الشهوات الجنسية، وإسرافهم في التفاخر والتفان.
- ٧ - وأخيراً نجد أن الجرائم تزداد في كل يوم في المجتمع التمدن "المجتمع الغربي" مع صرامة العقوبات المشروعة عندهم باحسب والسجن السنوات الطول، أو الإعدام بالشنق، ومع ذلك نجد الجرائم المروعة من حفظ للغنيمات والفتيان، وإزهاق للأرواح، وسرقة في وضع النهار لسيوت والنوك والمخلات الكبيرة حتى لقد أصبحنا نسمع عن وجود عصافيت خطيرة، فهدد أمن البلاد وسلامة العباد، وذلك من تنظيم المراهقين على فشل النظم الوصية، والتشريعات البشرية. أما الإسلام فقد حقق الأمن والسلام، وفرض على الجريمة في مهدها،

وأما أحجار من فاني:

أين ما نصبت حقوقي ضعافاً من بطام النهيس النسيان
 إليه عصر شعيرتي ضلوك عصراً نير الوجه فسعدك (الإنسان)
 لست مؤس، بل أنت تار وطلعت مذ جمعت الإنسان كالحوي

ذلك هو الفرق بين شريع الرحمن وشريع الإنسان، ولكن أكثر الناس لا يعلمون^١

٥ - الإحجار عن النعيات:

ومن وجود إحجار القرآن الكريم إحصاءه عن النعيات، وذلك بهما، ساطع، ودليل قاطع على أن
 هذا القرآن ليس من كلام بشر، وإنه هو كلام ملائكة القلوب الذي لا تخفى عليه خافية، وهو كان
 من صنع محمد - كما زعموا - فظهرت دعوتهم الباطل في تلك الأحجار العبية بوقوعها على
 عوام ما أعير، ولافتضح أمره بالكذب الصريح، وحاشاه ﷺ من يكذب على الله.

فمن هذه الأحجار الخفية يخبره عن الحرب التي ستقع بين الروم والفرس، وستكون
 أعلى فيها والانتصار للروم بعد أن تكسروا في الحرب السابقة، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءَ الْفُرْسَ بِالْغَلَبِ وَأَكْبَرُ فَتَكُونُ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَى الْيَوْمِ وَالْأُمَّةُ كُلُّهَا فِي يَدَيْهِمْ﴾ (سورة الروم: ٥-٦).

يذكر المفسرون في باب روم هذه الآية: أن حرباً وقعت بين دولة الروم وهي "البيزنطية"
 ودولة الفرس وهي "الساسانية"، فانتصر الفرس على الروم، ففرح المشركون وشتوا، وقبوا
 المسلمين، فزعموا: أنكم أهل كتاب، وأن نصارى أهل كتاب، وما قد ظهر بخواتم على
 إخوانكم، ويظهرون نحن عليكم، فانتصروا المسلمون، وحاربوا لأخوانهم الروم، وهم دولة متدنية
 أمام دولة الفرس وهم "بشعير"، فترت الآية الكريمة لتشير المسلمين بانتصار الروم على الفرس.

في مدة وحيزة، تتراوح بين الثلاث والتسع من السنين ﴿ففي بضع مبينين﴾، ولم يكن منظورنا وقت تلك البشارة أن الروم تنتصر على الفرس؛ لأن الحروب الطاحنة أهكتها حتى غربت في عقر دارها، ولأن دولة الفرس كانت قوية متبعة، وزادها الظفر الأخير قوة ومتعة، فلما نزلت الآية الكريمة راحن أبوبكر بعض المشركين وهو أبي بن خلف على مائة ناقة إلى تسع سنين، ولم تقض المدة حتى وقعت الحرب بين الروم والفرس، فانتصر فيها الروم وانقرضت الفرس، وتحققت نبوءة القرآن، وذلك في سنة ٦٢٢ ميلادية، الموافقة للسنة الثانية من الهجرة النبوية، وكسب أبوبكر الرهان، فأمره ﷺ بالتصدق به.

وفي الآية نبوءة أخرى، وهي أن المسلمين سيفرحون بنصر قريب في الوقت الذي ينتصر فيه الروم: ﴿وَيَوْمَ يُفْرَخُ الْمُؤْمِنُونَ عَنْ نَصْرِ اللَّهِ﴾، ولقد صدق الله وعده في هذه كما صدقه في تلك، فكان ظفر المسلمين في بدر واقعاً في ططرف الذي انتصر فيه الروم، وهكذا تحققت النبوءتان في وقت واحد بفضل الله.

يقول الرمحسري: وهذه الآية من الآيات البينة المشاهدة على صحة النبوة، وأن القرآن من عند الله؛ لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعنيه إلا الله.^(١)

ب- النسوة بدخول الرسول وأصحابه مكة آمين مطمئنين، روي أن فتي ﷺ رأى رؤيا في منامه، وذلك قبل عروجه إلى الحديبية، رأى كأنه هو وأصحابه قد دخلوا مكة آمين، وقد حلقوا وفصروا، فقص الرؤيا على أصحابه، ففرحوا واستبشروا، وحسبوا إنهم داخلوها من عامهم؛ وقالوا: إن رؤيا رسول الله ﷺ حق، فلما كان صلح الحديبية عرجوا من المدينة عشرين يسوقون الهدى إلى مكة لا يفقدون حرياً، وإنما يفقدون العمرة والنسك، ولكن فريشاً صدقتم، وكادت تقع الحرب بين المسلمين والمشركين، لولا أن الرسول ﷺ رضى معهم بالصلح إيثارا منه للمسلم وحيا للسلام العام.

^(١) نظر الكشاف: ٤/٣٤٥، في سب نزول الآية الكريمة.

وكان من شروط ذلك التصلح أن يرجع الرسول ومن معه من ذلك العام على أن يدخلوا مكة في العام التالي، وأنفذ المنافقون صيغاء الإيمان من ذلك سبيلاً إلى الطعن والنسب، حتى قال رئيس المنافقين عبدالله بن أبي: والله ما حافظ، ولا فصرنا، ولا رأينا المسجد الحرام، ولكن نزلت الآية الكريمة تحمل تلك العهود الثلاثة المؤكدة وهي: دخول مكة، وإداء النسك، والأمن من غريش على رغم ما هو معروف من عدم فريش وبكتهم العهود، وتقطيعهم الأرحام، وقد أغر الله وعده فتم الأمر، ودخل المؤمنون مكة آمنين مطمئنين، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَأَنفَذَ حَتَّىٰ أَتَاهُ سُوْرَةُ لِّزُلُمَاتٍ بِالْحَقِّ فَذَلَّخُنَا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنَّا شَاءْنَا أَنَّهُ أَتَيْنَ مُخْلِطِينَ زُؤُوسَكُمْ وَمُفْضِرِينَ لَا تَنفَعُونَ قُلُوبَهُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوْا فَجَحِلٌ مِّنْ ذَٰلِكَ فَخَا فَرِحَ بِهَا﴾ (البقرة: ١٧٦).

ج- تنبؤ القرآن بالهزم المشركين قبل وقوع الحرب، وذلك في قوله تعالى في سورة القمر: ﴿إِنَّمَا يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّتَّبِعُونَ سَيُهْرَمُ السِّجْنُ وَيُؤْتُونَ الدُّبُرَ إِنَّا نِلْنَا الشَّعْأَةَ نُوْجِدُهُمْ وَنُشَاعَةُ أَذْهَىٰ وَأَمْرُهُ﴾ (القمر: ١٥-١٦)، وسورة القمر مكية، والجهاد لم يشرع إلا في السنة الثانية من الهجرة، فآين هي إذا فكرة الحرب؟ ومن الذي كان يحول نخطره أن يهزم جمع المشركين، ويتنصر عليهم المسلمون وهم قلة في العدد والعدد ولكنه وعد الله لا يخلف. روي عن عكرمة أنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿سَيُهْرَمُ السِّجْنُ وَيُؤْتُونَ الدُّبُرَ﴾، قال عمر بن الخطاب: أي جمع هذا الذي سيهزم؟ فلما كانت غزوة بدر رأى رسول الله ﷺ وهو يقب في الدرع ويقول: ﴿سَيُهْرَمُ السِّجْنُ وَيُؤْتُونَ الدُّبُرَ﴾، فصر عمر ناولها. ^(١) وروي عن ابن عباس: كان يرب نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين.

د- تنبؤ القرآن بدلك المستقبل الأسود الذي ينظر كعاز فريش، وذلك في قوله تعالى في سورة المدثر: ﴿فَإِذَا نَزَفْتُ يَوْمَ نَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَتَّبِعُهُ النَّاسُ هَذَا غَدَابٌ أَلَيْسَ مَا رَيْنَا أَكْثَبُ غَدَا غَدَابٌ إِنَّا مَا مَوْعِدُونَ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رُسُلٌ مُّبِينٌ إِنَّمَا تَوَلَّوْا عَنَّا

وَقَالُوا مَعْزُومٌ مُّحَرَّرٌ - إِنَّا كَاتِبُونَ الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَنْدَنَا ذُكُورٌ - يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى
إِنَّا مُنْتَفِسُونَ ﴿١٠٠﴾ وَالسَّارِقُ ١٠١

وسب نزول هذه الآيات الكريمة: أن أهل مكة لما كذبوا رسول الله ﷺ، واستعصوا وعمدوا عليه، دعا عليهم فقال: اللهم أنصني عليهم بسبع كسيع يوسف فأخذهم من تحت كل شيء حتى كملوا الخلوة والمبنة من الخروع، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى كهينة الدخان، فاثناه أبو سبيح فقال: يا محمد! إنك حنت تأمر بطاعة الله وبصنة إرجم، وإن قومك قد هلكوا فادعوا الله لهم، فنزل الله هذه الآيات الكريمة ١٠٠

قال الزرقاني رحمه الله: وفي هذه الآيات عند التأمل خمسة تنبيئات:

أولها: الإعجاز بما ينشأهم من الضحط والجوع، حتى يرى الرحمن بينه وبين السماء كهينة الدخان.

الثاني: الإنصار بأنهم سيخرجون إلى الله حينئذ يحميهم هذه الأرومة.

الثالث: الإعجاز بأن الله سيكشف عنهم ذلك العذاب قليلاً.

الرابع: الإعجاز بأنهم سيهدون إلى كفرهم وعتوهم.

الخامس: الإنصار بأن الله سينقم منهم يوم البطشة وهو يوم بدر.

ثم قال: ولقد حقق الله ذلك كله، ما أنجزه منه ولا نبوءة واحدة، فأصيبوا بالضحط حتى أكلوا العظام، وجعل الرحمن ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهينة الدخان من شدة جوعه وجهده، ثم قالوا متضرعون: ﴿يَا مَعْزُومًا﴾ فكشف عذاباً إنا مؤمنون به، ثم كشف الله عنهم العذاب قليلاً، ثم عدوا إلى كفرهم وعتوهم، فأنقم الله منهم يوم "بدر"، فبطش بهم البطشة الكبرى حيث قتل منهم سبعون وأسير سبعون، وأدلى للمسلمين منهم. أرايت ذلك كله؟ هل يمكن أن يصير مثله من مخوف؟ كلا، بل هو الله العزيز الحكيم.

٥- النبوة بإظهار الإسلام على جميع الأديان، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ رَسُولُكَ

بأنه نذرى وذيق الحق ليطهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴿١٠٠﴾ (سور: هود).

وكذلك التبرء بالمستقبل الجاسم الذي سيكون للمؤمنين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفْنَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي رَفَضْنَا لَهُمْ وَسَيَكُونُنَّ مِنْ أُمَّةٍ مَرْضِيَّةٍ﴾ (سور: هود: ١٠٠).

وقد غنق هذا الوعد الإلهي، فأظهر الله الإسلام على جميع الأديان، ومكن للمسلمين في الأرض في حياة النبي ﷺ حتى استولوا على جميع البلاد العربية، ولم يبق جزء منها إلا دان للمسلمين بالظلمة، ومن لم يدخل في الإسلام دخل في دمة المسلمين، وحضر لسلطانهم، ودفع الجزية لهم. ثم صار أصحابه من بعده إلى أرض كسرى، وأرض هرقل، فأزاحوا دولة الفرس، ودولة الرومان، ولم يمتد قرن من الزمان، حتى اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، فصارت تمتد من بحر الظلمات في المغرب إلى تخوم الصين في المشرق، فتحقق بذلك الوعد الكريم، وكان وعد الله مفعولاً.

وكل هذه - وأمثالها في القرآن كثير - أخبار عن المستقبل، وقد تحققت جميعها، وهذا أمر عارف للعامة، فكان وحدها من وسوء الإعجاز، لأن مثله لا يتفق إلا بأخبار من عند الله حل وعلم، ولا يغيب عن بالنا أن جميع القصص التي جاء في القرآن الكريم هو من باب الإخبار عن غيوب الماضي، الذي أطلع الله رسوله الكريم عليه، وما كان له علم بها، ولهذا ذكر الله جل ثناؤه قصة نوح، ثم أعقبها هذه الآية انكرمة وهي قوله تعالى: ﴿يُنَادِيكَ مِنْ آثَابِ الْغَيْبِ نُوْحُهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِلَى الْعَاقِبَةِ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سور: هود: ٤٩).

وما أروع قصص الفرائد الذي نزل على خاتم المرسلين؛ ليكون نبينا لقليه وذكرى للمؤمنين، وذلك أعظم رهان على أنه تنزيل رب العالمين، فبالها من حكمة سامية، ومعجزة باهرة.

قال فرغشري إن النبي ﷺ مكث مع أصحابه بحكمة عشر سنين متعدين، وما هاجروا كانوا بالمدينة بمسجون ويمسكون بهم في السلاح، حتى قال رجل منهم: ما يأتي على يوم نأس فيه ونضع السلاح؟ مهلت لأهل الكوفة، وهم في عتف شديد، فأنذر الله ورسوله، وأظهرهم على جزيرة العرب، وفتحوا بعد تلك بلاد المشرق والمغرب، ورفرو ملك لأكاسرة، وملكوا جزائهم، واستخرجوا على الدنيا الكشاف: ٢٥٢٣.

٦ - عدم التعارض مع العلم بالحديث:

ومن وجوه إعجاز القرآن ثلث الإشارات الدقيقة إلى بعض العلوم الكونية التي سبق إليها القرآن قبل أن يكشفها العلم الحديث، ثم عدم تعارضه مع ما يكشفه العلم من نظريات علمية حديثة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الناحية من نواحي الإعجاز بقوله جل شانه: ﴿وَسَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَهْلَ كُلِّ شَيْءٍ مُنْهَدِجًا﴾ (نمل: ٥٣)، ومع اعتقادنا بأن القرآن العظيم ليس كتاب طبيعة أو هندسة أو فيزياء، وإنما هو كتاب هداية وإرشاد، وكتاب "تسريح وإصلاح"، ولكن مع ذلك لم تخل آياته من الإشارات الدقيقة، والحقائق الخفية إلى بعض المسائل الطبيعية، والطبية، والجغرافية بما يدل على إعجاز القرآن وكونه وحياً من عند الله، فمن المقطوع به: أن عمداً ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب؛ وأنه نشأ في بيئة بعيدة عن مظاهر الحضارة، حيث لم تكن علوم ولا معرف ولا مدارس تُقرأ فيها العلوم الكونية؛ لأن قومه وعشيرته كانوا أميين.

ومع ذلك، فإن النظريات العلمية التي أشار إليها القرآن لم تكن معلومة في عصره، ولم يكشف العلم أسرارها إلا منذ زمن قريب، وذلك من أصدق البراهين على أن هذا القرآن ليس من تأليف محمد ﷺ - كما يزعم بعض المستشرقين - وإنما هو وحى من الله، أنزله على قلب سيد المرسلين بلسان عربي متين.

ولقد أجاد الأستاذ "عفيف طيارة" في كتابه "روح الدين الإسلامي"، فذكر بعض هذه الحقائق العلمية الدقيقة، وعين نقل بعضها بشيء من الإيجاز مع التصرف.

الفصل العاشر:

معجزات القرآن العلمية

أولاً : وحدة الكون:

أظهر النظريات العلمية الحديثة تقول: إن الأرض كانت جزءاً من المجموعة الشمسية، ثم انفصلت عنها، وتبدت، وأصبحت صالحة لسكنى الإنسان، ويؤمنون على صحة هذه النظرية بوجود البراكين^(١) والمواد المنتهية في باطن الأرض، وقذف الأرض بين حين وآخر هذه الحسم^(٢) من المواد البركانية المنتهية... إلخ.

هذه النظرية الحديثة تتفق مع ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله جل ثناؤه: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْغَيْثُ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضُ كَانَتْ رُفْعًا فَنفَثْنَاهَا رِغْمًا فَخَضُّوا مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ خَضٍ أَفْلا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ٥٨).

يقول الأستاذ "طيارة": هذه معجزة من معجزات القرآن يؤيدها العلم الحديث الذي قرر أن الكون كان شيئاً واحداً متصلاً من غاز^(٣) ثم انقسم إلى سداثم، وعالت الشمسى كان نتيجة تلك الانقسامات...

أما الشطر الثاني من الآية: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ فهو من أبغ ما جاء في تقرير حقيقة علمية أدرك العلماء سرها، فمعظم العمليات الكيميائية تحتاج إلى الماء، وهو العنصر الأساسى

^(١) البراكين: فتحة في القشرة الأرضية تخرج منها مواد منصهرة وعازات وأحرفه بكون عالياً بخروطين الشكل. ويطلق كذلك على الجبل الذي يتكون من راكم هذا المواد.

^(٢) الغصم: القضم، والزمد، وكل ما احترق من النار. واحده: غصم.

^(٣) الغاز: حالة من حالات المادة الثلاث تكون في العادة شائعة، تتميز بأنها تشغل كل حيز نوضع فيه وتشكل بشكله، كالماء والأكسجين وثنائي أكسيد الكربون في درجات الحرارة والضغط العاديين (وغير الحسم). مخلوط من العنرات يستعمل في الموائد، والإنارة.

لاستمرار الحياة لجميع الكائنات والنباتات، ولقاء حيوان آخرى تدل على أن مدح الكون قد صممه بما يحقق صلاح مخلوقاته، والآن، بمنع كميّات كبيرة من الأكسجين عندما تكون درجة حرارته منخفضة، وعندما يتجمد تنطلق منه كميّات كبيرة من الحرارة تساعد الأحياء التي تعيش في البحار من أسماك وغيرها، فما أعجب حكمة القرآن الذي بهر كائنات، حليلة سر الحياة!

وقد روي عن ابن عباس عجل أن قال في تفسير هذه الآية المكرمة: كانت السماء رنقا لا تطر، وكانت الأرض رنقا لا تنب، فلما خلق للأرض أهلا خلق السماء بالطر، وفق الأرض بالنبات.^(١)

أقول: هذا التفسير جميل وحسن، ويكون من باب "الاستدرة"، وهو الذي ذهب إليه المفسرون القدماء، ولكن لا يمنع أن يكون في القرآن بعض هذه الترواح العلمية التي كشفت عنها العلم الحديث، فالقرآن حمال وحور، وليس هناك غمك في فهم أسرارها، فربما فهم المتأخرون ما لم يفهمه المتقدمون، والله تعالى يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَلِيُؤْمِنُوا بِمَا لَحَقَّ بِهِمْ رَبَّنَا إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (ص: ٥٢)، فنمل هذا من الآيات التي أصلهم الله عليها في القرن العشرين.

ثانياً : نشأة الكون:

يقول العالم الهندكي جيزا: "إن مادة الكون بدأت غزاً منتشر خلال الفضاء بانتظام، وإن السديم - المجموعات الفلكية - خلقت من تكاثف هذا الغاز".

ويقول المذكور: "إن الكون في بدء نشأته كان مموء يحار موزع توزيعاً منتظماً، وأنه حدث عمليات".

هذه اسطرية نودها في القرآن الكريم ما يؤيدها ولو أن القرآن أوجر عن ذلك لاستبعد

هذه النظرية - يقول تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا مَا كُنَّيْنِ﴾ (ص: ١١)، فالقرآن صوّر مصدر خلق هذا الكون "بالدخان"، وهو الشيء الذي يفهمه القرب من الأشياء الملموسة، أيكون في مفعول أمي - منذ أربعة عشر قرناً - أن يدرك هذا في وقت كان الناس لا يعرفون شيئاً عن هذا الكون وعفاهاء؟.

ثالثاً : تقسيم الذرة:

ظل الاعتقاد السائد حتى القرن التاسع عشر أن الذرة هي أصغر جزء يمكن أن يوجد في عنصر من العناصر. وأما غير قابلة للتجزئة؛ لأنها الجزء الذي لا يتجزأ، وقد مصت قرون على هذا الاعتقاد. ومنذ عشرات استعين المأضية حول العلماء اهتمامهم إلى مشكلة "الذرة"، فأمكنهم تجزئتها وتقسيمها، وقد وجدوا أنها تحتوي على الدقائق الآتية:

(١) البروتون (٢) النيوترون (٣) الإلكترون

وبواسطة هذه التجزئة اخترعوا القنبلة الذرية؛ والقنبلة الهيدروجينية، ونموذ دافق من قيام الساعة ومن شر إبليس العين.

استمع إلى قوله تعالى عند الإخبار عن الذرة: ﴿وَمَا يَعْزُبُ^(١) عَنْ رَبِّكَ مِنْ يَشْفَالِ ذَرَّةً فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يوس: ٦١).

فكلمة ﴿أَصْغَرَ﴾ من الذرة في الآية القرآنية: نصريح جلي بإمكان تجزئتها، وفي قوله: ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ بيان بأن خواص الذرات في الأرض، هي نفس خواص الذرات الموجودة في الشمس والنجوم والكواكب، فهل درس محمد ﷺ خواص الذرة، وأمكنه تجزئتها، والوقوف على خواصها في الأرض والسماء؟ إنما لدليل قوي^٢ على أن القرآن وحى^٣ إلهي.

^(١) يعزب: أي يغيب ويخفي.

رابعاً : نقص الأوكسجين :

منذ اكتشاف الطيراني، ظهرت للعلماء بادرة طبيعية، وهي: "نقص الأوكسجين في طبقات الجو العليا"، فكلما حلّق الإنسان وارتفع في أجواء السماء، كلما أدركته هذه الظاهرة، وشعر عند ذلك بضيق الصدر وصعوبة التنفس، حتى ليكدّ ينزع بالاحتناق، ولهذا فإن طيّارين يطولون تعليمات الركاب بأن يستعملوا "الأوكسجين الصناعي" حين نعوّهم الطائرة إلى مرتفعات عالية تزيد عن ٣٥ خمسة وثلاثين ألف قدم. هذه الظاهرة العلمية أشار إليها القرآن الكريم قل احتراع الطيراني، وقيل أربعة عشر قرناً، استمع إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَغْلِقْ صَدْرَهُ غَلَقًا ثَمِينًا﴾ (١) ﴿كَأَنَّمَا يُصِغْدُ فِي السَّاءِ﴾ (٢) (الأنعام: ١٢٥).

ولقد كان القدماء يفسرون هذه الآية حسب مفاهيمهم التي تنفق مع زمانهم، فكانوا يقولون ﴿كَأَنَّمَا يُصِغْدُ فِي السَّاءِ﴾ أي: كمن يحاول الصعود إلى السماء، وهو ليس بمستطيع، أو كمن يحاول عمل المستحيل.

وقد جاء هذا العصر، فأظهر معجزة القرآن، وسجل انقراضها دلالة قرآنية مع الارتفاع العلمي، فكان نايدنا لصديق نبوة محمد ﷺ، قبله ما أروع هذا القرآن، وما أعماه؟

خامساً : الزوجية مبنة في كل شيء :

كان الناس يعتقدون بأن الزوجية الذكر، والأنثى مبنة بين النوعين "الإنسان، والحيوان فقط، فعاء العلم الحديث، فأثبت أنه الزوجية توجد في النبات كذلك، وفي الجماد، وفي كل ذرة من ذرات الكون والوجود حتى الكهرمان، ففيها "الزوج"، وفيها "التسالب"، هذه بها شحنة كهربائية موجبة، وثلاث فيها شحنة كهربائية سالبة، وحتى الذرة بها "البروتون" و "النيوترون"، وكل منهما يشبه للذكر والأنثى، وهذا الاكتشاف سبق إليه القرآن العظيم في عديد من الآيات الكريمة، استمع إلى هذه الروائع البينات:

أ- ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (سجرات: ١٩)، فالعموم هنا واضح: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

ب- ﴿وَلَوْ لَمْ يَرَوْا بَنِي آلِ آدَمَ كَيْفَ تَشَاقِقُهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَيْدِمٍ﴾، هذه الإشارة هي للثبات.

ج- ﴿سُبْحَانَ الَّذِي حَقَّ الْكُزُوفُ كَلَّمَهُ مِمَّا نَزَّلَتْ الْأَرْضُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يُنْقَدُونَ﴾ (يس: ١٧).

هذه الآية الكريمة عممت الروحية في الأنداد والآسام، وفي كل شيء، ثم بعدهم أو لا بعدهم: فسبحان إله العليم الذي أحاط علمه بكل الأتوات، وأحصى كل شيء عدداً.

سادساً: أغشية الجين:

ثبت علمياً أن الجين في بعض أنه يتخذ بثلاثة أغشية، وهذه لأغشية لا تظهر إلا عند شرح الدقيق، وتظهر بالعين المجردة كأنها غشاء واحد، وهذه الأغشية هي التي تسمى: "غشاء انباري"، و"الغوريون"، و"المغلفاني". هذا ما أثبتته أحدث الأبحاث، وقد جاء القرآن الكريم مؤيداً هذه الحقيقة العلمية؛ وذلك في سورة الرُّمِّ في قوله جل وعلا: ﴿يَخْفِكُمْ فِي بُحُونِ سُبْحَانِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثَ ذَلِكُمْ لِلَّهِ رَبِّكُمْ أَنَّهُ اسْلَلَكُمْ﴾ (رؤم: ١١)، ففي هذه الآية معجزة علمية لقراءنا، فقد أخبر أن الجين به ثلاثة أغشية سماها: "ظلمات"، لأن الغشاء خارجي، وحجاب يحجب عنه النور والضياء، وهي في تعلم حديث ثلاثة أغشية.

سابعاً: التنقيح بواسطة الرياح:

ثبت العلم الحديث: أن الهواء ينشئ الأعضاء، فذكرت في الوثائق في التخليل والتبريد، وغيرها من الأمثلة المعروفة، فيكون التنقيح بواسطة الرياح "والهواء"، وهذه أمسية العلمية تحدث عنها:

١- يقول الأستاذ المشير "الحوي" الأستاذ في مدرسة "المعجزة" في القرن الماضي: إن أصحاب الإبر قد عرفوا أن أريج فنتج الأشجار والثمار هو أن يمسها هبوباً ثلاثاً عشر يوماً، يثبت في أن هذا ما سبق إليه القرآن. وبعض من شهادات الأعداء

القرآن الكريم في قوله حلّ ثلثه: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ فَرْقًا فَنُزِّلَتْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاخْتَلَتْ أَكْشُوفُهُمْ وَأَمَّا أَكْثَرُهُمْ يُخَادِنُ﴾ (الحجرات: ٢٠)، وهذا سبق للفرد في الحقائق العلمية الثابتة مما يدل على صدق النبوة.

ثامنا : الحيوان المنوي:

اكتشف الطب الحديث أن هذا لسائل من مريّ الإنسان يحوي حيوانات صغيرة تسمى: "حيوانات المنوية"، وهي لا ترى بالعين المجردة، إنما ترى "الميكروسكوب"، وكل حيوان منه له رأس ورغبة وذيل، يشبه دودة العلق في شكلها ورسمها، وأن هذا الحيوان يختلط بالويضة الأنثوية فيصبحها، فإذا ما تمّ المذاج التطبق علق الرسم، فلم يذعن شيء من بعده إلى الرحم، وأما بقية الحيوانات فتصوت، وهذه الناحية العلمية وهي: أن السائل المنوي يشبه العلق في الشكل والرسم، فقد أثبتنا القرآن، استمع إلى قوله حلّ وعلا: ﴿وَأَرْسَلْنَا رِيحًا فَنُزِّلَتْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاخْتَلَتْ أَكْشُوفُهُمْ وَأَمَّا أَكْثَرُهُمْ يُخَادِنُ﴾ (الحجرات: ٢٠)، فهذه الآية معجزة بليغة من معجزات القرآن م يظهر وقت نزولها ولا بعده ثبات المسين إلى أن اكتشف، الجهر الكثير "الميكروسكوب"، وعرف كيف يتكون الإنسان بقدرة الله!

ثاسعا : اختلاف بصمات الإنسان:

في القرن الماضي سنة (١٨٨٤)م استعملت في التكرار رسميا طريقة التعرف على الشخص بواسطة بصمات الأصابع، وأصبحت هذه الطريقة متبعة في جميع الدلائل، لأن بشرة الأصابع مغطاة بخطوط دقيقة، وعلى عدة أنواع: "أقواس، مرقوء، دوامات"، وهذه الخطوط لا تتغير مدى أحياء، وجميع أعضاء الجسم تتساوى أحيانا، ولكن الأصابع لها مميزات خاصة، إذ أنها لا تتشبه ولا تتقارب، وهنا المعجزة الإلهية، فلماذا اختار الله سبحانه سان الإنسان في إقامة الدليل على السمعة: ﴿وَأَمْحَسَّ اللَّهُ لَكَ الْبَصَرَ أَفَلَمْ يَكُنْ لَكَ بَصَرًا يَوْمَ الْآخِرَةِ﴾ (الأنبياء: ١٠٣).

٧ - الوفاء بالوعد:

ومن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم "الوفاء بالوعد" في كل ما أحرع عنه، وفي كل ما وعد الله سبحانه عباده به، وهذا الوعد ينقسم إلى قسمين:

أ- وعد مطلق.

ب- وعد مقيد.

فالوعد المطلق كوعده بنصر رسوله، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه، ونصر المؤمنين على الكافرين، وقد تحقق ذلك كله، اقرأ إن شئت قوله حل وعلا: ﴿وَأَنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا، لَجُوعِ لَدُنَّ اللَّهِ مَا تَعْلَمُونَ مِن قَبْلِكَ، وَمَا تَأَخَّرُ رَأْسَهُ نَعْتَهُ غَيْبُكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَنَبْضِرَكَ إِنَّا نَبْضِرُكَ مُخْزِرًا﴾ (الفتح: ١-٣).

وقد تحقق هذا النصر بفتح مكة، ودخول الناس في الإسلام أفواجا أفواجا، وبذلك تمت الدعوة على سبيل الأتمام محمد ﷺ وإقر الله عليه بصره على أعدائه: ﴿يَوْمَ أَفْجَاءَ صُرْتُ أَفْجَاءًا، وَارْتَبَتْ شَأْسٌ يَدْخُلُونَ فِي دِيبِ اللَّهِ أَفْوَاحًا، فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَابًا يَكُومُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ بِنَصْرِهِ لَأَسِيئَتِهِ وَأَوَّلِيَّائِهِ: ﴿وَأَنَّا لَنَنْصُرَنَّ رُسُلَنَا وَلَيَكُونَنَّ آمَنُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَبِوَمِيقَاتِ الْقِيَامِ لَأُثْبِتُنَّهُمْ﴾ (عنبر: ٥١).

ومن الوعد المطلق قوله جل شؤدا: ﴿وَرَأَى نَجْمًا غَابِيًا فَصَرَّ الْمُؤْمِسِينَ﴾ (الرؤ: ٤٠)، وقد تحقق نصر المؤمنين في مواطن عديدة في بدر وأحد وغيرهما من المعارك العظيمة التي شهدتها تاريخ الإسلام، اقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذْنَةٌ قَانِقُوا، اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٣)، وقوله حل وعلا: ﴿وَلَقَدْ حَسَدْتُمُ اللَّهَ وَعَدَدُهُ إِذْ تُحِثُّونَهُمْ بِآيَاتِهِ﴾ (آل عمران: ١٥١) تحسبونهم؛ أي تقتلون قتلا دريحا.

ومن الوعد المطلق قوله سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيُثْبِتَنَّ حَلْفَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ قَرْنًا، مَا اسْتَخْلَفَ النَّبِيُّ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (الرؤ: ٥٥).

وقد تحقق الوعد، فانتصر المؤمنون حتى فتحوا مشارق الأرض ومغاربها، وسارت جيوشهم حتى بلغت أقاصي السمورة، وقد كان أبو بكر رضي الله عنه إذا أرسل جيوشه للفتوح عرفهم ما وعدهم الله: **لِيَقْرَأُوا بِالْبَصِيرِ وَيَسْتَفْنُوا بِالظُّفْرِ**، ومن الوعد المطلق قوله سبحانه: **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾** (التحج: ٢٨). أما الوعد المفيد فهو ما كان فيه شرط كشرط التفتوى، وشرط النصر، وشرط نصرة دين الله وما شابه ذلك.

قال تعالى: **﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾** (عند: ٧).

وقال تعالى: **﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾** (المائد: ٢٠٢).

وقال تعالى: **﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾** (المائد: ١).

وقد وعد الله المؤمنين بالنصر بشرط النصر، كما قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ خُذْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتًا وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾** (الأنفال: ٦٥).

٨ - العلوم والمعارف:

ومن وجوه إعجاز القرآن: هذه العلوم والمعارف التي زخر بها القرآن الكريم، والتي بلغت من نصاعة البرهان وقوة الحجة مبلغا يستحيل على محمد ﷺ - وهو رجل أمي شأ بين الأميين - أن يأتي بها من عند نفسه، بل يستحيل على أهل الأرض جميعا من أدباء وعلماء وفلاسفة وحكماء، ومن مشرعين وعيافة أن يأتوا بمثل هذه العلوم والمعارف، وفي هذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن حجة دامغة وبرهان ساطع، يقسم ظهر كل أفك ممتد، يزعم أن ما جاء به محمد ﷺ هو إلا تعاليم الكتب السابقة، استمدتها محمد من بعض أهل الكتاب في عصره، ثم نسبها إلى ربه! ليستمد من هذه نسبة قسبتها: **﴿كَثُرَتْ كَلِمَةُ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾** (الحج: ٥).

ولنقول لولاء الغشبي: كيف يكون القرآن نسخة عن الكتب السابقة، وقد جاء متذكرا على

أهلها، مخالفًا لأكثرها، بل جاء مبطلاً وهدامًا لأصول أفكارها وعقائدها بسبب ما دخل فيها من غريب وتبديل؟

وكيف يمكن أن تنطق عقيدة "التوحيد" مع عقيدة "الثنيت"، وبهذه كما بين السماء والأرض؟ أم بسموا الحكم القاطع الخازم بهم بأنهم كفرة فحرة، يعبدون أصبارهم ويهبطون من دون الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ نَحْنُ نُحْيِي الْمَيِّتِينَ وَكُنَّا نَنْبِئُكَ أَنَّكَ الْمُبْسِطُ﴾ إِنَّ اللَّهَ ذَلِكُ قَوْلُهُمْ بِأَفْرَافِهِمْ بِضَائِعَتِهِ قَوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ قَوْلِهِمْ إِنَّ اللَّهَ أَنَّى يُؤْتِكُونَ هَ الْخَبْرَ أَجْبَرَهُمْ وَزَعَمَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمُبْسِطُ (الْمُزَيَّنُّ) وَمَا أَمْرُ الْإِلَهِ بِالْعَبْدِ وَالْإِلَهِ أَجَدُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (البقرة: ٢٥٨).

جاء القرآن بالعلوم المتنوعة، والمعارف المتعددة في العقائد والمعادن، والتشريع والتنظيم. وفي الأخلاق والمعاملات، وفي حقول شتى: في التربية والتعليم، وفي السياسة والاقتصاد، وفي الفلسفة والاجتماع، وكذلك في القصص والأخبار، وفي أصول المناظرة والجدل.

ولا شك أن هذا الوجه من أظهور وجوه الإعجاز فكيف سطيع رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب، ولا نشأ في بلد علم وتشريع، ولا في مدينة ذات حصان ومدينة: أن يأتي بمثل ما في القرآن من هذه العلوم والمعارف جميعها وكاملًا، مؤيدًا بالحجج والبراهين بعد أن قضى معظم حياته لا يعرف شيئًا عنها، ولم يتطرق بقاعدة أو أصل منها، ولا حكم يفرع من فروعها إلا أنه يكون ذلك وجها من الله تعالى؟ وأعب أن أقصر هنا على مثل من هذه العلوم المتنوعة العديدة، وهو بحث العقيدة في القرآن، وأن أقارن بين تعاليم الإسلام، وتعاليم اليهودية والنصرانية على عها. نرونه؛ ليتبين الصريح الذي عيّن، ويظهر صياء الحق الساطع، ونوره الباهر، وكما قيل: "ووضعا تميز الأشياء".

العقيدة الإسلامية:

جاء القرآن بعقيدة صحيحة صافية، بضوء نافية في ذات الله تبارك وتعالى، وفي حق رسله لكرام، قاله رب العالمين واحده أحد، فرد صمد، ليس له والد ولا ولد، له جميع صفات الكمال،

ومنزعه عن جميع صفات النفس: لا ذاته تشبهها الدورات، ولا حكمت صفاته انصافات: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَبِيرُ﴾ (الشورى ١١) وهو جل وعلا قيوم ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (البقرة ٢٥٥) ولا يشغله شأن عن شأن: ﴿قُلْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (ص ١٠٠) ... هو الخالق المتفرد بالخلق والإيجاد، وببده ناصبه المعداد، يحسن من يشاء، ويهدي من يشاء ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَابِضٌ﴾ (الملك ١٢٠) الكل خلقه، والجميع عبده: ﴿إِنَّ كُلَّ مَوْءِنٍ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا نَبِيَّ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ﴾ (مريم ١٣) أفرا إن خست هذه الآيات الروائع في صفات الله عز وجل:

- [illegible]

أَعْقِبْهُ بِالْبَيْتِ وَدَعَا:

وصل اليهود بعد موسى ليلاً، فقبلوا بعلاً، وزعموا أن الله إنما هو العزير الخشن، وشبهوا الله بالإنسان، فزعموا أنه تمس من خلق السماوات والأرض، فاستراح يوم السبت، واستلقى على فئاه، وركبوا رؤوسهم، فقالوا: إنه - جل وعلا - ظهر في صورة إنسان، وصارخ إسرائيل، فتم يستمع أن يعينه، ولم يخلط منه الرب حتى داركه وذريته، فأعلمه عند ذلك يعقوب، ولادعوا إليه الشعب المختار من بين الشعوب، وأنه أبناء الله وأحباؤه، وأن البار الأخيرة خالصة

لهم من دون الناس، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة، هي مدة عبادتهم العجل أربعين يوما كما افتروا على السيد المسيح "عيسى"، فزعموا أنه ابن دنا، وأن أمه زانية، وأنهم صلبوه؛ ليظهروا بني إسرائيل من هذه الجريمة الشنيعة.

كل هذا - وأمثاله كثير - من أباطيل وأضاليل اليهود، حياء القرآن هادما لها وحربا عليها، فكيف يزعمون أن القرآن نسخة عن التوراة؟

العقيدة النصرانية:

وضّل النصارى، فزعموا أن لله ولدا، وذهبوا إلى عقيدة معقدة من الإيمان بالثلاث: "الأب، والابن، وروح القدس"، وسموها بالأقاييم، فعبسى هو "الأقنوم" الثاني من ثلاث الإلهي الذي هو عين الأول والثالث، وكل منهما عين الآخر، الثلاثة واحد، وخلقوا على رجال كهوتهم ما هو حق لله وحده من التشريع والتحليل والتحريم، وزعموا أن "من لإله" صلب؛ ليخلص الإنسان من خطيئته، ويظهره من أوراده، والأعجب من هذا: أن كثيرين منهم يعتقدون بأن "عيسى بن مريم" هو الله، نزل إلى الأرض بصورة بشر. إلى غير ذلك من الأباطيل والمحاري التي نسبوها إلى الله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (الاسراء: ١٣٠).

فانصر مدى اليون الشامع بين الحق الذي حياء به لقرآن، وبين الباطل الذي جاء به هؤلاء ومؤلاء على أن القرآن الكريم لم يكف بسرد هذه الأباطيل وإلحاحها بها عن تحريف أهل الكتاب، بل رد على أولئك براهينه الساطعة، وأدلة القاطعة.

استمع إليه وهو يقول عن أهل الكتاب "النصارى": ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتَهُ أَفَآفَا إِلَى مَرْيَمَ وَوُجِدَتْهَا أُنْثَى فَاتَّخَذُوهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا غَيْرُكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۚ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدٌ لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ

أَتَمُّ يَوْمٍ، وَمَنْ يَسْتَجِبْ عَنْ عَمَلِهِ وَيَسْتَكَبِرْ فَسَيُحْشَرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٧﴾ (النمل: ١٧٧).

واستمع إليه وهو يتكلم عن أهل الكتاب "اليهود"، فيقول: ﴿فَيَمَّا نَضَبُوا مِنْهُمْ وَكَفَرُوا مِنْ بَابِ اللَّهِ وَقَالُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا مِمَّنْ نَفَخَ فِي لُجِجِ الْغَيْبِ لَقِيَ اللَّهَ عَالِمُ السُّمُومِ فَلَا يُؤْمِنُ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكَفَرُوا مِنْ قَبْلِ اللَّهِ عَلَىٰ مَرِّمٍ يُهْتَبِأُ عَطِيًّا ۖ﴾ (فولهم إنا قلنا أصبح عيسى ابن مريم رسول الله وما قلناه وما صلوة ولكن شق لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منة ما لله به من علم إلا اتباع النظر وما فتوه يقينا، بل رفع الله يديه، كان الله عزيراً حكيماً) (النمل: ١٧٨-١٨٠).

ولقد صرح القرآن بالتحريف الذي وقع عند أهل الكتاب في "التوراة والإنجيل": وبين أن مهمة الرسل إنما هي في تصحيح ما ارتكبه أهل الكتاب من الكذب والشهاد، وفي كشف ما خفوا من آيات الله في التوراة والإنجيل: ﴿إِنَّمَا أَهْلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ نَكْمُ كَثِيرٌ آمَنَ كُفَرُوا مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُ مَنْ كَثِيرٌ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۚ يَهْدِي اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ مِثْلَ الْقَرَارِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٥٩-١٦٤).

فهل بعد هذا الزهقان من حجة أوضح على صدق سيد المرسلين؟ ويرحم الله الموصي "حيث يقول:

كذلك يعلم في الأمتي معجزة في الجهمية والتأديب في التيم

٩ - وقاؤه بحاجات البشر:

وهذا الوجه من وجود الإعجاز ظاهر جلي؛ يتركه كل متأمل في شريعة الإسلام، فقد جاء القرآن الكريم بهديات نامة كاملة، شاملة واسعة، نفي بحاجات البشر في كل زمان ومكان، ويتجنى ذلك إذا استعرضت المقاصد النبيلة التي رعى إليها القرآن في هديته وارشاده وهي بإيجاز:

١ - إصلاح الأفراد. ٢ - إصلاح المجتمعات. ٣ - إصلاح العقائد.

٤ - إصلاح العبادات. ٥ - إصلاح الأخلاق. ٦ - إصلاح الحكم والسياسة.

٧ - صلاح الشؤون المالية. ٨ - صلاح الشؤون الحربية. ٩ - إصلاح النفاذ العسكية.

١٠ - تحرير العقول والأفكار من الخرافات.

ونفذ أحسن من قال:

شريعة الله للإنسان تبيد^١ وكل شيء سوى القرآن يحسره^٢

١٠ - تأثير القرآن في القلوب:

ومن وجوه إعجاز القرآن ذلك التأثير البالغ الذي أحدثه في قلوب أتباعه وأعدائه، حتى لقد بلغ من شدة التأثير أن المشركين أنفسهم كانوا يخرجون في حلق الليل يستمعون إلى تلاوة القرآن من سجين، وحتى توصوا فيما بينهم ألا يستمعوا إلى القرآن، وأن يقيموا أنفسهم بأنفسهم حينما يلقوه محمدًا، لأنهم لم يسموا به الناس: **﴿إِذْ قَالَ الْمَدْيَنِيُّ كَفِّرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَاعْتَصِرُوا بِأَعْيُنِكُمْ حَتَّى تُقَالُوا﴾** (ص: ١٦).

ونقد بلغ من تأثير القرآن في القلوب أن بعث إلى ثلاثة أشد الناس عداوة له، وأخصهم عداوة، فيسلم كثير من هؤلاء الأعداء، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب، وسعد بن معاذ، وأبيد بن حصير^٣. وغووه من نقادة ونزق^٤ هذا هو عمر بن الخطاب الذي بلغ من شدة قسوته على المسلمين أن يقول فيه أحدهم: **«إِنَّ اللَّهَ لَنْ يَسْلِمَ حَتَّى يَسْلِمَ هَذَا الْخَطَّابُ»**. والذي بلغ من شدة عداوته أن ينفذ بيعة^٥ الظهيرة، ثم يخرج يفتش عن محمد **ﷺ** بفتنه، ثم لا يأتي النساء إلا وقد رجع معتقًا للإسلام بسبب ما أثبت سمعها في بيت أخيه من "سعيد بن زيد" بيعة^٦ والقبعة مشهورة

وتأمل كيف أسلم سعد بن معاذ^٧ - سيد قبيلة الخزرج - هو وابن أخيه أبيد بن حضير.

تروي كتب السيرة: أن رسول الله **ﷺ** حين كان في مكة حاد بهما^٨ مدينة أبي بكر، يوم بيعة^٩ أفضية،

^١ من فسيطة الأستاذ وليد الأحمدي

فأرسل معهم ميعونين جليلين يعلمانهم الإسلام والقرآن، وهما: "مصعب بن عمير، وعبدالله بن أم مكتوم الجهلي، فمعا وصلا المدينة أمينا يعلمان الناس القرآن، فبلغ ذلك سعد بن معاذ رضي الله عنه - سيد القبيلة -، فقال لابن أخيه أسيد بن حضير: ألا تذهب إلى هذين المرجلين الذين جاءا بسفهان ضعفاءنا، فتنهاهما وتزجرهما عن هذا الصنيع؟

فسار إليهما أسيد، فلما انتهى إليهما قال لهما: ما جاء بكما؟ جئتما نسفهان ضعفاءنا، ثم توعدهما وهذما فقال: اعترلانا إن كانت لكما في أنفسكم حاجة؟

فقال له مصعب رضي الله عنه: لو نجلس فنتسمع؟ فإن رضيت أمرا فنته، وإن كرهته كففتا عنك ما نكره. فجلس أسيد وجعل مصعب رضي الله عنه يقرأ، وهو يسمع، فلما انتهى من مجلسه حتى أسلم. ثم كرّ راجعا إلى سعد فقال له: والله ما رأيت بالمرجلين بأسا، وأحصى أمامه إسلامه، فغضب سعد وقام بنفسه ثائرا متهاجا، فقال لهما: ما جاء بكما؟ أجئتما تسفهان ضعفاءنا؟ اعترلانا.

فقال له مصعب رضي الله عنه: أو نجلس فنسمع؟ فون رضيت أمرا قلته ماء، وإن كرهته كففتا عنك ما نكره. فقال: أنصتتما، فجعل مصعب رضي الله عنه يتلو القرآن عليه، وسعد يستمع.

يقول مصعب رضي الله عنه: والله! لقد كان وجه سعد يشرق بالإيمان وهو يستمع القرآن، فلما انتهى مصعب من القرآن حتى أعلن سيد الأوس إيمانه، ثم كرّ راجعا فجمع قبيلته وقال لهم: كيف تعلموني فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، فقال لهم سعد: كلام رجالكم ونساءكم علي حرام حتى تستموا بحمض، فدخلوا جميعا في الإسلام... رضي الله عن سعد وأرضاه.

هكذا كان تأثير القرآن في قلوب الأولياء والأعداء، ولا ننس قصة الوليد بن المغيرة وعنه من ربيعة وغيرهما ممن تأثروا بالقرآن، ولولا حب الزعامة، ولولا حب الجاه والسلطان لدخلوا جميعا في دين الله، ولكن الهداية بيد الله ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ (٢٧: مد) ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وهو أعلم بالْمُهْتَدِينَ ﴿القصص: ٥٦﴾.

ذكر صاحب تفسير المنار أن فيلسوفا من فلاسفة فرنسا ألف كتابا رد فيه - ما زعمه دعاة

النصرانية من أن محمداً ﷺ لم يأت بمثل آيات موسى، وعيسى عليهما السلام، ولم يكن له من الآيات الخوارق ما كان لمن قبله - ففان ذلك للعالمين:

"إن محمداً كان يقرأ القرآن خاشعاً موثقاً مدحاً، صادراً ومنظراً، فيجذب القلوب إلى الإيمان به فوق ما كانت تفعله جميع آيات الأنبياء السابقين"^{١١١}. وذكر الرافعي كلمة قيسة في كتابه "إعجاز القرآن" هذه الكلمة نقلها عن الأمير شكيب أرسلان: "أن الرئير" و"كلفين" المصلحين المعروفين في التاريخ المسيحي، ذكرا مرة أمام "فولنير" فيلسوف فرنسا، فقال: "إنهما لا يلبقان حداً بين تعال محمد ﷺ".

سلامته من انتفاض:

وأخيراً فإن من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم سلامته من التناقض والتعارض، خلافاً لجميع كلام البشر، وصدق الله حيث يقول: ﴿وَلَوْ كُنَّا مِنْ عِبَادِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَبِيرًا﴾ (سجدة: ٨٢).

هذه بعض وجوه الإعجاز في القرآن، وهناك وجوه أخرى صربنا عنها صفحا خشية التطويل.

ولا نزاع الزمن يكشف عن أسرار إعجاز القرآن، فكلما تقدم الزمن تجلت نواحي إعجازه، وقام البرهان القاطع أنه تنزيل الحكيم الخبير، ومع ذلك فإن هذه الأسرار التي ذكرها العلماء، إن هي إلا فطرة من بحر علوم القرآن، وبها اتسع القول وعظم البيان، فإن كلام الله تعالى لا يحيط به أحد، كما لا يحيط أحد بعظمة ذاته، وجليل صفاته.

دفع شبهة القول بالصرفة:

وإذا قد انتهينا من وجوه إعجاز القرآن الكريم نرى لزوماً علينا أن ندفع تلك الشبهة التي ذهب إليها بعض المعتزلة وبعض الشيعة، وهي: "شبهة القول بالصرفة".

وخلصتها: أن الله عز وجل صرف العرب عن معارضة على حين أنه لم يتجاوز في بلاغته

^{١١١} النظر تفسير المنير.

المستوى الذي يحجز عنه البشر، ولولا أن الله صرف همهم عن معارضته لاستطاعوا أن يأتوا بمثله... الخ.

فأنت ترى أصحاب هذا القول يذهبون إلى أن القرآن ليس معجزاً بذاته، وإنما كان إعجازه بسببه أمرين:

الأول: السارف الإلهي الذي زهدهم في المعارضة، فكبسوا وقنعوا.

الثاني: العارض المفاجيء الذي عطل مواهبهم البيانية وقدرتهم البلاغية.

وهذا القول - بشقيه - باطل، لا يثبت أمام البحث، ولا يتفق مع الواقع، وذلك لعدة أسباب:

أولاً: لو كان هذا القول صحيحاً، لكان الإعجاز في "المصرفة" لا في القرآن نفسه، وهذا باطل بالإجماع.

ثانياً: لو صح القول بالمصرفة لكان ذلك تعجيزاً لا "إعجازاً"؛ لأنه حينئذ يشبه ما لو قضينا لسان إنسان، ثم كشفناه بعد ذلك بالكلام، فهذا ليس من باب المعجز، وإنما هو من باب التعجيز.

كفاه في اليم مكنوناً وقال له إياك يياك أن تنس بالك

قالوا: لو كان هناك صارف زهدهم في المعارضة من "كس أو منل" ما وقفوا في وجه سي الإسلام، ولما أتوا، وأصحابه، ولما عذبوا المسلمين وشرؤهم، ولما قاطعوا الرسل وعشيرته، وحاصروهم في الشعب حتى أكلوا ورق الشجر، ولما فدوا صوة ومأموره على أن يترك الدعوة، ثم اضغروا إلى المحرقة هو وأصحابه الكرام إلى غير ما هنالك من دوافع وبواعث، جعلتهم يستكون كل سبيل لنقضه على الإسلام.

وأخيراً: لو كان هناك عارض مفاجيء عطل مواهبهم البيانية لأعلموا ذلك في الناس؛ ليلتمسوا العذر لأنفسهم، وبالتالي؛ ليثبتوا من شأن القرآن، ولكانوا قد نزول القرآن أقل فصاحة وبلاغة منهم قبل نزوله، وهذا باطل واضح البطلان.

خامساً: لو كان هذا العرض المفاجيء صحيحاً لأمكسنا نحن الآن، وأمكن للشعطين بالأكذب العربي

في كل عصر أن يعارضوا القرآن، بأن يثبتوا الكذب في دعوى إصحازه، وكل هذه الأشياء باطلة، فهل يرضى عاقل بنفسه أن يقول بعد ذلك كنه: إن العرب كانوا مصروفين عن معارضة القرآن ونبي القرآن، وأهم كنوا عظماء إلى الصخر والكس، زاهدين في النزول لتلك المبدان؟ وحل يصح لإنسان يحترم نفسه وعقله أن يصدق بمثل هذا الافتراء، انقول "تعتيل المواهب والحوس" بعد أن يستمع إلى شهادة أئمة الأعداء من صناديد قريش وهو "الوكيد بن النخعة" حين قال كلمته المشهورة: "والله لقد سمعت أنفاً كلاماً ليس من كلام بشر، ليس بشعر، ولا نثر، ولا كهانة، والله إن إله الخلافة، وإن عابه (اطلاوة)، وإن أعلاه (لمر)، وإن نفسه (مصدق)، وإنه ليخبر وما يعلى؟"

والفضل ما شهدت به الأعداء...، وأضخم هذه الكفة بما ذكره العلامة القرطبي في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" حيث قال: "فهذه عشرة وجوه ذكرها علمائنا بطل في إصحاز القرآن؛ وهناك قول آخر ذكره النظام: أن وجه الإصحاز هو المنع من معارضته، والصرف عند السعدي بمثله، وأن المنع والصرف هو المعجزة دون ذات القرآن، وذلك أن الله تعالى صرف همهم عن معارضته مع تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله، وهذا فاسد؛ لأن جماع الأمة أن القرآن هو المعجز، فلو قلنا: "إن المنع والصرف هو المعجز لمخرج القرآن أن يكون معجزاً".^(١)

والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلفين، ويظهر لك تصور البشر في عجزهم عن الإتيان بمثل سورة من قصير سور القرآن مع التحدي اللاذع.

هل حاول أحد معارضة القرآن؟

أجمع روافد التاريخ والأثار على أن أساطين البلاغة وفحول الشعراء من مشركي العرب لم تحدتهم أنفسهم بمعارضة القرآن، ولم يتغل عن أحد منهم أنه حاول أن يأتي بمعارضة للقرآن مع شدة

^(١) انظر تفسير القرطبي: ٧٥/١.

حرصهم على صدّ الناس عن الإسلام، والتكذيب برسالة محمد ﷺ.

ولكن نقل عن بعض السفهاء الحمقى أنهم حاولوا معارضة القرآن، فكان ما أتوا به لا يخرج عن أن يكون محاولات مضحكة، أحجلتهم أمام البشر، وجعلتهم أضحوكة لدى العفلاء، مباعوا بغضب من الله، وسحط من الناس، وكان مصيرهم هذا كسبا جديدا للحق، وبرهانا ناصعا على أن القرآن كلام الله الذي لا يستطيع معارضته إنسان.

١- فمن أولئك: "مسيلة الكذاب" الذي ادعى النبوة، وزعم أنه شريك لرسول الله في شأن النبوة، وقد كتب إليه في السنة العاشرة للهجرة للهجرة يقول: "أما بعدا فإن قد شورك في الأرض معك، وإنما لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، لكن فريضا قوم يعتدون". وقد زعم مسيلة أن له قرآنا نزل عليه من السماء، وأنه به ملك يسمى "رحمن"، وهذا نحن نقل طائفة من أقواله وفديانه؛ ليظهر كذب هذا الأحمق الدخّال، ويتضح أمره، فكفاه ذلك الوصف أنه كذاب.

قال - أخزاه الله - معارضا سورة العاديات:

(والطاحنات طحنا، والعاجنات عجننا، والحذرات حيزا، والتارذات ثردا، واللائعات لقعا، إمالة وسد... لقد فضّك على أهل الوبر، وما سبقكم أهل اللذر، ريفكم فامموه، ولغير فأووه، ولباغي فائووه) وقال: "والشاء وألوهاء، وأصحبها السود وألباهها، والشاة السوداء، واللين الأبيض، إنه لمحب محض، وقد حرم المذق فما لكم لا تمحون).

ومن قرأته المتقري: (الغبل ما الغبل، وما أدراك ما الغبل، له ذب وبل، وخرطوم طويل...) الخ. وقوله: (يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقي، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لا الماء نكسرين، ولا الشارب تمنع).

وقد زعم أنه عارض سورة الكوثر، فخرج إلى الناس بهذا الهديان:

(إِنْ أَعْطَيْنَاكَ الْجَاهِلِيَّةَ، فَصَلِّ نَوْبَكَ وَجَاهِرًا، إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْكَافِرُ).

وكل كلامه على هذا النمط وهو سخيف لا ينهض ولا يتماسك، وأنت حين تأمل ذلك الإسفاف ليس من المعارضة في قليل ولا كثير.

يقول الراجعي رحمه الله: "إن مسليمة لم يرد أن يعرض للقرآن من ناحية "الصناعة النبوية"، وإنما أراد أن يأخذ مسيله إلى استهوان قومه من ناحية أخرى، ظنّها أهون عليه وأقرب تأثيراً في نفوسهم، وذلك أنه رأى العرب تعظم الكهنة في الجاهلية، وكانت عامة أساليب الكهنة من هذا المسجع الفلج، الذي يزعمون أنه من كلام الجن كفولهم: "يا جليل، أمر نجيج. وحل فصيح، يقول: لا إله إلا الله"، فجعل يسجع لهم أنه يوحى إليه على أنه لم يطلع في هذه الخيلة إذ كان أشباعه يعرفونه بالكذب والخفاقة، ويقولون: إنه لم يكن في تعاطيه الكهانة حاذق، ولا في دعوى النبوة صادق، وإشّا كان أشاعهم إياه على حد قول قائلهم: كذّاب ربيعة أحب إلينا من صادق مصر".

ب- ومنهم: "الأسود الغنصي" ادّعى النبوة في اليمن، وكان يزعم أن الوحي ينزل عليه، فيخفض رأسه إلى الأرض، ثم يرفعه، فيقول: قال لي كذا وكذا - يعني يتلقاه للذي يوحى إليه - وكان حاراً، ولكنه كان فصيحاً معروفاً بالكهانة والسجع، والخطابة، والشعر، والنسب. ولم يذكر أنه حاول المعارضة للقرآن، وإنما اكتفى بدعوى النبوة، وهرول الوحي عليه ﴿وَرَأَى الشَّيَاطِينَ لَوُحُوذًا يَنزِلْنَ فِيهِ﴾ (النجم: ١٠٢).

ج- ومنهم: طليحة بن عويكة الأسدي ادّعى النبوة، وكان يزعم أن "ذا النون" يأتيه بالوحي، ولكنه لم يدّع لنفسه قرآناً، لأن قومه كانوا من النصحاء، ولكنهم تابعوه عصبية وطلباً للحناء والشهرة، وقد ذكر صاحب "معجم البلدان" أن له كلاماً كان يزعم أنه نزل عليه بالوحي، ولم يظهر من كلامه إلا على هذه المقالة (إن الله لا يصنع بتغير وحرهكم، وقبح أدياركم شيئاً، فادكروا الله قياماً، فإن الرغبة موق للصرح) يريد: لا تركعوا ولا تسجدوا، واكفوا بالصلاة قياماً،

وبذكر الله في حالة القيام، وقد أرسل نه أوبكر جيشاً بقيادة خالد بن الوليد، فلما انتهى الجمعان، قتل عدد كبير من أنصاعه، وتزمل هو بكساء ينظر الرحي، فقال له "عينة"، هل أتاك بعد؟ فقال وهو من تحت الكساء: لا، والله! ما جاء بعد، فقال له عينة: لقد تركت أبحر ما كنت إليه، ثم قال: يا بني فرارة! هذا كذاب ما يورك لنا وله فيما يطلب، ثم اقزم طليحة ولحق بنراحي الشام، ويقال: إنه أسلم بعد ذلك، وكان نه في القادسية بلاء حسن.

د- ومهم: "النصر من الحارث"، وهو من صناديد قريش، ورؤساء الكفر والضلالة، وهو لم يدع الشوة ولا الرحي، ولكنه رغم أنه يعارض القرآن، فلفق أخباراً من حوادث الفرس وملوك المعجم، وكان يجلس إلى قريش، فيحدثهم بهذه الأساطير، ثم يقول لهم: هذا حير بما أنزل على محمد.

هـ- ويروي أن "أبا انجلاء المعري" و"المنشي"، و"ابن المنفقع" حاولوا معارضة القرآن، ولكنهم ما كادوا مدأون هذه المحاولة حتى عجزوا واستحيوا، فكسروا الأفلام، ومزقوا الصحف. وقد ذكرنا فيما مضى محاولة "ابن المنفقع"، وأنه بعد أن عزم على المعارضة، وبدأها فعلاً، سمع صبياً يقرأ قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَأْتِرُضُّ أَلْبُجِي مَا يَكُ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَحِي وَبَعْضُ السَّاءِ وَقَعْضِي الْأَمْرِ وَاسْتَوْت عَلَى الْخُودِي وَقِيلَ بَعْدًا بَلْقَوْمِ الطَّالِبِينَ﴾ (هود ١١).

فمزق ما جمع واستحيا من إظهاره أمام الناس بعد أن قال قولته المشهورة: هذا والله! ما يستطيع الشر أن يأتي بمثله، وهذه القصة عن ابن المنفقع يذكرها الرافعي يصف، ثم يعقب عليها بقوله: "إن ابن المنفقع من أبصر الناس باستحالة المعارضة، لا شيء من الأسباب، إلا لأنه من أبلغ الناس، وإذا قيل لث: إن فلانا يزعم إمكان المعارضة، ويحتج لذلك وينازع فيه، فاعلم أن فلانا في الصناعة أحد رجلين اثنين: إما جاهل يصدق في نفسه، وإما عالم يكذب على الناس، ولن يكون ثالث ثلاثة."^(١)

^(١) انظر إعمار القرآن للرافعي.

فالرأسي يتكرر صحة هذه الرواية عن ابن المقفع كما ينكرها على المعري فكلاهما في نظره باطل واقتراء عبيها.

و- ونجدنا الأيام القريبة أن زعماء 'البهائية' والقاديانية' وضعوا كتباً يزعمون أنهم يعارضون بها القرآن، ثم عافوا - أو عجلوا - أن يظهروها أمام الناس، فأغفوها على أمل أن يأتي الوقت المناسب، فيخرجوها بعد أن يكترس الجهل ويغلب العقل.

شبهات حول إعجاز القرآن والرد عليها:

الشبهة الأولى: يقول أعداء الإسلام في معرض النطق في القرآن، وفي بني القرآن: إن عمداً ﷺ قد تلقى هذا القرآن من "بحيرا الراهب"، ونسبه إلى الله عز وجل: نيوهم فدميته. والجواب: أن هذه قرية ما فيها مريّة، وهؤلاء الخبيثاء من النصيين وأعدائهم من الملاحدة، إنما يزعمون مثل هذه الأباطيل ليثبتوا على المتغففين من أبناء المسلمين، ويفسدوا عليهم عقائدنا بأمثال هذه التشبهات والافتراءات، وهذه الشبهة باضنة لعدة أمور:

أولاً: إن الرسول ﷺ لم يثبت عنه أنه سافر إلى الشام إلا مرتين: مرة في صغره مع عمه "أبي طالب"، ومرة في شبابه مع "ميسرة" غلام السيدة خديجة رضي الله عنها، ولم يحدثنا التاريخ إنه سمع من "بحيرا"، أو تلقى عنه درساً واحداً، وإنما غاية الأمر أن "بحيرا الراهب" رأى سحابة تظلل نمرسون ﷺ، فحدثت عنه بأن هذا العلامة سيكون له شأن، ثم طسب منه أن يعيده إلى مكة خوفاً عليه من اليهود، ثم من يعقل والرسول ﷺ في سن النصف أن يتلقى هذه العلوم وانعازف؟ أو يأتي بمثل هذا القرآن المعجز، وهو لم يتجاوز بعد سن العاشرة؟ وفي المرة الثانية: كان غرضه التجارة، ولم يثبت أنه التقى بأحد من الرهبان في هذه السفرة، فمن أين لهم هذا البهتان والافتراء؟

ثانياً: من المستحيل عقلاً على أي إنسان أن يتسبح في هذه المرتبة "أستاذ العالم" خود مصادفته لراهب من الرهبان مرتين، مع أنه كان في الأولى صغيراً، وفي الثانية تاجراً، وأن يأتي هذا الكتاب المعجز وهو أمي مجرد الثقلان بأحد الرهبان مرة أو مرتين.

ثالثاً: لو كان هذا الراهب المسمى "بحراً" هو مصدر هذا القرآن، لكان هو الأخرى بالبرء والرسالة، أو لكانت عبريته تفوق عباقرة الدنيا؛ لأنه أتى بكلام أعجز فيه الأولين والأخريين.

وأما: نقول: إن المشركين من كفار قريش كانوا أعقل وأسلم تفكيراً من هؤلاء المجانين؛ لأنهم - مع شدة حرصهم على تكذيب الرسول ونبهته - لم يقبوا على أنفسهم مثل هذا الكذب الرخيص، ولم يفكروا أن يقولوا إنه تعلم من "بحر الراهب" مجرد الالتقاء به مرتين؛ لأن العقل لا يستسيغ ذلك.

الشبهة الثانية: يقولون: هذا القرآن من تعليم "بحر الرومي"، تعلم منه الرسول ﷺ في مكة... الخ.

والجواب: أن هذه الشبهة قد تولى الله عز وجل الرد عليها بأبلغ حجة وأقبح بيان، فقال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّئَلَّا يُخَذَّ لِلَّذِينَ يُؤْتُونَ إِلَيْهِ أَعْمَاجِيْ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (احزاب: ٣٠). فهذا الرجل الذين ينسبون إليه تعليم محمد ﷺ هو رومي أعجمي، لا يعرف اللسان العربي، فكيف بعلمه القرآن؟ وقد كان "بحر" هذا حذواً بمنهج الخنادق، وقد أسلم؛ فكان النبي ﷺ كثيراً ما يمر عليه، فيجلس عنده؛ فقال المشركون: والله! ما يعلم محمد! هذا القرآن إلا بحر الرومي، وكان سيده بضربه ويقول له: أنت تعلم محمد، فيقول: لا، والله! بل هو يعلمني ويهديني...

ومن الغريب أن هذه التهمة قد لانت استحساناً عند بعض الأفراد مع أنها في منتهى الغرابة والهلل؛ إذ كيف يكون الأستاذ عبداً حذواً أعجمياً، لا يفقه شيئاً من اللغة العربية، ثم يعلم رسول لغة الضاد، وهل من المعقول أن يكون هذا الرومي الأعجمي مصطفاً لهذا القرآن الذي هو أبلغ نصوص العربية، بل هو معجزة المعجزات ومفخرة العرب واللغة العربية؟ ولهذا كان رد القرآن مضحاً وقاطعاً: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِظُونَ إِلَيْهِ أَعْمَاجِيْ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (احزاب: ٣٠).

المشبهة الثالثة: إن محمداً عبقرية فذة، وهذه العبقرية المخارقة، لماذا لا يمكن أن تكون هي منبع هذه الأحبار. وأن يكون هذا القراء من تأليف محمد وترثيته؛ لأنه ذو شخصية رائعة؟ والجواب: إن هذا الكلام إنما يصدر عن جاهل لا يعرف شيئاً عن حياة النبي ﷺ. ولا عن تاريخ عشرينه وقومه، والرسول ﷺ عاشر أربعين سنة بين قومه وهو يشر إليه دأبهم في صدقه، وأمانته، ونبلاءه، وفعله حتى كان المشركون يلقبونه بـ "الصادق الأمين"، فهل يفضل بعد هذه الحياة الشريفة الطاهرة أن يأتي بأعظم هتان؟ فيزعم أن هذا القرآن من عند الله، وأنه رسول الله.

وبدأه الإنسان نذل عبي لهاته، فكيف، يتفق هذا مع تاريخ الرسول الشريف، لظاهره، وحياته الغاضبة المعطرة؟

وحبر سأل هرف: منك الروم أنا سفيان عن رسول الله ﷺ: "أهل كنتم تهيمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟"

أجابه أبو سفيان بقوله: لا، بل هو عندنا الصادق الأمين.

فقال له هرف: لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله!

ومن ناحية ثانية فقد ثبت في التاريخ ثبوتاً قطعاً أن محمداً ﷺ كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، وقد أكد هذا القرآن بقوله عز من قائل: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ يُأْتِيكَ السُّبُّطُونَ﴾ [الشكوة: ١٨]، فمن أين للرسول الله معرفة أحبار الأولين من الأنبياء والمرسلين؟ ومن أين له معرفة دقائق التاريخ، وأحوال الأمم الغائرة، وأنباء من سبق من البشر عني وجه الدقة والتفصيل؟ وهو بعد لم يقرأ كتاباً، ولم يدرس علماً، ولم يثنى هذه الأنباء عن أحد من علماء أهل الكتاب؟

ثم مهما كانت عبقرية الإنسان فذة، وبوغه عظيم، وذكاؤه وفاء، فمن أين له معرفة أمور الخيب، وأحوال المستقبل، وهل يمكن لبشر مهما سما أن يحصر عن الخيب حيث لا يشد عن أعباره

ونحده من هذه المغيبات إلا أن يكون رسولا صادقا يوحى إليه من عند الله؟

إن العطل ليحرم بأن هذا ليس في طوق البشر، ومهما بلغت العبقرية من النبوغ والذكاء، ومهما كانت الشخصية قوية ومتدلية، فلن نستطيع أن نغرق أستاذ العيب أو نحم عما ليس في مقدورها، وصدق الله: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَّحَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا لَكَ (ص ٩٥)﴾. الشبهة الرابعة: يقولون: إن عمر البئر عن الإتيان بمثل هذا القرآن لا يدل على أنه كلام الله، وما هذا إلا كمثمل عمرهم عن الإتيان بمثل "الكلام النبوي"، فهل يكون كلام الرسول من عند الله؟ أو يدل إنه كلام الله؟

وجواب: أن الحديث النبوي إن عمر عامة الناس عن الإتيان بمثله فلن يعجز أحد الخاصة عن الإتيان بمثل بعضهم، ولو تفقدوا حديث واحد أو سطر واحد من كلامه، وكلام الرسول ﷺ وإن كان في الدروة العليا من الفصاحة والبلاغة، إلا أنه لا يخرج عن كونه كلام بشر، وقد يتنبه كلام البئر بعضهم مع بعض حتى نحدد نسلها بين كلام أنس، وكلام بعض الخواص من الفصحاء، وسمع الحديث فبشبهه عينا أمره: "هو مرموع ينتهي إلى النبي ﷺ" أم هو موقوف عند انصاحني ﷺ، أي: من كلامه؟ أم مقطوع عند انصاحي ﷺ؟ ولا نستطيع أن نميز حتى يرشدنا السيد إلى عين قائله.

ومن أوتي حاسة بيانية يدرك هذا التسه كثيرا، وقد يلتبس عليها الأمر حين نسمع كلاما رائعا يليقا لأحد الفصحاء، فنفسه من كلام الرسول ﷺ، فإذا قد يكون هناك بعض الشبه بين كلام أفصح من نظير بالضاد، وبين كلام بعض السعفاء، واستمع مثلا إلى هذه الجملة الرائعة "المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء، وعوتوا كي جسم ما استند" فإن الإنسان إذا سمع هذه لم يشهد أن تكون حديثا لجملة، وصحتها، وأسلوبها "الأخذ"، وإنما حزم بأنها حديث شريف مع أنها ليست بحديث، إنما هي من كلام طبيب العرب المشهور "ابن كدة".

وأما القرآن فذاك له شأن آخر، لا يلتبس مع غيره من الكلام، ولن نستطيع أن نجد له شيئا

أو نداء لأن الذي صنعه علي عينه لن تستطيع أن تجد له شبيها أو نداء فكيف يقاس القرآن الكريم بالحديث الشريف في هذا المقام؟

ثانياً: ومن ناحية ثانية لو كان هذا القرآن من تأليف محمد ﷺ لكان ينبغي أن يكون الأسلوب في "القرآن والسنة" واحداً ضرورةً ألهما صادران عن شخص واحد، استعداداً واحداً، ومزاجاً واحداً، مع أننا نجد الفرق بينهما واضحاً، واليوتن شامعاً، فأسلوب القرآن ضرب واحد، فظهر عليه سمات الألوهية والربوبية التي تحمل عن المشاهدة والمماثلة، وأسلوب الحديث الشريف ضرب آخر، لا يحمل عن المشاهدة والمماثلة، بل هو محقق في جو البيان بقدر الأساليب البشرية الرفيعة، ولا يستصعب بحال أن يصعد إلى صفاء إعجاز القرآن، وهذا يدركه كل إنسان إذا ما قارن بين الأسلوبين بأبسط نظرة وصدق الله حيث يقول:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْلَأُ مِنْ بَعْدِهِ سِتْفَةٌ أَبْحُرٍ مَا نَبِّدْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (نجم: ٢٧).

وصدق الله: ﴿قُلْ لَيْسَ اجْتِمَاعُ النَّاسِ وَالْجِنِّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرٌ﴾ (الاحزاب: ٨٨).



الفصل الحادي عشر:

في التنبيه على أحاديث وضعت في فضل سور القرآن

قال العلامة القرطبي في مقدمة تصحيحه "الجامع لأحكام القرآن" في باب التنبيه على الأحاديث الموضوعية في فضل سور القرآن ما يلي:

"لا تنفذ لما وضعه الواضعون، واختلفه المنتقلون من الأحاديث الكاذبة، والأخبار الباطلة في فضل سور القرآن، وغير ذلك من فضائل الأعمال، قد ارتكبتها جماعة كثيرة، اختلفت أغراضهم ومقاصدهم في تركها.

١- فمنهم قوم من الرافضة مثل المعوية الكوفي، وعمد نشاطهم لصلوب وغيرها وجعلوا أحاديث، وحدثوا ما لا يوفقوا بذلك لثبوت ذلك في قلوب الناس، منها ما رواه النخعي عن أنس ابن مالك رضي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "أنا خاتم النبيين لا نبي بعدي إلا ما شاء الله"، فزاد هذا الاستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة.

٢- ومنهم جماعة وضعوا الحديث "مروى" بدعون الناس إليه، قال شيخ من شيوخ الحنوزج بعد أن قال: "إن هذه الأحاديث دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم، فإننا كنا إذا هويتنا أسرا صيرناه حديثاً".

٣- ومنهم جماعة وضعوا الحديث "جسدة" كما زعموا، بدعون الناس إلى فضائل الأعمال كما روي عن أبي عبيدة المزوري قيل له: من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس رضي في فضل سور القرآن سورة سورة؟

فقال: إن رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بغيره أبي حنيفة، ومغازي ابن إسحاق، فوضعت هذا الحديث جسدة.

قال ابن الصلاح: وهكذا الحديث الطويل الذي يروى عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في فضلي القرآن سورة سورة، وقد بحث باحث عن محرجه حتى انتهى إلى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه، وإن أثر الرضيع عليه ليّين، وقد أخطأ الواحدي المفسر ومن ذكره من المفسرين في إيداعه في تفاسيرهم.

٤ - ومنهم قوم من السؤال^{١٩} يفتقون في الأمواق والمساعد، فيضعون على رسول الله ﷺ أحاديث بأسمائهم صحاح قد حفظوها، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد.

قال جعفر بن الطيالسي:

"صلى أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين في مسجد الرصافة، فقام بين أيديهما قاص (محدث) فقال: حدثنا أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين: قالوا: أنانا عبد الرزاق، قال: أنانا معمر، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من قال: لا إله إلا الله، يخلق من كل كلمة منها طائر، متقاره من ذهب، وربته مراح، وأخذ في قصه نحواً من عشرين ورقة، فجعل أحمد ينظر إلى يحيى، ويحيى ينظر إلى أحمد، فقال: أنت حدثت بهذا؟ فقال: والله! ما سمعت به إلا هذه الساعة، فسكنا حتى فرغ من قصصه، فقال له يحيى: من حدثك بهذا الحديث؟ فقال: أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، فقال: أنانا ابن معين، وهذا أحمد بن حنبل، راصعتنا بهذا فظاً في حديث رسول الله ﷺ، فإن كان ولا بد من الكذب فعلى غيرنا، فقال له:

أنت يحيى بن معين؟ قال: نعم، قال: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، وما علمته إلا هذه الساعة، فقال له يحيى:

وكيف علمت أبي أحمق؟ قال: كانه ليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركم، كبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا، قال: فوضع أحمد كتمه على وجهه، وقال: دعه يفرم، فقام كالمستهزئ بهما".

^{١٩} جمع سائل الذي يسأل الناس الدعوة.

قال المقرئ: "فهؤلاء الصوائف كذبة على رسول الله ﷺ، ومن يجري مجرىهم... ثم قال: فلو اقتصر الناس على ما أنت في الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التي تداولها العلماء، ورواها الأئمة الفقهاء، لكان لهم في ذلك عتبة، وخرجوا عن تحذيره ﷺ حيث قال: "من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار".

فحذار مما وضعه أعداء الدين، ورنادقة المسلمين في باب الترغيب والترهيب وغير ذلك. وأعظمهم صررا أقوام من النصارى إلى الزهد، رصعوا الحديث حسنة فيما زعموا، فقبل الناس مرصع عالمهم، ثقة منهم بهم، وركبوا إليهم، فضلوا وأضلوا".^(١)

هل في القرآن ألفاظ غير عربية؟

من المنصوص به أن القرآن نزل بلسان العرب، وأنه كتاب عربي، نزل على أمة عربية بلسان عربي مبين؛ ليكون منهاجا خيلهم، ودمورا لجمعتهم، وليحتروا به ويذكروا بما فيه: ﴿يَذْكُرُوا آيَاتِهِ وَيُذَكِّرُوا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (مريم: ٥٠). وقد تضاعفت النصوص القرآنية الكثيرة على أن القرآن "عربي" في نضجه، وفي لفظه، وفي أسلوبه، وفي تركيبه، وأنه ليس فيه ما يخالف طريقة العرب في المفردات والجمل والأسلوب والخطاب من هذه النصوص الكريمة ما يلي:

- ١- قوله تعالى: ﴿يُولِيسَانِ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (شعراء: ١٢٥).
- ٢- وقوله تعالى: ﴿كَانَتْ فَضَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا يُقْرَأُ بِتِلْكَ الْوُجُوهِ﴾ (فصلت: ٣).
- ٣- وقوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سجدة: ٢).
- ٤- وثورته جل وعلا: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (المرم: ٢٨).

وقد أجمع العلماء على أن القرآن عربي ولكن احتجوا هل فيه ألفاظ مفردة من غير كلام العرب؟ على مذهبين:

المذهب الأول: مذهب الجمهور وعلى رأسهم القاضي أبو بكر ابن الخطيب، وشيخ المقرئ

ابن جرير الطبري، والشافعي، وغيرهم من العلماء الأعلام قالوا: إن القرآن عربي كله، وليس فيه ألفاظ أو مفردات من غير كلام العرب، وما وجد فيه من الألفاظ التي تنسب إلى سائر اللغات، فإنما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها، فتكسبت لها العرب والفارس، والحشدة وغيرهم.

المذهب الثاني: مشبه طائفة من العلماء قالوا: إن في القرآن بعض ألفاظ ليست عربية، وأن تلك الألفاظ - لقنتها - لا تُخرج القرآن عن كونه عربياً ميباه فتلاً لفظاً: "المشكاة" بمعنى النكوة، ولفظ: "الكف" بمعنى تضعف، ولفظ: "قنبرة" بمعنى الأسد، كل هذه الألفاظ هي بلسان الحبشة وهي الألفاظ عبر عربية.

وكذلك لفظ: "الضطامر" بمعنى الميزان، بلسان الروم.

ولفظ: "السجبل" بمعنى الحجارة والطين بلسان الفرس.

ولفظ: "العساف" بمعنى اليباد المنش بلسان الترك.

ولفظ: "أبهم" بمعنى البحر، و"الطور" بمعنى الجبل بلسان السريانية.

قال ابن عطية: "تحقيقة العبارة أن هذه الألفاظ في الأصل "أعجمية" نكس العرب استعمالها وعربتها، فهي عربية هذا الوجه. وقد كاد للعرب محالطة خبرهم من سائر الألسنة، فخلقت العرب، بألفاظ أعجمية، تستعملتها في أشعارها وعادياتها حتى جرت عرى العربي الصحيح، وعنى علما أخذ نزل بها القرآن" (١).

أدلة الجمهور:

وقد استدلل الجمهور ببعض الأدلة التي تُثبت أن القرآن عربي، وليس فيه ألفاظ عبر عربية، وفيه أسماء أعلام من لسانه غير لسان العرب، مثل: "إسرائيل" و"جبرئيل" و"عمران" و"نوح" و"لوط". وقد استدلل الجمهور بما يلي:

(١) انظر تفسير القرطبي ٨/١ - تصرف.

أولاً: الآيات القرآنية السابقة التي أثبتت أن هذا القرآن عربي كله في لفظه وأسلوبه، ونظمه وثركيه، فقد أخبر الله عز وجل عن قرآن بأنه عربي، فقال تعالى: ﴿فَرَأَانَا عَرَبِيًّا﴾، وتكرر هذا اللفظ في آيات عديدة، ومعلوم أن لفظ القرآن عام، يشمل جميع السور والآيات، ويشمل كل الألفاظ والمفردات.

ثانياً: إن القرآن نزل بلسان العرب ليمعهم ويفقهوه، وينتبروا بمعانيه، ويسمحيل أن يتخاطب الله تعالى قوماً بما لا يعلمون، كيف والآيات صريحة في إنزاله بلغة العرب للاعتبار والعمل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة يوسف: ٢)، و﴿فَرَأَانَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة ص: ٢٣)، وهذا يعني أن يكون فيه اللفظ غير عربية.

ثالثاً: إن الله تعالى قد رد على المشركين حين زعموا أن محمداً ﷺ تلقى هذا القرآن عن بعض أهل الكتاب "حجر فرمسي"، وأقام الحجة عليهم باختلاف اللسانين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّإِنْسَانٍ الَّذِي يُلْحِقُونَ إِلَهَهُ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِنِسَانٍ عَرَبِيٌّ مُبِينٍ﴾ (الجم: ٣-١)، فالقرآن عربي، وذاك أعجمي، وشأن بينهما؟

والجواب: لو كان في هذا القرآن شيء من لغة العرب، أو لا يفهمه العرب، أو ألفاظ "أعجمية" غير عربية، لأعلن المشركون اعتراضهم على قرآن، واحتجوا بذلك على عدم صدق الرسول، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا نُفِصَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ (سورة ص: ١٢).

خامساً: إن ما وجد في القرآن من ألفاظ تنسب إلى سائر اللغات، فإنما هو من باب تولد اللغات واتفاقها، بمعنى أنه هذه اللفظة تكلم بها العرب، وتكلم بها الفرس والعجم، وتكلم بها غيرهم، فهي بما انفقت عليه اللغات، لا يعني أن هذه الألفاظ غير عربية، فإذا تكلم بها العرب

١١٠ ومعنى الآية: لو أنزلنا القرآن بغير لغتهم، وحضاه اللغة الأعجمية، لقالوا: علا بنت آياته وذلك كلسان بلعنا العربية لمفهمه وتقدره؟ (المعنى وعجمي؟) أي رسول عربي وقرآن تحمي، كيف يكون ذلك؟ وكيف نزل القرآن الأعجمي على الرسول العربي؟

فهى عربية، وإذا تكلم بها غيرهم أو استعملها الأعاجم فلا يخرجها عن كونها عربية.

الترجيح:

والصحيح ما ذهب إليه الطبري وجمهور العلماء من أن القرآن كله عربي، وهو ما تشهد له النصوص الكثيرة، والجميع الدامغة القوية التي اشتهر بها العلماء.

وقد انتصر العلامة القرطبي لرأي الجمهور، ورد الرأي الثاني، وقال - بعد أن ذكر المذهبين -: "إن الأول أصح، فإن العرب لا يخرج أن تكون مخاطبت بها أو لا، فإن كان الأول فهى من كلامهم، ولا يعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم.

وإن لم تكن العرب مخاطبت بها، ولا عرفتها استحال أن يخاطبهم الله بما لا يعرفون، وحينئذ لا يكون القرآن عربياً، ولا يكون الرسول مخاطباً لقومه بلناسهم".^(١)

♦♦♦♦

^(١) نقسوه القرطبي: ٦٩/١

بحث ترجمة القرآن

معنى الترجمة:

ترجمة القرآن معناها: نقل القرآن إلى لغات أجنبية أخرى غير اللغة العربية، وضع هذه الترجمة في نسخ؛ ليطلع عليها من لا يعرف اللغة العربية "لغة القرآن"، وبذلك مراد الله عز وجل من كتابه العزيز بواسطة هذه الترجمة.

أنواع الترجمة:

ونقسم هذه الترجمة إلى قسمين:

الأول: الترجمة الحرفية.

الثاني: الترجمة تفسيرية.

والمراد بالقسم الأول: "الحرفية" أن يترجم القرآن بألفاظه ومفرداته وجمله وتركيبه، ترجمة طبق الأصل إلى اللغة الإنجليزية، أو الألمانية، أو الفرنسية - مثلا - فيقال: "القرآن باللغة الإنجليزية" أو "القرآن باللغة الألمانية"، وهكذا... فهي تشبه وضع المرادف مكان مرادفه، وبعض الناس يسمي هذه الترجمة "ترجمة لفظية".

وأما القسم الثاني: "التفسيرية" فهو أن يترجم معنى الآيات الحركية، بحيث لا يتفقد الإنسان باللفظ، وإنما يكون فهم المعنى، فيترجم القرآن بالألفاظ لا يتفقد بها بالمفردات والتركيب، وإنما يعتمد إلى الأصل في فهمه، ثم يصبه في قالب يؤدبه من اللغة الأخرى، ويكون هذا المعنى موافقا لمراد صاحب الأصل من غير أن يكلف نفسه عناء البحث والوقوف عند كل مفرد من المفردات، أو لفظة من الألفاظ، وهذا النوع يسمى "الترجمة الحرفية" أو الترجمة المعنوية.

شروط الترجمة:

وبشروط للترجمة سواء كانت حرفية، أو تفسيرية، شروط عدة، نوجزها فيما يلي:

١- أن يعرف المترجم بكسر الجيم اللغتين معاً: لغة الأصل، ولغة الترجمة.

٢- أن يكون ملماً بأساليب وخصائص اللغات التي يود ترجمتها.

٣- أن تكون "صبغة الترجمة" صحيحة بحيث يمكن أن تحمل معنى الأصل.

٤- أن تفي الترجمة بجميع معاني الأصل ومقاصده وفاءً كاملاً.

كما يشترط للترجمة "الخرفية" زيادة على هذه الشروط شروطاً أخرى:

الأول: وعود معرّفات كاملة في لغة الترجمة، مساوية للمعرّفات التي هي لغة لأصل.

الثاني: تشابه اللغتين في الضمائر المستترة، والروابط التي تربط الجمل بتأليف التركيب.

هل تجوز الترجمة الحرفية للقرآن؟

وعلى ضوء ما سبق من تقسيم للترجمة إلى حرفية وتفسيرية، ومعرفة معنى كل منهما، وشروط

التي ينبغي أن تتوفر في الترجمة يتضح لنا أن الترجمة الحرفية غير جائزة، وغير صحيحة. وذلك

لأسباب الآتية:

أولاً: أنه لا يجوز كتابة القرآن بغير الحرف اللغة العربية لئلا يقع التحريف والتبديل.

ثانياً: إن اللغات غير العربية ليس فيها من الألفاظ والمفردات والمضامير ما يقوم مقام

الألفاظ العربية.

ثالثاً: إن الاقتصاد على الألفاظ قد يفسد المعنى، وبسبب الخلل في التعبير والنظم.

ولنصرب بعض الأمثلة على ذلك؛ لنوضح الأمر، فنقول:

لم أردنا ترجمة الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا نُخِضُّ بِذَلِكَ نَفْسًا إِلَىٰ عَذَابِكَ وَلَا تَبْسُطُهَا كُلُّ

نَبْطٍ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الاسراء: ٢٤)، فإذا أردنا ترجمتها حرفية، فإن الترجمة تكون

كأنّي: لا تجعل يدك مرسومة إلى عقلك، ولا تمدّها كلّ المدّ إلى آخره، وهو معنى فاسد لم يقصده القرآن الكريم، بل قد يستنكر المُرْخَصُ له هذا الوضع، فيقول: لماذا ينهانا الله عن ربط اليد بالحق، أو مدّها غاية المدّ؟.

فالتعبير الذي جاء في القرآن إنما هو من باب التمثيل؛ لبيان عاقبة الإسراف أو الشح، وهو معنى من أنواع المعاني، لا يدركه إلا مَنْ فهم أساليب العرب في التخاطب. بالأسلوب البليغ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا خِفْيْزُ لَهُمَا خَافُ الذُّنُوبِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ (الإسراء: ٢٢)، فإن هذا اللفظ لا يمكن ترجمته ترجمة حرفية بوجود نوع خاص من التعبير البليغ يسمى بـ "الاستعارة المكنية"، وهذا لا يوجد في غير اللغة العربية، ومثله قوله تعالى: ﴿فَدَمَّ صِدْقِي عَيْنَ رَبِّهِمْ﴾ (يس: ١٠)، وقوله: ﴿تَنْخَرِي بِأَعْيُنِكَ﴾ (ممتعه: ١١)، ومثله كذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْصَرُّ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٍ لَّهُنَّ﴾ (ممتعه: ١٥)، فإذا ترجمناها ترجمة حرفية بمعنى شامع، ويصبح ضرباً من الهديان في الكلام، ومثال هذا كثير، وفساده واضح.

ترجمة القرآن بالمعنى:

أما ترجمة القرآن بالمعنى فهي جائزة بالشروط المتقدمة، وهي لا تسمى "قُرْآنًا"، وإنما تسمى تفسيراً للقرآن وذلك؛ لأن الله تعالينا بالمعاهد القرآن، ولم يتعديدا بعيره من الكلام.

فكلام الرسول ﷺ يجوز روايته بالمعنى بأن يقول: قال رسول الله: ما معناه، ولكن القرآن لا يجوز روايته بالمعنى، فلا يصح أن نقول: قال الله تعالى ما معناه، بل لا بد من تلاوة النص بحروفه وألفاظه؛ لأنه موحى به من عند الله، ولأنه معجز بلفظه ومعناه.

فالترجمة في الحقيقة ههنا ليست ترجمة للقرآن، وإنما هي ترجمة لغز القرآن، أو ترجمة لتفسير القرآن.

وقد أنزل الله كتابه إلى خلق أجمعين؛ ليكون مصدر هداية وإرشاد، وإسعاد لهم، فلا مانع لنا

أن تغفل معاني القرآن إلى الأسم الأخرى ممن لا يعرفون اللغة العربية؛ ليستنبوا بهذا القرآن،
ويفسوا من هداه وإرشاده، وهذا ملائكة غرض من أغراض القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي
لِئْتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الاسراء: ٩٠).

فترجمة القرآن بهذه المعنى يميزها لعلماء، بل هي واجبة على المسلمين؛ ليلفوا الناس دعوة الله،
ويحملوا إليهم هداية القرآن، وبغير هذه الترجمة لا يمكن أن يترك الناس عظمة هذه الشريعة،
وزراعة هذا الدين، وجمال هذا القرآن، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

انتهى لكتاب بعونه سبحانه وتعالى

والحمد لله في البدء والختام

فهرس التبيان في علوم القرآن

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
مقدمة المطبعة الرابعة لمؤلف	٣	كيف نزل القرآن فكريم	١٧
مقدمة القطعة الثالثة للمؤلف	٥	حكمه نزول القرآن سبحانه	٢٠
المجلد الأول		الرحلة الأولى	٢٣
علوم القرآن		الرحلة الثانية	٢٣
تمهيد	٧	الرحلة الثالثة	٢٤
ما المقصود بعلوم القرآن	٨	الرحلة الرابعة	٢٤
تعريف القرآن	٨	كيف نلقى النبي ﷺ القرآن	٢٩
فضائل القرآن	٩	هل السنة نبوية يوحى من الله	٣٠
آيات التكرية	٩	الفصل الثالث	
الأحداث الشريفة	٩	أسباب النزول	
أسماء القرآن	١٠	فوائد معرفة أسباب النزول	٣٢
وجه التسمية	١٠	أمثلة على معرفة أسباب النزول	٣٤
مزايا نزول القرآن	١١	تومحج إحدى الآية التكرية	٣٥
رواية الصحابي	١٢	ما هو سبب النزول	٣٦
أول ما نزل وأمر عا رل	١٣	كيف يعرف سبب النزول	٣٧
آية ثلاثة حاضرة في النزول	١٤	هل يمتد سبب النزول	٣٨
تنبيه	١٤	هل العيرة بمصوم اللفظ أو بمعصوم	
ويجب عن هذا الحديث مأجوبة	١٥	العب	١٦
أول ما نزل في القتال والخمر والأطعمة	١٦	الفصل الرابع	
المجلد الثاني		نزول القرآن بحسب سعة أحرف	
حكمه نزول القرآن معرفة		والعراعات المشهورة	
نزول القرآن الكريم	١٧	لهياد	٤٤

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٦٢	اس كثر	٤٤	أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف
٦٢	عاصم فكوى	٤٧	أحكام من نزول القرآن على سبعة أحرف ..
٦٢	أبو عمرو	٤٨	معنى نزول القرآن على سبعة أحرف
٦٣	حرر فكوى	٤٩	اختلاف العلماء في تفسير لأحرف
٦٣	نقع	٥١	الرجع
٦٣	الكسالى		هل الألف السبعة موجودة في
		٥٢	المصاحف الآن
	الفصل الخامس	٥٢	حجتهم (جماعة من الفقهاء والفراء)
	النسخ في القرآن الكريم	٥٣	منقشة مذهب الطبري
	وحكمته التشريعية	٥٣	الرد عليه
٦٦	كلمة الخطبة في النسخ للقاسم		بعض الشهادات الواردة على
٦٧	تعريف النسخ لغة واصطلاحاً	٥٥	سعة أحرف والرد عليها
٦٧	سبب النزول لآية النسخ	٥٥	الشبهة الأولى
٦٨	هل النسخ واقع في الشرائع المسقوية	٥٦	شبهة ثانية
٦٨	أدلة الجمهور	٥٧	أقر بات المشهورة
٦٩	كلام الإمام القرطبي في جوامع الأحكام ...	٥٧	تعريف القرابات
٧٠	أقسام النسخ في القرآن الكريم	٥٧	هل كان في عهد الصحابة قراء
٧١	الحكمة من نسخ الحكم مع بقاء فتاوى ..	٥٧	ونعود ونقول كيف نشأت القرابات
٧٢	هل نسخ القرآن ملزمة التبرئة المظهرة ...	٥٩	عدد القرابات وأسماءها
٧٣	هل يقع نسخ في الأحياء	٦٠	أول من صنف في القرابات
	الفصل السادس	٦٠	من اشتهرت بقراءة السبعة
	جمع القرآن الكريم	٦٠	من دونت القرابات
٧٤	جمع القرآن في عهد فتوى	٦١	طريقته
٧٤	جمع القرآن في تصدود	٦١	لقراء السبعة المشهورون
٧٧	جمع القرآن في فسطاط	٦١	القراء السبعة
٧٧	طريقة الكتابة	٦١	أمن عامر

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
جمع القرآن في عهد أبي بكر عليه السلام	٧٨	الفهم الثاني	
رواية البخاري	٧٩	الفسر بالمراية أو الرأي	١٠٠
استدلالات حول جمع القرآن	٧٩	معنى التفسير بالرأي	١٠٠
الحجة لرسيد في جمع القرآن	٨١	أنواع التفسير بالرأي	١٠١
مراء مصحف أبي بكر الصديق عليه السلام	٨٢	شبهات التفسير	١٠٢
نقاد لم يجمع القرآن في مصحف واحد	٨٢	أنصوم التي يحتاجها المفسر	١٠٣
جمع القرآن في عهد عثمان عليه السلام	٨٤	نصه لطيفا	١٠٥
سب جمع عثمان للقرآن الكريم	٨٥	مراتب التفسير	١٠٨
أقر يبر جمع أبي بكر وجمع عثمان	٨٦	المزينة الدنيا	١٠٩
أخصر بمسامع		أوله التفسير	١٠٩
التفسير بالمسؤولين		أقوال العلماء في مؤثر التفسير بالرأي	١٠٩
لما نص القرآن	٨٨	أدلة المانحين	١١٠
أقرق بين التفسير والتأويل	٨٩	أدلة الغيرين للتفسير بالرأي	١١٠
سمى التأويل	٨٩	أثر علي أدلة المانحين	١١١
أقسام التفسير	٩١	كلمة الإمام القرطبي	١١٣
تقسم الأول		كلمة الراغب الأصفهاني	١١٣
التفسير بالرؤية التأويل	٩٢	كلمة الإمام القرطبي	١١٣
أسيب ضعف لروايه بالتأويل	٩٤	تقسم الثالث	
رأي القرطبي في ساهل العرفان	٩٥	الفسر الإشاري وخرائب التفسير	١١٥
أشهر المفسرين من الصحابة	٩٦	معنى التفسير الإشاري	١١٥
عند الله بن عباس عليه السلام	٩٦	رأى العلماء في التفسير الإشاري	١١٦
رواية البخاري	٩٧	أدلة المخبرين	١١٦
شيوخ ابن عباس	٩٨	مؤلفة من أقوال العلماء	١١٧
تلامذة ابن عباس	٩٨	كلمة نزار كشي في الدرهم	١١٧
عند الله بن مسعود عليه السلام	٩٩	كلمة التفسير والتفسير	١١٨

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
كلام لسبوطي في الإتيان	١١٩	تفسير الخواصر	١٢٤
معنى إحداهن الوارد في التفسير الإشاري ..	١١٩	تفسير لسبوطي	١٢٥
شروط قبول التفسير الإشاري	١٢٠	منهجه كتاب المعنى بمرآة	١٢٦
كلمة قيمة للشيخ المرزفاني	١٢١	أشهر كتب التفسير بالطريقة "نفرأني" ..	١٢٦
كتبه مجلة الإسلام العراقي	١٢٢	تعرّف مكتب التفسير "نفرأني"	١٢٧
أنظمة على كتاب أول الإشاري المختار	١٢١	تفسير الفجر الراري	١٣٧
خلاصة البحث	١٢٣	تفسير للبهضوني	١٣٧
غرائب التفسير	١٢٤	تفسير الحارث	١٣٧
أمثلة على هذه الغرائب	١٢٥	تفسير التفسيري	١٣٨
نماذج من تفسير الشيعة	١٢٥	تفسير النيسابوري	١٣٨
من تفسيرات الشيعة (أما عشرة)	١٢٦	تفسير أبي إسعود	١٣٩
من تفسيرات السنية	١٢٧	تفسير أبي حيان	١٣٩
تفسيرات شاطبية	١٢٨	تفسير الألوسي	١٣٩
وهم فروع متعددة مذكر بعضها	١٢٨	أشهر تفاسير إيات الأحكام	١٤٠
فأذبح عن تفسير الباطنية	١٢٨	أشهر كتب التفسير الإشاري	١٤٠
أشهر كتب التفسير		أشهر تفاسير تعزلة الشيعة	١٤١
لغزواً والتدريج والإشارة	١٣٠	أشهر كتب التفسير في العصر الحديث ...	١٤١
أشهر كتب التفسير بالأنوار	١٣٠	الفصل الثاني	
تعرّف مكتب التفسير بالأنوار	١٣١	المعروف من التفسير	
تفسير ابن جرير	١٣١	الصفة الأولى	١٤٣
مزايا هذا التفسير	١٣١	مخاض من حواء	١٤٣
تفسير لسرقلدي	١٣١	عطاء بن أبي رباح	١٤٤
تفسير لعللي	١٣٢	حكيم مولى ابن عباس	١٤٥
تفسير الخوري	١٣٢	داود بن كيسان لمحيي	١٤٥
تفسير ابن عطية	١٣٣	سيرة بن جهم	١٤٦
تفسير بن كثير	١٣٣	طائفة أهل ادمية	١٤٧

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
محمد بن كعب القرظي	١٤٧	الأسلوب الصحيح	١٧٤
أبو العالية الرياحي	١٤٨	مختص أسلوب القرآن	١٧٤
زيد بن أسلم	١٤٨	أداة توضيحية على مختص أسلوب القرآن ..	١٧٥
طليقة أهل العراق	١٤٩	الابيض للرائع	١٨٠
الحسن البصري	١٤٩	قصة الجارية والأصمعي	١٨٠
سروى بن الأحنف	١٥٠	لتشريح لأهل الكامل	١٨٣
قنانة بن دعامة	١٥١	أمله من وضع الحياة	١٨٥
عطاء بن راسان	١٥٢	الإخبار عن القصات	١٨٧
مروءة المدائني	١٥٣	عدم التعارض مع المسم بالحدس	١٩٢
شبه	١٥٣	للفصل العاشر	
مختصر الخاسع		مميزات القرآن العلمية	
إعجاز القرآن		أولاً وسنة الكون	١٩٣
الصباة بمراسة القرآن العظيم	١٥٥	ثانياً نشأة الكون	١٩٤
القرآن معجزة محمد الخليفة	١٥٥	ثالثاً تقسيم الذرة	١٩٥
معي إعجاز القرآن	١٥٩	رابعاً نفخ الأوكسجين	١٩٦
مئي بتحقيق الإعجاز	١٥٩	خامساً الروحانية منية في كل شيء	١٩٦
أسلوب فقر في اتحددي	١٦٠	سادساً أغشية الجنين	١٩٧
أبراج فتحددي	١٦١	سابعاً التلقيح بواسطة الرياح	١٩٧
مثل علي بعجاز القرآن	١٦٤	ثامساً طيور الأثري	١٩٨
شروط المعجزة الإلهية	١٦٦	ثاسماً اختلاف بصمات الإنسان	١٩٨
هم كلام إنسان القرآن	١٦٧	لوقد بالوعده	١٩٩
مصحف أهل المصرفة	١٦٨	العلوم وأنظارف	٢٠٠
أراء العلماء في الإعجاز	١٦٩	لعمدة الإسلامية	٢٠١
وجود إعجاز قرآن الكريم	١٧٠	للعقيدة اليهودية	٢٠٢
أنظم أتدبع	١٧١	للعقيدة النصرانية	٢٠٣
أمنلة من التدریخ	١٧١	وملاؤه بمجاهدات أنشر	٢٠٤

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
تأثير القرآن في القلوب	٢٠٥	أدلة المجهور	٢٢١
سلامته من التناقض	٢٠٦	الترجيح	٢٢٣
دفع شبهة القول بالفسحة	٢٠٧	نكت ترجمة القرآن	٢٢٤
هل حلول أحد معارضة القرآن	٢٠٩	معنى الترجمة	٢٢٦
قال معارضا سورة العنكبوت	٢١٠	أنواع الترجمة	٢٢٤
شبهات حول إعجاز القرآن والرد عليها ..	٢١٣	شروط لترجمة	٢٢٥
الفصل الخادي عشر		هل يجوز الترجمة التحريرية للقرآن	٢٢٥
في التنبيه على أساليب وصفت		ترجمة القرآن بالمعنى	٢٢٦
في فصل سور القرآن			
هل في القرآن لقاط غير عربية	٢٢٠		

مكتبة النشر

مكتبة النشر
مكتبة النشر

ملوكة كرتون مغوي		مجلدة	
الشرح	شرح عقود رسم المغني	الصحيح لملوكة	الجامع للتومدي
الفوز الكبير	من عقيدة الطحارية	الموعظ للإمام حاشي	الموعظ للإمام محمد
تلخيص المفتاح	لبن بكافي	الهداية	مشكاة المصابيح
مبادئ الفلسفة	المعلقات المسبح	لتفسير البصاري	التبليغ في علوم القرآن
فروس البلاغة	مداد الحكمة	لتفسير الجلالين	شرح نية الفكر
لعبة المعلم	كذبة	شرح العقائد	المسند للإمام الأعظم
هداية النور	مبادئ الأصول	آثار السنن	دوران الحكمة
المعاني	إدخال الطالب	الحجرات	مختصر المعاني
إيساغوجي	هداية النور (مداول)	ديوان المتنبي	الهدية للمعبدية
عناصر النحو	شرح مدق عامل	نور الأعرار	دروس النحويين
	للمعاني في قواعد الإعراب	شرح النجاشي	المعاني
	يستطيع قريباً بعون الله تعالى	نور الدقائق	المقامات الحريفة
	مسيرة مجتدة	محنة العرب	أصول الشافعي
	للمصحيح المغوي	مختصر القندوري	شرح تهذيب
		نور الإحسان	علم الصبيد
Books in English		Other Languages	
Tafseer-Ul-Maani (Vol. 1, 2, 3)		Riyad us-Saheeh (Spanish) (H. Binong)	
Usaan-ul-Guran (Vol. 1, 2, 3)		Fazul-e-Aasia (German)	
Key Usaan-ul-Guran (Vol. 1, 2, 3)		Murtadhab Ahadis (German)	
Al-Furusi Aash (Large) (H. Binong)		To be published Shortly Fashu Allah	
Al-Furusi Aash (Small) (Card Cover)		Al-Furusi Aash (Small) (Card Cover)	

